النص الكامل
الطبعة الثانوية الأولى والوحيدة باللغة العربية

أغاثا كريستي

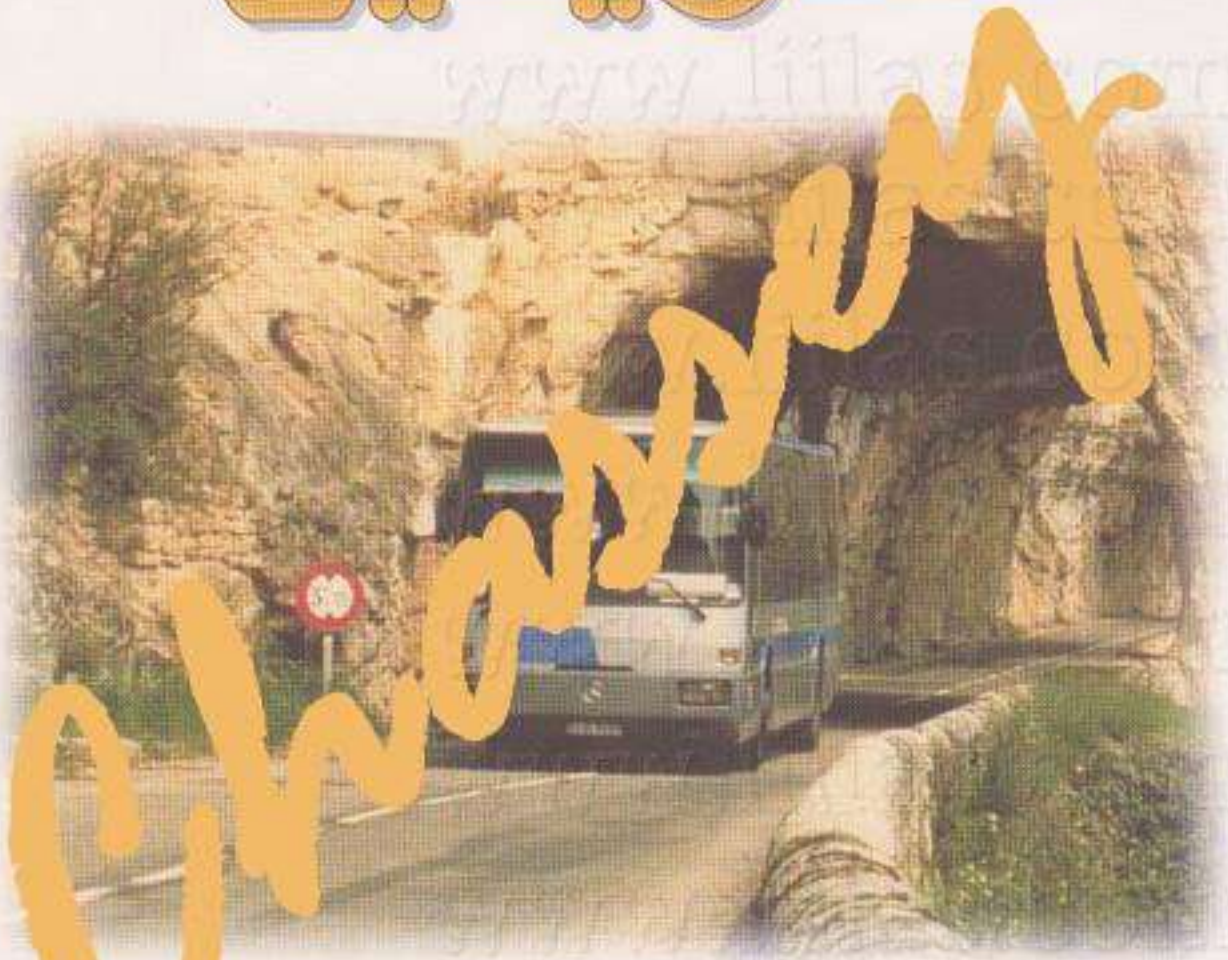

انْتِقَامُ العَدَالَة

٧٢

الأجيال
للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

www.liilas.com

Agatha Christie

Nemesis

انْتِقَامُ العَدَالَة

قرأت الآنسة ماربل الخطاب مرة أخرى. كان خطاباً غريباً من السيد رافائيل الذي مات منذ أيام والذي عرفته الآنسة ماربل قبل سنوات عديدة حين ساعدها في حل لغز جريمة في البحر الكاريبي.

الخطاب يقول إن للآنسة ماربل حاسة لا تخطئ في إدراك الشر وعزيمة لا تعرف التردد في إحقاق العدالة، ويطلب منها التحقيق في جريمة قتل.

لكن الخطاب لا يذكر شيئاً عن الجريمة ولا عن القاتل، فما الذي يمكن لها أن تفعله؟

MARPLE

الآنسة ماربل

روا... ...ن ... ايات الكاتبة العملاقة التي ... بر أ... ...لفة في التاريخ من ح... ...نشار ... عد... ...ابيع منها من ... وهي -بلا ... ال... ...شهر مَن كتب ... الجريمة في ... ...شر... في ... العصور. وقد تُرجمت ... إلى معظم اللغات الحية، وقا... ... ما طُبع منها ألفي مليون نسخة!

٧٢

... هذه الرواية حسب ترتيب ... ور الروايات ... نكليزية

... صاحب ... الحصري ... العربية ... جمة ... نحاء العالم

ISBN 2-1957-2681-2

9782195726812

US $ 4.00

سعر البيع ١٠٥ ريالاً

الأجيال
للترجمة والنشر
Publishers

www.lilas.com

CHASSEY

www.liilas.com

الفصل الأول

عرض

كان من عادة الآنسة جين ماربل عصر كل يوم تصفّح الصحيفة الثانية. كانت تستلم صباح كل يوم صحيفتين عند باب بيتها، وكانت الآنسة ماربل تقرأ الصحيفة الأولى منهما وهي تشرب فنجان الشاي في الصباح الباكر، هذا إن جاءتها في الوقت المحدد؛ فالصبي الذي يوزع الجرائد لم يكن يستقر على حالٍ في توقيت عمله. وفوق ذلك غالباً ما كان صبي جديد يتولى الأمر أو صبي احتياطي يقوم مقام صاحبه مؤقتاً في ذلك، وكان لكل واحد من هؤلاء أفكاره الخاصة حول خط التوزيع الذي يسلكه في عمله، وربما كان يريد كسر الرتابة اليومية.

لكن الزبائن الذين اعتادوا قراءة صحيفتهم في وقت مبكر من الصباح حتى يتلقفوا الأخبار المثيرة قبل مغادرتهم إلى الحافلات أو القطارات أو وسائل المواصلات الأخرى التي توصلهم إلى أماكن عملهم، هؤلاء الزبائن كانوا يتضايقون إن تأخرت الصحف عنهم. أما نساء قرية سينت ميري ميد ممّن بلغن أواسط العمر أو الكهولة

واستقرت بهن الحياة في منازلهن فكنّ يفضلن غالباً قراءة الصحيفة وهن جالسات على طاولة الإفطار.

أما اليوم فقد قرأت الآنسة ماربل الصفحة الأولى وبعض الموضوعات الأخرى في الصحيفة اليومية التي تسميها مجازاً «صحيفة كل لون»، في إشارة ساخرة إلى صحيفتها المعتادة «نيوز غيفر» التي تغيّر مالكها فباتت تنشر من الموضوعات ما أزعج الآنسة ماربل وكثيراً من صديقاتها، بدءاً بخياطة ملابس الرجال وأزياء النساء وموضوعات الإثارة النسوية ومسابقات الأطفال، وانتهاءً برسائل الشكاوى من النساء. وقد أفلحت الصحيفة تماماً في تغييب أية أخبار حقيقية إلاّ على الصفحة الأولى فقط أو في زاوية غير ظاهرة يستحيل العثور عليها. وبما أن الآنسة ماربل من الطراز القديم فقد كانت تفضّل أن تكون صحيفتها صحيفة أخبار فعلاً.

وعند العصر، بعد أن أنهت تناول الغداء وبعد أن نامت في غفوة قصيرة لعشرين دقيقة على كرسي مرتفع الظهر اشترته خصيصاً ليناسب ما يعانيه ظهرها من روماتزم، بعد ذلك كله فتحت صحيفة «التايمز» التي ما تزال تُحتمَل أو تسمح بقراءة متأنية مريحة، ولكن ذلك أيضاً لا يعني أن «التايمز» قد بقيت كعهدها القديم.

إن ما يثير الجنون في هذه الصحيفة هو أنك لم تعد تجد فيها مكان موضوعاتك. وبدلاً من أن تبدأها من الصفحة الأولى وتمضي بها وأنت تعرف أين توجد بقية الموضوعات بحيث تنتقل من موضوع إلى موضوع آخر تريده بسهولة، بدلاً من ذلك حدثت تغييرات غريبة على هذا السياق الذي استقر عبر الزمن واكتسب حظوة وألفة؛ فقد أصبحت هناك فجأة صفحتان مكرّستان للرحلات والسفر، وأصبحت

www.liilas.com

الرياضة بارزة أكثر مما كانت في أي وقت مضى، فيما حافظت صفحة المحاكم والقضايا على شيء من التقاليد القديمة. أما المواليد والزيجات والوفيات (والتي شغلت في وقت ما جُلّ اهتمام الآنسة ماربل بسبب موقعها البارز في الصحيفة) فقد نُقلت إلى مكان آخر في «التايمز» على الرغم من أنها استقرت مؤخراً في الصفحة الأخيرة.

كانت الآنسة ماربل تركز انتباهها أولاً على الأخبار الرئيسية في الصفحة الأولى، ولم تكن تقف عندها طويلاً لأن هذه الأخبار قريبة من الأخبار التي قرأتها في الصباح مع تغيّر بسيط في أسلوب صياغتها. وتابعت بنظرها قائمة المحتويات: المقالات والتعليقات والعلوم والرياضة، ثم اتبعت برنامجها المعتاد فقلبت الصحيفة لتلقي نظرة سريعة على المواليد والزيجات والوفيات، ثم فتحت الجريدة على صفحة رسائل القراء حيث تجد دائماً شيئاً تستمتع به. ومن هناك مرت على أخبار المحاكم، حيث وجدت في تلك الصفحة أيضاً أخبار اليوم من قاعات العرض والمزاد، ويكون في هذه الصفحة في الغالب مقالٌ علمي قصير، لكنها لم تكن تعتزم قراءته في ذلك اليوم فنادراً ما يكون مفهوماً لديها.

وبعد أن قلبت الجريدة إلى الصفحة الأخيرة كعادتها (حيث أخبار المواليد والزيجات والوفيات) فكرت الآنسة ماربل في نفسها كما اعتادت دوماً: "من المؤسف حقاً أن لا يتركز اهتمامي هذه الأيام إلاّ على الوفيات"! الناس يُرزقون بأطفال، لكن الذين يرزقون بأطفال لا تعرفهم الآنسة ماربل في الغالب لأنهم من جيل غير جيلها. ولو كان هناك عمود عن الأطفال تُذكَر فيه أسماء أجدادهم فعندها قد تسعد الآنسة ماربل بالتعرف عليهم، وربما فكرت في نفسها عندئذ: "حقاً!

ها هو الحفيد الثالث لماري بريندار جاست"... ولكن حتى هذا الأمر ربما كان مستبعَداً.

مرت على أخبار الزيجات بسرعة، وهذه أيضاً دون تركيز شديد لأن معظم بنات أو أبناء صديقاتها المسنّات قد تزوجوا منذ سنوات. ثم انتقلت إلى عمود الوفيات وأولَتْه اهتماماً أكثر جدية. والواقع أنها أعطته من الاهتمام ما يكفي للتأكد من أنها لم تتجاوز أيّ اسم: ألواي، أنغوباسترو، بارتون، بِدْشو، كاربنتر، كامبرداون، كليغ... كليغ؟ هل هي واحدة من عائلة كليغ الذين تعرفهم؟ لا، لا يبدو ذلك. جانيت كليغ من مكان ما من يوركشاير.

مضت في قراءة الأسماء: ماكدونالد، ماكنزي، نيكلسون، نيكلسون؟ لا، ليس نيكلسون الذي تعرفه. ليندا أورمارود؟ لا، إنها لا تعرفها. كوانترل؟ يا إلهي! لا بد أنها إليزابيث كوانترل... في الخامسة والثمانين من عمرها. حقاً! كانت تظن أن إليزابيث كوانترل قد ماتت منذ سنوات. غريب أن تعيش كل هذه المدة؛ فقد كانت امرأة ناعمة رقيقة ولم يتوقع أحد أنها ستعمّر طويلاً.

ومضت في القراءة من جديد: رايس، ريدلي، رافائيل... رافائيل؟ تحرك في نفسها شيء. كان ذلك الاسم مألوفاً لديها. رافائيل من بيلفورد بارك في ميدستون. بيلفورد بارك في ميدستون؟ لا، إنها لا تتذكر ذلك العنوان.

حسناً، ماذا أيضاً؟ جيسن رافائيل. إنه اسم غير عادي، اعتقدت أنها سمعت بذلك الاسم في مكان ما. وماذا أيضاً؟ رايلاند، إيميلي رايلاند... لا، إنها لا تعرف واحدة باسم إيميلي رايلاند.

www.liilas.com

وضعت الآنسة ماربل صحيفتها وألقت نظرات لامبالية على الكلمات المتقاطعة بينما ظلت في حيرتها وهي تفكّر: لماذا كان اسم رافائيل مألوفاً لديها؟ قالت الآنسة ماربل وهي تعرف -بطول الخبرة- كيفية عمل ذاكرة كبار السن: سأتذكره؛ سأتذكره بلا شك.

نظرت إلى الحديقة خارج النافذة، ثم حولت نظراتها وحاولت نسيان الحديقة. كانت حديقتها مصدر سعادة كبيرة لها، إضافة إلى ما بذلته فيها من الجهد والتعب منذ سنوات طويلة، أما الآن فمحظور عليها بسبب تعليمات الأطباء أن تعمل في الحديقة. حاولت ذات مرة محاربة هذا الحظر لكنها توصلت إلى نتيجة تقول إن من الأفضل لها أن تلتزم بما قيل لها. كانت قد وضعت كرسيها في زاوية لا تستطيع منها النظر إلى الحديقة بسهولة إلاّ إذا كانت تريد تماماً النظر إلى شيء محدد بعينه، وتنهدت وأخذت حقيبة الصوف وأخرجت منها سترة طفولية تعمل بها أوشكت على الانتهاء منها.

كانت قد انتهت من حياكة الظهر والصدر، وكان عليها الآن أن تمضي في نسج الأكمام. إن عمل الأكمام مملّ دائماً، كما أن الكمين كليهما متشابهان. نعم، هذا عمل ممل جداً. ولكنه كان صوفاً ورديّاً جميلاً. صوف وردي؟ لحظة، لحظة... بماذا يذكّرها الصوف الأحمر؟ نعم، نعم؛ إنه يرتبط بذلك الاسم الذي قرأته قبل قليل. صوف وردي، بحر أزرق، البحر الكاريبي... شاطئ رملي، أشعة الشمس، وكانت تغزل الصوف هناك... وبالطبع تذكرت السيد رافائيل في رحلتها تلك إلى البحر الكاريبي. جزيرة سينت هونري، دعوة من ابن أخيها ريموند... وتذكرت جوان زوجة ريموند وهي تقول: "لا تتدخلي في أي جريمة قتل أخرى يا عمتي جين؛ إنه غير جيد لك". حسناً، هي لم ترغب في التدخل في أية جريمة، ولكن

الأمر وقع... هكذا بصورة عفوية، هذا كل ما في الأمر. وقد وقع ذلك لأن رائداً عجوزاً ذا عين زجاجية أصرّ على إخبارها ببعض القصص الطويلة المملة. يا لذلك الرائد المسكين! ما اسمه؟ لقد نسيت ذلك الاسم الآن. السيد رافائيل وسكرتيرته السيدة... السيدة والترز، نعم، إيستر والترز، وذلك الرجل جاكسون الذي يقوم بتدليكه. لقد تذكّرت كل شيء... حسناً، مسكين السيد رافائيل. إذن فقد مات السيد رافائيل؟ كان يعرف أنه لن يلبث أن يموت، لقد أخبرها بذلك في الواقع. يبدو أنه عاش أكثر مما توقع له الأطباء، لقد كان رجلاً قوياً، رجلاً عنيداً، رجلاً ثرياً جداً.

ظلت الآنسة ماربل مستغرقة في تفكيرها بينما يداها تعملان بالصنارة بشكل منتظم، لكن عقلها لم يكن مركزاً على غزل الصنارة. كانت تركز تفكيرها على السيد رافائيل الراحل وما يمكنها أن تتذكره عنه. ليس من السهل نسيان ذلك الرجل؛ كانت تستطيع استحضار صورته في ذهنها جيداً. نعم، شخصية مميزة جداً، رجل صعب المراس سريع الغضب، وأحياناً يُظهر وقاحة تثير الصدمة. ومع ذلك فإن أحداً لم يُظهر استياء من وقاحته تلك. تذكرت ذلك أيضاً، لم يستاؤوا من وقاحته لأنه كان واسع الثراء. نعم، كان ثرياً جداً. كان قد أحضر سكرتيرته معه وغلاماً مؤهلاً لأعمال التدليك، ولم يكن قادراً على التنقل بشكل جيد دون مساعدة من أحد.

كان مدلّكه ذاك شخصية تثير الريبة كما اعتقدت الآنسة ماربل، وكان السيد رافائيل شديد الوقاحة معه أحياناً ولكن المدلّك لم يَبدُ مهتماً لذلك أبداً، وذلك يعود -أيضاً- إلى ثراء السيد رافائيل بالطبع.

كان السيد رافائيل قد قال: "لا أحد سيدفع له نصف ما أدفعه، وهو يعرف هذا، لكنه بارع في عمله". وتساءلت الآنسة ماربل إن كان جاكسون (أو جونسون؟) قد ظل يعمل عند السيد رافائيل أم لا؟ لا بد أنه ظل يعمل عنده... سنة أخرى؟ سنة وثلاثة أشهر أو أربعة. فكرت أنه ربما لم يدم عنده كل هذه المدة، فالسيد رافائيل كان يحب التغيير دائماً؛ كان يسأم من الناس ويسأم من سلوكهم ومن وجوههم ومن أصواتهم.

كانت الآنسة ماربل تفهم ذلك؛ فقد انتابها الشعور نفسه في بعض الأحيان. رفيقتها تلك، تلك المرأة اللطيفة المصغية التي تثير الجنون بصوتها الذي يشبه هديل الحمام. قالت الآنسة ماربل: آه، يا له من تغير نحو الأفضل منذ...

يا إلهي! لقد نسيت اسمها الآن. الآنسة... الآنسة بيشوب؟ لا، ليس الآنسة بيشوب. يا إلهي، كم هذا صعب!

عادت بتفكيرها إلى السيد رافائيل وإلى... لا، لم يكن اسمه جونسون بل جاكسون، آرثر جاكسون. مرة أخرى قالت الآنسة ماربل في نفسها: آه، يا إلهي! دائماً أخلط بين الأسماء. إن التي كنت أفكر فيها اسمها الآنسة نايت وليس الآنسة بيشوب. لماذا اعتقدت أن اسمها الآنسة بيشوب؟ وما هو اسم تلك السكرتيرة اللطيفة التي كانت تعمل عند السيد رافائيل؟ آه، نعم، إيستر والترز، هذا صحيح. ترى ماذا حدث لإيستر والترز؟ هل ورثت نقوداً؟ ربما ورثت أموالاً الآن.

لقد تذكرت أن السيد رافائيل أخبرها شيئاً من هذا أو أنها هي التي أخبرتها... يا إلهي! إن ذهن المرء يصبح مشوّشاً عندما يحاول أن يتذكر شيئاً بدقة. إيستر والترز، لقد ضربها ضربة موجعة ذلك

www.liilas.com

الحدث الذي وقع في البحر الكاريبي، ولكن لا ريب أنها تغلبت عليه. كانت أرملة، أليس كذلك؟ لقد تمنت الآنسة ماربل لو أن إيستر والترز تزوّجت ثانية رجلاً لطيفاً ودوداً يُعتمَد عليه. لكن هذا بدا أمراً بعيد الاحتمال؛ فقد كانت إيستر والترز عبقرية في الإعجاب بالرجل غير المناسب لكي تتزوجه!

عادت الآنسة ماربل إلى التفكير في السيد رافائيل. كان خبر التعزية يقول: «الرجاء عدم إرسال ورود»، وهي ما كانت سترسل وروداً على أي حال، فقد كان يستطيع شراء كل مشاتل الزهور في إنكلترا لو أراد. وعلى أية حال لم تكن بينهما تلك العلاقة الوثيقة، فهما لم يكونا صديقين ولم تكن بينهما علاقة مودة؛ كانا مجرد... حليفين. نعم، حليفان لفترة قصيرة جداً، فترة مثيرة جداً. وكان نِعْمَ الحليف.

كانت قد أدركت ذلك فيه، أدركت ذلك عندما ذهبت تركض في ليلة مظلمة حارة على شاطئ الكاريبي وجاءت إليه. نعم، لقد تذكرت؛ فقد كانت تلبس شال الصوف الوردي ذاك تلفّ به رأسها، ونظر إليها ثم ابتسم، وبعد ذلك قالت كلمة جعلته يضحك. لكنه لم يضحك في النهاية؛ نعم، لقد فعل ما طلبته منه. آه! كان عليها أن تعترف أن الأمر كله كان مثيراً جداً. ولم تخبر ابن أخيها أبداً أو زوجته بالأمر، ألم يطلب الاثنان منها أن لا تفعل ما فعلته؟

أومأت الآنسة ماربل، ثم همست تحدّث نفسها: مسكين السيد رافائيل. أرجو أن لا يكون قد عانى قبل وفاته. ربما لم يعانِ؛ ربما ظلّ الأطباء يعطونه المهدّئات والمسكّنات حتى يموت ميتة سهلة. لقد عانى كثيراً في الأسابيع التي قضاها في الكاريبي؛ كان يعيش في ألم وصراع دائماً. لقد كان رجلاً شجاعاً.

www.liilas.com

رجلٌ شجاع. لقد تأسفت على وفاته لأنها كانت تعتقد أنه بالرغم من كبر سنه ومرضه فإن العالم قد خسر شيئاً برحيله. لم تكن تعرف كيف كان الرجل في عمله، ربما كان قاسياً ووقحاً ومتسلطاً وعدوانياً، ولكنه... ولكنه كان صديقاً طيباً ويوجد في داخله عطفٌ عميق كان حريصاً جداً أن لا يظهره إلى السطح. كان رجلاً أعجبها ونال احترامها. لقد أسفت على رحيله وكانت ترجو أن لا يكون قد اهتمّ كثيراً أو عانى كثيراً قبل موته، ولا بد أن جثته قد أحرقت الآن ووُضعت في قبو رخامي كبير وأنيق. بل هي لم تعرف إن كان الرجل متزوجاً أو غير متزوج، لم يذكر أمامها زوجة أو أطفالاً. أكان رجلاً وحيداً أم أنه كان في حياته من المشاغل ما لم يشعر معه بالوحدة؟

جلست هناك وقتاً طويلاً عصر ذلك اليوم تتساءل بخصوص السيد رافائيل. لم تتوقع رؤيته مرة ثانية بعد عودتها إلى إنكلترا، ولم تره ثانية أبداً، ومع ذلك كانت تستطيع في أي لحظة وبطريقة غريبة أن تشعر بأنها على اتصال معه. لو كان قد حاول الاتصال بها أو اقترح لقاءها بسبب شعوره -ربما- برابطة الحياة التي أنقذاها، أو بسبب رابطة أخرى. رابطة...

قالت الآنسة ماربل مذعورة من الفكرة التي خطرت لها: لا يمكن أن تكون بيننا رابطةُ القسوة بالتأكيد!

هل كانت هي، جين ماربل، أو هل كان بوسعها أن تكون... قاسية؟ قالت الآنسة ماربل تحدّث نفسها: أتعرفين؟ إنه أمرٌ غريب لم أفكر فيه من قبل أبداً. أظن أنني ربما كنت قاسية!

فُتِحَ البابُ وأطلّت منه امرأة ذات شعر أسود متجعد. كانت تلك

هي شيري، الخليفة العتيدة للآنسة بيشوب... أو الآنسة نايت. قالت شيري: هل قلت شيئاً؟

ردّت عليها الآنسة ماربل: كنت أحدث نفسي، لقد تساءلت إن كان بوسعي أن أكون قاسية.

- ماذا، أنت؟ أبداً! إنك اللطف بعينه.

- ومع ذلك، أعتقد أنني قد أكون قاسية إن كان هناك سبب يدعو لذلك.

- وما هو السبب الذي يدعو لذلك؟

- في سبيل العدالة.

قالت شيري: لقد كان لديك بعض القسوة على غاري هوبكينز الصغير عندما أمسكتِ به وهو يعذّب قطته ذلك اليوم. لم أكن أعرف أنك يمكن أن تصلي إلى هذا الحدّ مع أحد! لقد خاف منك كثيراً ولم ينسَ ذلك الموقف منك أبداً.

- أرجو أن لا يعود لتعذيب القطط مرة أخرى.

- إذا أراد تعذيب قطة فسوف يتأكد أنك لست في مكان قريب. الواقع أنني لست متأكدة إن كان هناك ولدٌ يمكن أن يخاف كما فعل ذلك الصبي. عندما يراك أي شخصٍ وأنت تحملين هذا الصوف والصنانير فإنه سيظن أنك كالحمل الوديع، ولكني أحسب أنك أحياناً تتصرفين كالأسد إذا استثارك أحد.

بدت الآنسة ماربل مرتابة بعض الشيء ولم تستطع أن تتصور نفسها في ذلك الدور الذي أسندته لها شيري قبل قليل. تذكرت

لحظات مختلفة؛ ذات مرة غضبت غضباً شديداً من الآنسة بيشوب... نايت. لكن غضبها اتخذ شكل ملاحظات ساخرة فقط. أما الأسُود فيفترض أنها لا تستخدم السخرية؛ ليس في الأسد ما يدل على السخرية، إنه يقفز ويزأر ويستخدم مخالبه وينهش فريسته.

قالت الآنسة ماربل: في الواقع لا أظن أنني تصرفت أبداً هكذا.

فكّرت الآنسة ماربل بتلك النقطة من جديد عندما كانت تسير في حديقتها بخطوات متثاقلة ذلك المساء ومشاعر الغضب تلك تعتمر في صدرها. ربما كانت نباتات أنف العجل البيضاء هي التي ذكّرتها بها، والحق أنها كانت أخبرت العجوز جورج المرة تلو الأخرى بأنها لا تريد تلك النباتات القبيحة التي يبدو دوماً أن البستانيين مولعون بها كثيراً. كانت قد طلبت منه زراعة نباتات أنف العجل الصفراء لا هذه البيضاء. وقالت الآنسة ماربل بصوت عال: الصفراء!

التفت امرأة كانت تسير في الطريق خارج حديقة البيت وقالت: عفواً؟ هل قلتِ شيئاً؟

التفتت الآنسة ماربل إليها وقالت: كنت أحدث نفسي.

كانت هذه امرأة لا تعرفها الآنسة ماربل، وهي التي تعرف معظم النساء في قرية سينت ميري ميد. كانت تعرفهن بالشكل إن لم تكن معرفة شخصية. كانت امرأة قوية البنية تلبس تنورة بالية وحذاء ريفياً جيداً وسترة زمردية اللون ووشاحاً من الصوف. وأضافت الآنسة ماربل تقول: أخشى أن الناس في مثل سني يفعلون ذلك.

قالت المرأة الأخرى: إن حديقتك هذه جميلة.

www.liilas.com

- ليست بهذا الجمال الآن. عندما كنت أقوم على رعايتها بنفسي...

- آه، أعرف؛ أفهم شعورك. أظن أن لديك واحداً من هؤلاء الذين أسميهم تسميات عديدة كلها مقذعة، أعني أولئك البستانيين العجائز الذين يدّعون أنهم يعرفون كل شيء عن أعمال الحدائق. بعضهم يعرف فعلاً والبعض الآخر لا يعرف أي شيء أبداً. إنهم يأتون لشرب الشاي ولا يعملون في الحديقة إلاّ القليل، بعضهم لطيف ومع ذلك فإن تصرفاتهم تثير السخط عموماً. إنني ماهرة جداً في أعمال الحديقة.

سألتها الآنسة ماربل ببعض الاهتمام: هل تعيشين هنا؟

إنني أقيم عند سيدة تدعى هيستنغز. أظن أنني سمعتها تتحدث عنك، أنت الآنسة ماربل، أليس كذلك؟

- آه، بلى.

- لقد جئت للعمل مساعدة بستاني. اسمي بارتليت بالمناسبة، الآنسة بارتليت. والحق أنه لا يوجد عمل كثير عند السيدة هيستنغز، إنها تحب النباتات التي تعمر عاماً واحداً فقط، وهو أمر لا يشغل كل وقت المرء. وأنا أقوم ببعض الأعمال الغريبة إضافة إلى عملي في الحديقة... التسوق وأشياء كهذه. وعلى أية حال إذا أردتني أن أعمل لديك في أي وقت فإنني أستطيع القدوم عندك للعمل ساعة أو ساعتين. أعتقد أنني أفضل من أي بستاني لديك الآن.

قالت الآنسة ماربل: قد يكون هذا أمراً سهلاً. أنا أحب الأزهار أكثر ولا أهتم بالخضراوات كثيراً.

www.liilas.com

- أنا أزرع الخضراوات للسيدة هيستنغز، وهو عمل مضجر لكنه ضروري. حسناً، عليّ أن أذهب.

تفحصتها الآنسة ماربل من رأسها حتى أخمص قدميها وكأنها تتذكرها، ثم أومأت برأسها مبتهجة وانطلقت ذاهبة.

السيدة هيستنغز؟ لم تستطع الآنسة ماربل أن تتذكر صاحبة هذا الاسم. لا بد أن السيدة هيستنغز هذه ليست صديقة قديمة لها، لا شك أنها ليست ممن جمعهن مع الآنسة ماربل حب الحدائق. آه، طبعاً؛ ربما كانت تسكن في أحد تلك البيوت التي بُنيت حديثاً في نهاية شارع جبل طارق. لقد انتقلت عدة عائلات للسكن في تلك البيوت في السنة الماضية.

وتنهدت الآنسة ماربل ونظرت ثانية إلى نباتات أنف العجل البيضاء وهي متضايقة منزعجة، ثم إلى بعض النباتات الطفيلية الضارة التي تمنت لو تستطيع مهاجمتها واجتثاثها، ولكنها قاومت ذلك الإغراء وتنهدت ثم انقلبت إلى بيتها. وعادت بتفكيرها ثانية إلى السيد رافائيل. كانت علاقتهما تذكّرها... بماذا؟ ماذا كان اسم ذلك الكتاب الذي اعتادت في صباها أن تقتطف منه الكثير من الأقوال؟ «سفن تلتقي في الليل». نعم، كم هو مناسب هذا التشبيه عندما يتأمله المرء؛ فقد كان الوقت ليلاً عندما ذهبت إليه لتطلب... بل لتصرّ على طلب المساعدة، ولتلحّ وتؤكد على ضرورة عدم إضاعة أي لحظة.

وقد وافق ووضع الأمور في نصابها في الحال! ربما كانت تشبه الأسد حقاً في تلك الحادثة. ولكن لا، ذلك خطأ. لم تكن تشعر بالغضب؛ كان مجرد إصرار على شيء كان من الضروري جداً عمله في الحال، وقد تفهّمَ الرجلُ الموقف.

مسكين السيد رافائيل. لقد كانت السفينة التي مرت ليلاً سفينة تستحق الاهتمام. عندما تعتاد على وقاحته فإنك ستراه في الحال رجلاً مقبولاً. لا، هزت رأسها؛ ما كان للسيد رافائيل أن يكون مقبولاً أبداً. حسناً، يجب أن تبعد السيد رافائيل من تفكيرها.

سفنٌ تلتقي ليلاً، وتتبادل الحديث عند اللقاء: مجرد إشارة تُرى وصوت بعيد في الظلام.

ربما لن تفكر فيه أبداً بعد ذلك. ستتفحص جريدة التايمز لترى إن كان له نعيٌ فيها، لكنها لم ترَ ذلك أمراً محتملاً. وفكرت بأنه ليس شخصية مشهورة معروفة، فقد كان مجرد رجل بالغ الثراء. إن كثيراً من الناس -بالطبع- تُنشر أخبار نعيهم في الصحف لمجرد أنهم أغنياء فقط، لكنها رأت أن ثراء السيد رافائيل ليس من ذلك النوع، فهو لم يكن بارزاً في أية مهنة كبرى ولم يكن ذا عبقرية مالية كبيرة، كما لم يكن مصرفياً بارزاً مثلاً. كان مجرد رجل قضى عمره في جمع مبالغ ضخمة من المال.

* * *

الفصل الثاني

كلمة السر «انتقام العدالة»

بعد أسبوع تقريباً من وفاة السيد رافائيل أخذت الآنسة ماربل رسالة كانت على صينية الإفطار ونظرت إليها لحظة قبل فتحها. الرسالتان اللتان جاءتا مع هذه الرسالة تحتويان فواتير أو ربما وصولات باستلام فواتير، وفي كلا الحالتين ليست لهما أهمية، أما هذه الرسالة فربما كانت مهمة.

ختمُ بريد لندن وعنوان مطبوع على الآلة الكاتبة، ومغلف طويل من نوعية جيدة. كانت الرسالة مرؤسة باسم «شركة برودريب وشاستر للمحاماة»، مع عنوان الشركة في بلومسبري. كانت الرسالة تطلب منها بعبارات مهذبة وقانونية أن تزورهم في يوم من أيام الأسبوع القادم في مكتبهم لمناقشة عرض قد تستفيد منه. وقد اقترحت الرسالة يوم الخميس الرابع والعشرين من الشهر موعداً للزيارة، وطلبت الشركة منها إخبارهم عن الموعد المفضل لها والذي يُحتمَل أن تكون فيه في لندن في المستقبل القريب إن لم يكن ذلك الموعد مناسباً لها، وأضافت الشركة تقول إنهم محامو السيد رافائيل الراحل الذي علمت الشركة أن الآنسة ماربل كانت تعرفه.

www.liilas.com

قطبت الآنسة ماربل حاجبيها متحيرة، لم تهضم مناقلة أكثر من العادة وهي تفكر في الرسالة التي استلمتها. رافقتها إلى الطابق السفلي خادمتُها شيري التي كانت دوماً شديدة الحرص على البقاء في الصالة لمساعدة الآنسة ماربل في نزول الدرج ذي الطراز القديم الذي يتعطف تعطفاً حاداً في منتصفه.

قالت الآنسة ماربل: أنت تهتمين بي جيداً يا شيري.

قالت شيري بأسلوبها المعتاد: هذا واجبي، فالناس الطيبون قلة.

قالت الآنسة ماربل بعد أن سوّت قدمها الأخيرة على الطابق الأرضي بأمان: شكراً لك على هذا الإطراء.

- هل من شيء؟ إنك تبدين مُعكّرة المزاج قليلاً.

- لا، لا شيء، ولكنني استلمت رسالة من شركة محامين.

رأت عليها شيري التي تعتبر رسائل المحامين نذيراً لا يخطئ بمصيبة أو كارثة: أرجو أن لا يكون هناك من يلاحقك قضائياً؟

- لا، لا أظن ذلك؛ لا شيء من هذا القبيل. فقط طلبوا مني زيارتهم في لندن الأسبوع القادم.

- ربما ترك شخصٌ لك ثروة ما.

- أظن أن هذا مستبعدٌ جداً.

- من يدري؟

جلست الآنسة ماربل على كرسي في الصالة وأخرجت صيارتها

وشرعت في التفكير في احتمال أن يكون السيد رافائيل قد ترك لها ثروة. بدا ذلك مستبعداً أكثر مما بدا لها عندما قالته شيري، ورأت أن السيد رافائيل لم يكن من ذلك النوع من الرجال.

لم يكن ممكناً لها أن تذهب في الموعد المقترح، فقد كان مقرراً لها أن تحضر اجتماعاً لاتحاد المرأة لمناقشة جمع مبلغ من المال لبناء فرنين إضافيين. فكتبت لهم تحدد موعداً آخر في الأسبوع التالي، وقد ردّت الشركة بدورها على رسالتها وتم تثبيت الموعد بشكل رسمي. وتساءلت في نفسها كيف هي هؤلاء المحامين يكونون. لقد وقّع الرسالة ج. بروديبب، وكان واضحاً أنه الشريك الأكبر. فكرت الآنسة ماربل بأنه من الممكن أن يكون السيد رافائيل قد ترك لها هدية صغيرة للذكرى في وصيته، ربما ترك لها كتاباً من مكتبته عن الأزهار النادرة رأى أنه قد يسعد امرأة مسنة تهتم بأعمال الحديقة، أو ربما ترك لها ديوس زينة مرصعاً بالأحجار الكريمة كان عند إحدى عماته... أخذت تسلي نفسها بمثل هذه التخيلات التي رأت أنها مجرد تخيلات، لأنه لو ترك لها شيئاً فعلاً لكان الأمر من اختصاص منفّذ الوصية، ولو كان هؤلاء المحامون هم الذي ينفذون الوصية لأرسلوا لها أي غرض من هذا القبيل بالبريد ولما طلبوا مقابلتها.

قالت الآنسة ماربل: حسناً، سأعرف ذلك يوم الثلاثاء القادم.

* * *

قال السيد بروديبب يخاطب السيد شامبر وهو ينظر إلى ساعته: أي نوع من النساء هي؟

قال السيد شامبر: سنصل خلال ربع ساعة. أترى هل ستكون دقيقة في مواعيدها؟

- آه، أظن ذلك. فهمت أنها كبيرة في السن، وهذا يجعلها أكثر دقة في مواعيدها من هؤلاء الشباب مشاتي العقول.

- أترى هل هي سمينة أم نحيلة؟

هز السيد برودريب رأسه، فسأله السيد شامبر: ألم يصفها راقابيل لك أبداً؟

- كان مخبراً كتوماً بصورة غير عادية في كل شيء، قال عنها:

- الأمر كله يبدو غريباً جداً بالنسبة لي. لو أننا نعرف فقط قليلاً عن كل ما يعنيه هذا.

- ربما كان أمراً يتعلق بمبايكل.

- ماذا؟ بعد كل هذه السنوات؟ لا يمكن. ما الذي جعلك تفكر في هذا؟ هل ذكر...

- لا، لم يذكر شيئاً، لم يفاتحني بأي شيء يدور في ذهنه. لقد اكتفى بإعطائي التعليمات.

- أتظن أنه غدا غريب الأطوار أو أصابه شيء من الخرف في آخر حياته؟

- أبداً، من الناحية العقلية كان ذكياً كعهده. إن مرضه الجسماني لم يؤثر على عقله أبداً. وفي آخر شهرين من حياته جمع مئتي ألف جنيه إضافية بمنتهى السهولة.

قال السيد شامبر باحترام يشوبه الموافقة: كانت لديه موهبة في ذلك؛ لقد امتلك دائماً هذه الموهبة بالتأكيد.

ردّ عليه السيد برودريب بنبرة فيها احترام أيضاً: كان ذا عقلية مالية عظيمة. قليلون من هم مثله، يا للأسف.

ردّ جرس الهاتف على الطاولة، فرفع السيد شامبر السماعة وسمع السكرتيرة على الطرف الآخر تقول: الآنسة جين ماربل هنا وتريد رؤية السيد برودريب بناء على موعد سابق.

نظر السيد شامبر إلى شريكه وقد رفع حاجبيه يطلب الإيعاز، فأومأ السيد برودريب موافقاً، فقال السيد شامبر: دعيها تصعد.

ثم أضاف قائلاً: سنراني الآن.

دخلت الآنسة ماربل الغرفة ووقف لتحيتها رجل متوسط العمر نحيف الجسد ذو وجه طويل كئيب. كان واضحاً أنه السيد برودريب، وكان معه رجل أصغر منه سناً وأكثر امتلاء. كان أسود الشعر ذا عينين صغيرتين حريصتين، وقدمه السيد برودريب قائلاً: هذا شريكي السيد شامبر.

قال السيد شامبر: أرجو أن لا يكون الدرج قد أتعبك كثيراً.

كان يفكر في نفسه: إنها في حدود السبعين عاماً... وربما قاربت الثمانين.

- إن صعود الدرج يجعلني ألهث بعض الشيء.

ردّ عليها السيد برودريب معتذراً: إن هذا المبنى قديم الطراز

ولا يوجد فيه مصعد. لقد أسست شركتنا منذ زمن طويل، ومع ذلك فلسنا مولعين كثيراً بأشكال التحديث كما قد يتوقع زبائننا.

قالت الآنسة ماربل بأدب: هذه غرفة مريحة تماماً.

ثم جلست على الكرسي الذي سحبه السيد بروديريب للجلوس عليه، وخرج السيد شاستر من الغرفة بطريقة لبقة.

قال السيد بروديريب: أرجو أن يكون هذا الكرسي مريحاً. هل أغلق هذه الستارة قليلاً؟ ربما كانت أشعة الشمس في عينيك.

قالت الآنسة ماربل بامتنان: أشكرك.

وجلست على الكرسي منتصبة الظهر كما هي عادتها. كانت تلبس بدلة صوفية خفيفة وعقداً من اللؤلؤ وقبعة صغيرة من المخمل، وعقص السيد بروديريب يقول في نفسه: إنها رمز السيدة الريفية، بسيطة وطيبة ورقيقة. قد تكون مشتتة التفكير... وقد لا تكون. في عينيها دهاء. ترى أين التقى بها رافائيل؟ ربما كانت عمّة أحد من أصدقائه من الريف...

بينما كانت هذه الأفكار تدور في ذهنه كان يتحدث معها الأحاديث الاستهلالية المعتادة عن الطقس وعن آثار الضباب الأخير الذي جاء في بداية السنة وملاحظات أخرى اعتبرها مناسبة، وكانت الآنسة ماربل تجيب عليه الإجابات اللازمة وتجلس هادئة تنتظر افتتاح الاجتماع.

ثم قال السيد بروديريب وهو يقلّب بعض الأوراق أمامه ويبتسم لها ابتسامة جميلة: لا بد أنك تتساءلين عن ماهية هذا الأمر. لعلك

سمعت عن وفاة السيد رافائيل أو ربما رأيت خبر وفاته في الصحيفة.

- قرأت الخبر في الصحيفة.

- علمت أنه كان صديقاً لك.

- التقيت به أول مرة قبل أكثر من عام، في جزر الهند الغربية.

- آه، أتذكر ذلك؛ أظن أنه ذهب إلى هناك لأسباب صحية. ربما أفادته تلك الزيارة، ولكن مرضه كان قد اشتد قبل ذلك حتى كاد أن يكون مقعداً كما تعلمين.

قالت الآنسة ماربل: نعم.

- هل كنت تعرفينه جيداً؟

- لا، ما كنت لأقول ذلك. كنا نقيم في الفندق نفسه، وقد تحادثنا من وقت لآخر. لم أرَه أبداً بعد عودتي إلى إنكلترا، فأنا أعيش في الريف حياة هادئة منعزلة، وأظن أنه كان منهمكاً في عمله تماماً.

- لقد تأثر على القيام بأعماله على أحسن وجه حتى يوم وفاته، وكان ذا عقلية مالية رائعة.

- أنا واثقة أنه كان كذلك؛ لقد أدركت فوراً عندما التقيته أنه شخصية ملفتة للنظر.

- لا أدري إن كنت تعرفين... إن كان السيد رافائيل قد أعطاك أية فكرة عن هذا العرض الذي طُلب مني إبلاغك به؟

- لا أستطيع تخيل طبيعة أي عرض يمكن للسيد رافائيل أن يعرضه علي، يبدو ذلك أمراً مستبعداً جداً.

- لقد كان يحترمك كثيراً.

- هذا لطف منه، لكني لا أستحقه، فأنا امرأة بسيطة.

- لا شك أنك تدركين بأنه مات وهو واسع الثراء. إن بنود وصيته بسيطة جداً إجمالاً، فقد وزّع ثروته قبل وفاته بفترة.

- أظن أن هذا إجراء عادي جداً هذه الأيام.

- إن الغرض من هذا اللقاء هو أن عندي تعليمات بأن أخبرك بأنك ستحصلين على مبلغ من النقود وُضِع جانباً ليكون ملكاً لك بعد ستة، لكنه مشروط بقبولك عرضاً معيناً سأطلعك عليه.

أخذ من الطاولة الموضوعة أمامه مغلفاً طويلاً مختوماً وأعطاها إياه قائلاً: سيكون من الأفضل أن تقرئيه بنفسك. ليس في الأمر عجلة، خذي راحتك.

أخذت الآنسة ماربل من السيد بروديرب سكين الورق وفتحت المغلف وأخرجت منه الرسالة. كانت ورقة واحدة مطبوعة، وقرأتها بعد ذلك طويلاً، ثم فتحتها وقرأتها ثانية. وأخيراً نظرت إلى السيد بروديرب وقالت: إنها غير واضحة. ألا يوجد أي توضيح آخر؟

- بمقدار علمي لا يوجد توضيح. كان علي أن أسلمك هذه الورقة وأخبرك عن المبلغ الذي ستحصلين عليه. إن المبلغ هو عشرون ألف جنيه معفاة من الضريبة.

جلست الآنسة ماربل تحدق إليه وقد انحبست المفاجأة أنفاسها.

واصل بقل السيد بروديرب أي شيء في تلك اللحظة. كان يراقبها باهتمام، لا شك في أنها قد فوجئت. كان واضحاً أن ذلك آخر ما كانت الآنسة ماربل تتوقعه، وتساءل السيد بروديرب عن أول كلمات ستقولها.

نظرت إليه نظرات حادة مباشرة كما كان من شأن عمة له أن تنظر إليه، وعندما تكلمت كان في صوتها نبرة اتهام. قالت: هذا مبلغ كبير جداً.

- لم تعد النقود بمثل ما كانت عليه من قيمة أوقد توقف قبل أن يضيف أن مثل هذا المبلغ أصبح لا يعني شيئاً في هذه الأيام).

- لا بد من الاعتراف بأنني ذاهلة. بصراحة، لقد ذُهلت.

ثم أسكتت بالرسالة مرة أخرى وقرأتها بإمعان من جديد. قالت: أظن أنك تعرف محتوياتها؟

- نعم، لقد أطلعنا السيد رافائيل عليّ شخصياً.

- ألم يعطك أي تفسير لها؟

- لم يفعل.

- أظن أنك اقترحت عليه أن يوضح أكثر.

كان في نبرتها الآن بعض الحدة، وابتسم السيد بروديرب ابتسامة باهتة وقال: أنت على حق، هذا ما فعلته. قلت له إنك ربما وجدت من الصعب أن... أن تتفهمي الذي يقصده بالضبط.

- رائع جداً.

- لا حاجة لأن تعطيني الإجابة الآن بالطبع.

- نعم، أريد أن أفكر بالأمر.

- إنه مبلغ كبير من المال كما أشرت.

- إني مستعد، لكن كلمة مستعد أفضل، مستعد بلا شك. من المحتمل ومن الممكن أن لا أعيش سنة حتى أحصل على هذا المبلغ بهذه الطريقة المشكوك فيها، هذا إن استطعت...

- يجب أن لا نستخف بالمال مهما كان صغيرا.

- بإمكاني أن أفيد جمعيات خيرية معينة أهتم بأعمالها، وهناك أناس دائماً... أناس يعنيني الفرد لو أنه يستطيع خدمتهم ولو قليلاً لكن إمكاناته المالية لا تسمح له بذلك، كما أني لن أتظاهر بعدم وجود منح ورغبات لدي مما لم أستطع تلبيته أو إشباعه. أظن أن السيد رافائيل كان يعرف تماماً أن القدرة على تلبية ذلك، عندما يأتي فجأة لشخص عجوز مثلي، فإنها ستمنحه قدراً عظيماً من السعادة.

- نعم، بالفعل. رحلة بحرية إلى الخارج، رحلة من هذه الرحلات الرائعة التي تُنظَّم هذه الأيام...

قالت الآنسة ماريل: ستكون احتياجاتي أكثر تواضعاً من ذلك. وبعد من طور الخجل... من الصعب جداً الحصول على الخجل هذه الأيام كما أن لمعدتي خيال جداً ويؤذي أن أستمتع بطاقم خجل أكله وحدي كله. كما أن علة من الكساد المحلاة بالسكر غالية الثمن ولا أستطيع شراءها دائماً. وربما زيارة الأبرياء. وهذا يعني سيارة تأخذني إلى الوقت غادرت وتعيدني، إضافة إلى معطف ليلة في فندق

أكثر. لا أريد الخوض في كل هذا الكلام السيئ. سآخذ هذه الرسالة معي وأفكر فيها. ما الذي جعل السيد رافائيل... ألا تعرف لماذا اختار هذا الأمر بالذات ولماذا اعتقد أني أستطيع خدمتنا؟ كان يجب أن يعرف أنه مهما على لقائنا أكثر من سنة... ما يقارب سنتين تقريباً، أني قد ازددت ضعفاً على ما كنت عليه، إضافة إلى الوهن العجزي من ممارسة المواهب المتواضعة التي قد أمتلكها. أقد كان يجازف... هناك أناس آخرون أفضل مني بالتأكيد ومؤهلون أكثر مني للقيام بهذا النوع من التحقيق.

- بصراحة يمكن للمرء أن يرى ذلك، لكنه اختارك أنت يا آنسة ماريل. اعذريني للفضولي، ولكن هل... هل كانت لك أية صلة بالجرائم أو بالتحقيق في الجرائم؟

- ليس بالمعنى الحرفي للكلمة. أعني أني لست محترفة؛ فلم أدر ضابط شرطة أو عضوة في هيئة محلفين... أو على صلة مع أي وكالة تحريات خاصة. ولكي أوضح لك يا سيد بوديريب الأكثر بساطة ممكن، وهو ما أظن أنه كان يجدر بالسيد رافائيل أن يفعله (بدلاً) لا أملك إلا القول أننا -نحن الاثنين- عندما كنا في جزر الهند الغربية كانت لنا علاقة معينة بجريمة وقعت هناك... جريمة قتل فريدة وسخيفة.

- وهل حققتما لغز هذه الجريمة معاً؟

- لا أستطيع قول هذا بالضبط؛ فقد نجحنا في منع حدوث جريمة ثانية كانت على وشك الحدوث بواسطة قوة شخصية السيد رافائيل من جهة، وبواسطة مؤشرين أو ثلاثة لاحظتها وربطت بينها... ما كان يوسعني أن أفعل ذلك وحدي؛ فقد كنت ضعيفة من الناحية

الجسدية. كما لم يكن بوسع السيد رافائيل أن يفعل ذلك وحده، فقد كان مقعداً. ولكننا عملنا معاً كمحاميين.

- سؤال آخر أريد توجيهه لك يا آنسة ماريل: هل تعني لك عبارة «انتقام العدالة» شيئاً خاصاً محدداً؟

- «انتقام العدالة»؟

ارتسمت على شفتيها ابتسامة عجيبة غير متوقعة وقالت: نعم، إنها تعني لي شيئاً. كانت تعني لي شيئاً وكانت تعني للسيد رافائيل شيئاً أيضاً، قلتُها له ذات مرة، وقد سرة كثيراً أن أصف نفسي بأنني أداة من أدوات «انتقام العدالة».

كان ذلك آخر ما توقعه السيد برودريب منها. نظر إلى الآنسة ماريل دَهِشاً بالطريقة نفسها التي أحس بها السيد رافائيل ذات مرة وهو في قرفة على شاطئ البحر الكاريبي... سيدة عجوز لطيفة وحادة الذكاء، ولكن فيها حقاً ما يوحي باستعدادها للعب هذا الدور.

قالت الآنسة ماريل: أنا واثقة من أنك تشعر بنفس الشعور. ثم نهضت واقفة وقالت: إذا وجدت أو تلقيت أية تعليمات أخرى بخصوص هذه المسألة فأرجو أن تعلمني يا سيد برودريب. يبدو غريباً لي أن لا يوجد شيء من ذلك، فهذا يجعلني في حيرة دائمة من أمري فيما يريد السيد رافائيل مني عمله أو محاولة عمله.

- ألا تعرفين عائلته أو أصدقاءه، أو...؟

- نعم، لقد أخبرتك أنني لا أعرف. كان رفيق سفر لي في بلد

أجنبي، وعملنا معاً لبعض الوقت في مسألة محيرة. هذا كل ما في الأمر.

وعندما كانت على وشك الخروج التفتت فجأة وسألت: كانت له سكرتيرة... السيدة إيستر والترز. هل أتجاوز حدود اللياقة لو سألتك إن كان السيد رافائيل قد ترك لها مبلغ خمسين ألف جنيه أو لا؟

- إن حصص لوزيع ثروته ستنشر في الصحف، لكنني أستطيع الإجابة على سؤالك بالإيجاب. كما أن السيدة والترز أصبحت السيدة إدرسون الآن، فقد تزوجت من جديد.

- أنا سعيدة لسماع هذا. كانت أرملة ولها بنت واحدة، ويبدو أنها كانت سكرتيرة قديرة وكانت تفهم السيد رافائيل جيداً. امرأة لطيفة، إنني سعيدة لأنها استفادت من الوصية.

* * *

في تلك الليلة جلست الآنسة ماريل في كرسيها ذي المسند المنتصب وقد مدّت قدميها باتجاه المدفأة حيث كانت نارٌ صغيرة مشتعلة بسبب البرد المفاجئ الذي يداهم إنكلترا في أية لحظة لا يعلم توقيتها إلا الله. أخرجت مرة أخرى الوثيقة التي كانت في ذلك المغلف الذي استلمته ذلك الصباح، وقرأتها وهي لا تكاد تصدق، وهي تتمتم بالكلمات وكأنها تريد تثبيتها في ذاكرتها:

إلى الآنسة جين ماربل، المقيمة في قرية سينت مري ميد:

سوف تستلمين هذه الرسالة بعد وفاتي، حيث سيسلّمها

لك وكيلي مكتب المحامي جيمس بروديريك. إنه الرجل الذي استخدمه في التعامل بأمور القانونية الخاصة وليس الأمور القانونية المتعلقة بأعمالي، وهو محام ماهر ومواوق، لكنه ليس أكثر أبناء الجنس البشري عرضة للوقوع في إلم القضوك. إنني لم أتبع قضوك، وسيظل هذه المسألة سراً بيني وبينك في بعض النواحي. سيكون كلمة السر بيننا -يا سيدي العزيز- هي «نظام العدالة». لا أعتقد أنك تحب المكان والظروف التي ألقت لي فيها هذه الكلمة أول مرة، وقد تعلمت من خبرتي العملية الطويلة جداً أن أبحث عن ميزة واحدة فيمن أراقب بتوظيفه، تلك هي امتلاكه للموهبة؛ موهبة تحسس وتقييد البهجة المتحدة التي أوكلتها له. وتلك ميزة خاصة؛ إنها ليست معرفة، وليست حيرة الكلمة الوحيدة التي تصفها هي «موهبة». إنها موهبة طبيعية لعمل شيء معين.

أنت يا عزيزي إذا سمحت لي باستخدام هذه الكلمة، تمتلكين موهبة خاصة لتطبيق العدالة. وهذا ما أدى إلى امتلاكك موهبة تحسس وفهم الجريمة. أريد منك التحقيق في جريمة معينة. وقد أمرت بتخصيص مبلغ معين يُدفع لك إن قبلت هذا الطلب، وإذا ما تم حل لغز الجريمة نتيجة للتحقيقات التي قمت بها فسوف يضيع المال مالك تماماً. وقد حصلت لك مدة ستة أشهر لإتمام المهمة. أنت لست صغيرة بالسن لذلك فربما تصارعين، وأظن أنك «بيشرية الله» ستبقين حية حتى الستة القادمة على الأقل.

أعتقد أن العمل المطلوب منك لن يكون متكرراً من

جانبك، فإن لك حرية طبيعية في القيام بالتحقيق. سيتم دفع المبالغ اللازمة لعمل التحقيق إليك خلال تلك الفترة عندما يكون ذلك ضرورياً. وأنا أطرح عليك هذا البديل لحياتك الحالية.

إنني الصورة جالسة على كرسي، كرسي مريح ويناسب الروماتزم الذي تعانين منه. إنني أعتبر أن جميع من هم في عمرك من المرجح أن يكونوا يعانون من شكل من أشكال الروماتزم. وإذا ما كان هذا المرض يؤثر على ركبتيك أو ظهرك فلن يكون من السهل عليك التحرك كثيراً وسوف تتضمن معظم وقتك في عمل الصداره. إنني أراك الآن وأنت ذات مرة في إحدى الليالي عندما نهضت من نومي مزعجاً من الحاطب، في سحابة من الصوف الوردي، أنيطتك وأنت تعزلين مزيداً من السترات وبذلات الرأس وكثيراً من الأشياء الأخرى التي لا أعرف أسمائها. فإذا كنت تفضلين التقاعد في عزل الصوف فإنه قرار يخصك، أما إذا فضلت خدمة قضية العدالة فأرجو أن تخدميها مشيرة على الأقل.

فلتتدفق العدالة قوية كالنهار، وليتدفق الحق كنهر عظيم.

الموس

* * *

الفصل الثالث

الآنسة ماريل تبادر بالعمل

قرأت الآنسة ماريل هذه الرسالة ثلاثة مرات، ثم وضعتها جانباً وجلست تفكر فيها وفي معناها. كانت أول فكرة خطرت ببالها هي أنها قد تُركت بحاجة ماسة إلى معلومات محددة، فهل ستأتيها أية معلومات أخرى من السيد برودريب؟ كانت واثقة تقريباً من عدم وجود مثل هذا الاحتمال؛ فذلك لم يكن يتناسب مع خطة السيد رافائيل. ولكن كيف يتوقع السيد رافائيل منها أن تعمل شيئاً وأن تقوم بأي إجراء في مسألة لا تعرف عنها أي شيء؟

كانت رسالة مثيرة، وبعد بضع دقائق من التفكير قررت أن السيد رافائيل كان يقصد جعلها مثيرة. عادت بتفكيرها إليه، إلى الفترة القصيرة التي عرفته فيها: عجزه الجسدي، ومزاجه السيء، ولمعات الذكاء المتوقدة لديه، وأحياناً لمعات الدعابة الساخرة. فكرت أنه كان يستمتع بإثارة الناس وإفاقتهم، وأحست أنه كان يستمتع بإثارة وإزعاج الفضول الطبيعي لدى السيد برودريب، وهو ما أفتقده الرسالة تماماً.

لم يكن في الرسالة التي كتبها ما يعطي أي مفتاح يدلها على طبيعة هذا الأمر كله. لم يكن هناك ما يساعدها أبداً. وفكرت بأن

السيد رافائيل قد تقصد تحديداً أن لا تكون في رسالته أية مساعدة لها. كانت لديه... ماذا عساها تسمي ذلك؟ أفكار أخرى. ولكن لم يكن باستطاعتها الشروع في عمل لا تعرف عنه شيئاً. يمكن تشبيه هذا الأمر بالكلمات المتقاطعة التي لا يُعطى شرحٌ أو تلميح للكلمات المطلوب إدراجها فيها... لا بد من وجود مثل هذه التلميحات! كان يجب أن تعرف ما هو المطلوب منها، وأين تذهب، وهل عليها أن تحل بعض المشكلات وهي جالسة في كرسيها وقد وضعت صارة الصوف جانباً لكي تركز بشكل أفضل، أم هل كان السيد رافائيل يريد منها ركوب طائرة أو سفينة إلى جزر الهند الغربية أو أمريكا الجنوبية أو إلى مكان محدد آخر؟ لم يكن أمامها إلاّ أن تعرف بنفسها ما هو المطلوب منها أو أن تتلقى تعليمات واضحة محددة. ربما افترض أنها ذات عبقرية تكفي لأن تجعلها تختزن الأشياء وأن تربط أسئلة وتكتشف الأمور؟ لا، لا يمكنها تصديق ذلك.

قالت الآنسة ماريل بصوت مرتفع: إن كان يعتقد ذلك فإنه مجنون... أقصد أنه كان مجنوناً قبل وفاته!

لكنها لم تكن تعتقد أن السيد رافائيل يمكن أن يكون مجنوناً. قالت: سأتلقى تعليمات... ولكن أية تعليمات ومتى؟

عندما خطر لها فجأة أنها قد قالت الكلمات بدون وعي منها، تكلمت ثانية بصوت مرتفع وكأنها تخاطب الجو حولها: أنا أؤمن بالحياة الأخرى. لا أعرف لِمَ أنت بالضبط يا سيد رافائيل، ولكن ليس عندي شك بأنك في مكان ما، وسوف أبذل قصارى جهدي لتحقيق رغباتك.

* * *

بعد ذلك بثلاثة أيام كتبت الآنسة ماربل رسالة إلى السيد بروديريب، وكانت رسالة قصيرة جداً تتكلم عن الموضوع مباشرة:

عزيزي السيد بروديريب،

لقد فكرت في الاقتراح الذي قدمته لي، وبما أنا لا أعيش بما فوزته، حيث قبلت بالاقتراح الذي قدمه لي السيد رافائيل. سأبذل قصارى جهدي لتحليل رفاقه وأصدقائه، رغم أني غير متأكدة أبداً من النتائج. والحقيقة أنني لا أكاد أرى كيف يمكن أن أنجح، فلا أنا أحصل على أية تعليمات مباشرة في رسالته ولم أحصل عليها من أي طريق آخر. إذا كنت تحتفظ بأي بيان أو بلاغ لي قد تحتاجات محددة فسأكون مسرورة لو أرسلتها إلي، وإذا كنت أظن أنه لو كان عندك ما تريده لأرسلته لي من قبل.

أظن أن السيد رافائيل كان في كامل قواه العقلية عندما مات، أليس كذلك؟ وأعتقد أنني معذورة إذا سألت إن كانت قد وقعت قبل موته بوقت قصيرة أية واقعة إجرامية جعلته مهتماً بها، سواء في حياته أو في علاقاته الشخصية. هل غير ذلك من طبعه أو سلطه من حظا فضائي أو عدائي لدفق اعتماده؟ إن كان ذلك فأعتقد أن لي الحق الكامل في أن أطلب منك أن تعلمني به. هل كان أحد يعارضه أو أقلقه بعض من شاكلة أو مشاكلة أو كان ضحية عمل ظالم أو ما شابه ذلك؟

أنا واثقة من أنك ستفهم الأسباب التي دعتني لسؤالك

هذه الأسئلة، والحقيقة أن السيد رافائيل نفسه ربما توقع مني طرحها.

* * *

عرض السيد بروديريب تلك الرسالة على السيد شاسلر الذي عاد إلى ظهر كرسيه وراح يقهقر وهو يقول: إذن فقد قبلت المهمة؟ أيها العجوز ذات روح شابة. أظن أنها تعرف شيئاً ما عن طبيعة هذا الأمر، أليس كذلك؟

رد عليه السيد بروديريب قائلاً، واضحٌ أنها لا تعرف.

- ليتنا كنا نعرف! لقد كان رجلاً غريب الأطوار.

- كان رجلاً ضعيفاً.

- أنا لا أعرف عن الموضوع شيئاً. هل تعرف أنت؟

- لا، لا أعرف. أظن أنه لم يكن يريدني أن أعرف.

- لقد جعل الأمور أكثر صعوبة بفعله هذا. لا أرى أية فرصة أن تنجح عجوز ريفية في تفسير ما كان يجول في خاطر رجل مات لتعرف ما كان يؤرقه من وساوس. هل تظن أنه كان يضايقها أو يتحرش بها؟ نوع من المزاح مثلاً؟ ربما كان يظن أنها ترى نفسها خبيرة في حل مشكلات القرية ولذلك أراد إعطاءها درساً قاسياً.

- لا، لا أظن ذلك؛ لم يكن رافائيل من ذلك النوع.

- كان يتصرف كالعابث المؤذي أحياناً.

- نعم، ولكن ليس... أظن أنه كان جاداً في هذه المسألة، كان شيء يقلقه. أنا واثق من أن شيئاً ما كان يقلقه.

- ألم يحذرك منه أو يعطك فكرة؟

- أبداً.

- إذن كيف يتوقع هذا...

- لا يمكن أن يكون قد توقع حقاً أية نتيجة من هذا الأمر، إذ كيف لهذه العجوز أن تبدأ عملها؟

- لقنها مزحة.

- إن عشرين ألف جنيه مبلغٌ كبير على مزحة!

- نعم، ولكن إذا كان يعلم أنها لا تستطيع النجاح؟

- لا، لا يمكن أن يكون بذلك الروح. لا بد أنه رأى أن لديها فرصة لفعل هذا الأمر أو الشاهد.

- وماذا نفعل نحن؟

- ننتظر، ننتظر ونرى ما الذي سيحدث. لا بد من حدوث بعض التطورات.

- إن لديك بعض الأوامر التي بقيت مغلّفة مختومة، أليس كذلك؟

- يا عزيزي شاستر! لقد وضع السيد رافائيل الله في وفي سلوكي الأخلاقي كمحامي، وهذه التعليمات المختومة تُفتح فقط عند ظروف معينة ولم يظهر أي منها بعد.

قال السيد شاستر: ولن تظهر أبداً!

عند ذلك انتهى النقاش.

* * *

كان السيد برودريب والسيد شاستر محظوظين كثيراً لأن لديهما ما يشغل كل وقتهما في حياتهما المهنية، إلاّ أن الآنسة ماربل لم تكن تملك مثل هذه الميزة؛ فقد كانت تعزل بصعوبة وتفكر وتخرج من بيتها للمشي رغم احتجاجات شيري على ذلك واعتراضها: أنت تعرفين ما قاله الطبيب؛ يجب أن لا تجهدي نفسك كثيراً.

قالت الآنسة ماربل: إنني أمشي ببطء شديد، كما أنني لا أقوم بأي عمل. أقصد أعمال الحفر في الحديقة أو إزالة الأعشاب الضارة. إنني - فقط - أكتفي بنقل قدم أمام قدم والتفكير في الأمور.

سألتها شيري ببعض الاهتمام: أية أمور؟

- ليتني أعرف!

ثم سألت شيري أن تحضر لها وشاحاً إضافياً لأن الريح باردة.

* * *

قالت شيري لزوجها وهي تضع أمامه طبقاً من الأرز وقطع الكبد المقلية: ليتني أعرف ما الذي يثير عصبيتها! تفضل، هذا عشاء صحي.

أومأ زوجها باستحسان وقال: إن طعامك يتحسن يوماً بعد

– أنا قلقة عليها. إنني قلقة لأنها متضايقة بعض الشيء. لقد استقبلت رسالة أثارت قلقها تماماً.

قال الزوج: إنها تحتاج إلى الراحة والهدوء. أن تجلس هادئة وتهدأ على نفسها، وتحضر كأساً جديدة من البكالية لتفرأها، وترى بعض صديقاتها.

– إنها تفكر في شيء ما... تفكر في كيفية معالجة مسألة ما، هذا ما أظنه.

قطعت الحديث عند هذا الحد، وأعادت صينية القهوة وأوعزت إلى الآنسة ماريل ووضعتها بجانبها. سألتها الآنسة ماريل: هل تعرفين امرأة تعيش في بيت جديد هذا لدعى السيدة هيستنغز؟ وواحدة أخرى تدعى الآنسة بارنابيت على ما أظن تعيش معها؟

– ماذا؟ هل تقصدين البيت الذي جرى ترميمه وأعيد طلاؤه في طرف القرية؟ أهل ذلك البيت جاؤوا من مدة قصيرة فقط ولا أعرف أسماءهم. لماذا تريدين أن تعرفي؟ إنهم لا يثيرون الاهتمام، هذا ما أراه أنا على الأقل.

– هل توجد بينهما علاقة قرابة؟

– لا، بل أظنهما صديقتين فقط.

قالت الآنسة ماريل: أتساءل لماذا...؟ ثم سكتت.

– لماذا ماذا؟

– لا شيء. أرجو أن تطفي لي الطاولة الصغيرة وتعطيني قلم ودفتر الرسائل، سأكتب رسالة.

سألتها شيري بفضول: إلى من؟

– أريد أن أكتب رسالة لأحد رجل دين اسمه كانون بريسكوت.

– هل هو ذلك الذي التقيته في الخارج في جزر الهند الغربية؟ لقد أريتني صورته في الألبوم.

نعم.

هل تشعرين بأي سوء حتى تكتبي لرجل دين؟

بل أنا في أحسن حال، وأتطلع بلهفة للانهماك بأمر ما، وربما الآنسة بريسكوت مساعدتي، هذا كل ما في الأمر.

كتبت الآنسة ماريل تقول:

عزيزتي الآنسة بريسكوت،

أرجو أن لا تكوني قد نسيتني، لقد التقيت بك وبأصدقائك في جزر الهند الغربية في فندق سيدت هوتري. أرجو أن يكون العزيز كانون بصحة جيدة وأن لا يكون قد عانى كثيراً من داء الربو في الجو البارد الذي جاء في الشتاء الماضي.

أنا أكتب لأسألك إن كان بإمكانك أن تخبريني بعنوان السيدة والترز، إيستر والترز، التي تذكرينها أيام كنا في منطقة البحر الكاريبي. كانت سكرتيرة السيدة راقبل. لقد أعطتني عنوانها في ذلك الوقت لكني فقدته لسوء الحظ. وأنا مهتمة بالكتابة إليها حيث لدي معلومات وراثية سأتي عنها لم أكن لستطيع إعبارها بها في ذلك

الوقت. وقد سمعت بالأمس أنها تزوجت مرة أخرى، لكن لا أظن أن الذي يلقني الخبر كان متأكداً من ذلك تماماً. وربما كنت تعرفين عنها أكثر مني.

أرجو أن لا يزعجك هذا الطلب كثيراً. مع أطيب تحياتي لأخيك وأطيب الأمنيات لك.

المخلصة: جين ماربل

أحست الآنسة ماربل بتحسن عندما أرسلت تلك الرسالة. قالت: لقد بدأت أفعل شيئاً على الأقل، ورغم أني لا أعلق الكثير من الآمال على هذه الرسالة إلا أنها قد تساعد.

* * *

أجابت الآنسة بريسكوت على تلك الرسالة مباشرة. كانت امرأة يُعتمد عليها تماماً، وقد كتبت رسالة جميلة وأرفقت بها العنوان المطلوب. قالت في رسالتها:

لم أسمع أي شيء عن إيستر والترز مباشرة، لكني سمعت ذلك من صديقة أنها قرأت خبراً عن زواجها مرة ثانية. أظن أن اسمها الآن هو السيدة أندرسون أو أندرسون، وعنوانها هو: «وينسلو لودج، قرب ألتون، هانتز». آمل بحق إليك بتحياتي. أترّ محزن أن تعيش متباعدين إلى الأبد؟ نحن في شمال إنكلترا وأنت في جنوب الدنيا. أرجو أن تلقي في مناسبة ما في المستقبل.

المخلصة: جوان بريسكوت

قالت الآنسة ماربل وهي تكتب العنوان: وينسلو لودج، ألتون.

إنه ليس بعيداً من هنا كثيراً. نعم، إنه ليس بعيداً. أستطيع أن... لا أعرف ما هي الوسيلة المثلى... ربما كانت إحدى سيارات «إيتن» هي أفضل وسيلة. صحيح أن في ذلك بعض الإسراف، ولكن إذا نتج عن زيارتي شيء فيمكن اعتبارها نفقات عمل تُدفع لي حسب الوصية. هل أكتب لها مقدماً أم أترك ذلك للمصادفة؟ أظن أن من الأفضل ترك الأمر للمصادفة. مسكينة إيستر، إنها لا تكاد تتذكرني بأي نوع من العاطفة أو المحبة.

غرقت الآنسة ماربل في لجة من التذكريات والأفكار. يحتمل أن أعمالها في جزر الهند الغربية هي التي أنقذت حياة إيستر والترز من جريمة قتل كانت ستتعرض لها في مستقبل قريب. على أية حال، هذا ما كانت الآنسة ماربل تراه، ولكن إيستر والترز لم تصدّق أياً من تلك الأفكار.

قالت تحدث نفسها بصوت مرتفع: إنها امرأة لطيفة، لطيفة جداً، من ذلك النوع من النساء اللاتي يسهل وقوعهن في يد أزواج سيئين. بل إن من شأنها أن تتزوج قاتلاً لو ساقه المقادير إليها!

ثم أكملت حديثها بصوت منخفض وهي غارقة في تأملاتها: ما زلت أرى أني ربما أنقذت حياتها، بل أكاد أكون واثقة من ذلك تماماً. لكني لا أظن أنها ستوافقني على وجهة النظر هذه. ربما كانت تكرهني، وهذا ما سيجعل استخدامها معلومات ضمناً جداً ومع ذلك لا يملك المرء إلا أن يحاول. فذلك أفضل من الجلوس هنا والانتظار إلى ما لا نهاية.

هل كان السيد راغليل يسخر منها عندما كتب لها تلك الرسالة؟ إنه لم يكن واقعاً رجلاً لطيفاً بشكل خاص... إنه لم يكن يأبه أحياناً

لمشاهد التالي. قالت الآنسة ماربل وهي تنظر إلى ساعتها بعد أن قررت النوم مبكراً: على أية حال، عندما يفكر المرء بالأشياء قبل ذهابه إلى النوم مباشرة فإنه غالباً ما تستيقظ لديه أفكار جيدة، وقد ينجح ذلك معي.

* * *

في صباح اليوم التالي سألتها شيري وهي تضع صينية الشاي على الطاولة القريبة منها: هل نمت جيداً؟

- لقد حلمت حلماً غريباً.

- أعني كابوس؟

- لا، لا، ليس كذلك. كنت أتحدث مع شخص، لم يكن شخصاً أعرفه جيداً، مجرد حديث عادي. ثم عندما نظرت رأيت أنه ليس ذلك الشخص الذي كنت أتحدث إليه، بل كان شخصاً آخر، غريب جداً.

قالت شيري من باب مساعدتها: ربما اختلط عليك الأمر.

- لقد ذكرني ذلك بشيء، أو بالأحرى بشخص عرفته ذات مرة. اطلبي لي سيارة «إتش»، واطلبي منها أن تأتي إلى هنا في الساعة الحادية عشرة والنصف تقريباً.

كان «إتش» جزءاً من ماضي الآنسة ماربل؛ فقد كان السيد إتش صاحب سيارة أجرة في الأصل، ثم مات وخلفه ابنه الشاب إتش الذي كان وقتها في الرابعة والأربعين من عمره، وقد حول مشروع العائلة إلى مكاتب نقل واشترى سيارتين قديمتين. وعند وفاته تملك

المكتب رجلٌ آخر، ومنذ ذلك الوقت تم افتتاح مكتب بيب ومكتب ... ومكتب أرثر... لكن السكان المسنين ما زالوا يطلقون على أية ... سيارة أجرة اسم «إتش».

- هل أنت ذاهبة إلى لندن؟

- لا، لست ذاهبة إلى لندن. ربما سأتناول غدائي في ... لمير.

قالت شيري وهي تنظر إليها بارتياب: حسناً، ما الذي تنوين ... عله هذه المرة؟

- سأسعى إلى مقابلة واحدة عن طريق المصادفة مع جعل الأمر ... بدو طبيعياً. ليس عملاً سهلاً لكني آمل أن أنجح.

كانت سيارة الأجرة في انتظارها في الحادية عشرة والنصف. ... الآنسة ماربل تخاطب شيري: اتصلي بهذا الرقم يا شيري ... اسألي إن كانت الآنسة أندرسون موجودة في البيت أو لا، وإذا ... كانت السيدة أندرسون هي التي ترد عليك أو أنها ستأتي لترد على الهاتف، قولي لها إن السيد برودريب يريد أن يتكلم معها وإنك ... جريدة السيد برودريب، أما إذا كانت خارج البيت، فحاولي أن ... م في أي مكان موجودة.

وإذا كانت موجودة وردت علي؟

اسألها عن موعد تستطيع فيه مقابلة السيد برودريب في مكتبه ... ي لندن في الأسبوع القادم، وعندما تخبرك عن الموعد سجليه على ... ثم اسعي للسماعة.

- يا للأشياء التي تفكرين بها! لم أقل هذا! لماذا تريدين مني أن عمل ذلك؟

- إن أمر الذاكرة غريب، أحياناً يتذكر المرء صوتاً حتى لو لم يكن قد سمعه منذ أكثر من سنة.

- حسناً، هذه السيدة التي لا أعرف اسمها أو تسمع صوتي أبداً، أليس كذلك؟

- بلى، ولهذا طلبت منك إجراء هذه المكالمة.

أنجزت شيري الأمر الذي طُلب منها، وعلمت أن السيدة أندرسون قد خرجت للتسوق لكنها ستأتي على الغداء وستكون موجودة طوال فترة بعد الظهر.

قالت الآنسة ماربل: حسناً، هذا يسهل الأمور. هل وصل إلى؟ آه، نعم، صباح الخير يا إدوارد.

كان اسم السائق في الواقع هو جورج، ومع ذلك مضت الآنسة ماربل قائلة: أريدك أن تأخذني إلى هذا العنوان، وأعتقد أنه لن يستغرق أكثر من ساعة ونصف الساعة.

ثم بدأت الرحلة.

* * *

الفصل الرابع

إيستر والترز

خرجت إيستر أندرسون من المتجر وذهبت إلى حيث كانت تواقف سيارتها. فكرت بأن العثور على موقف للسيارة كان يزداد صعوبة يوماً بعد يوم، وفجأة اصطدمت بامرأة عجوز كانت قادمة في اتجاهها وهي تعرج قليلاً في مشيتها اعتذرت لها، ولكن المرأة الأخرى ما لبثت أن صاحت قائلة: يا إلهي! مَن؟ أنت بالتأكيد... السيدة والترز، أليس كذلك؟ إيستر والترز؟ لا أعتقد تذكريني. أنا جين ماربل. لقد التقينا في الفندق في سينت هونري. آه، لقد كان ذلك منذ وقت طويل... ستة ونصف السنة تقريباً.

- الآنسة ماربل؟ هذه أنت بالتأكيد! غريب أن أراك هنا.

- فرصة طيبة أن أراك. لقد عدت لتناول الغداء عند إحدى الصديقات قريباً من هنا لكني سأمر من الكوخ في طريق عودتي. هل ستكونين في بيتك بعد الظهر اليوم؟ كم أرغب في جلسة أحاديث معك! جميل جداً أن أرى صديقة قديمة.

- نعم، بالطبع. في أي وقت بعد الثالثة

تم تثبيت الموعد، وقالت إيستر أندرسون لنفسها وهي تبتسم: جين ماريل العجوز؟ غريب ظهورها المفاجئ هذا. لقد كنت أظن أنها توفيت منذ زمن طويل.

* * *

دقت الآنسة ماريل على الجرس في ويندلو لودج في الساعة الثالثة والنصف بالضبط، ففتحت إيستر لها الباب وأدخلتها. جلست الآنسة ماريل على الكرسي الذي قُدِّم لها وهي تضطرب بأسلوبها المتسلسل الذي تلجأ إليه عادة عندما تكون عصبية قليلاً أو عندما تريد أن تبدو عصبية قليلاً. وفي هذه الحالة كان اضطرابها الأعداد، إذ إن الأمور قد جرت كما كانت ترجو تماماً.

قالت تخاطب إيستر: جميل جداً أن أراك، جميل جداً رؤيتك مرة أخرى. إنني أرى الأمور غريبة جداً في هذا العالم؛ تأملين أن تلتقي بشخص مرة أخرى وتكونين متأكدة تماماً من أنك ستقابلينه، ثم تمضي الأيام وتحدث المفاجأة فجأة.

قالت إيستر: ثم تقول إنه عالم صغير جداً! أليس كذلك؟

- نعم، وأظن أن في ذلك شيئاً من الصحة، رغم أنه يبدو عالماً كبيراً جداً، كما أن جزر الهند الغربية بعيدة جداً عن إنكلترا... أعني أنه كان ممكناً أن ألتقي بك في أي مكان آخر، في لندن مثلاً، في متجر هارودز أو في محطة قطار أو في حافلة... الاحتمالات كثيرة جداً.

- نعم، الاحتمالات كثيرة جداً، لكني لم أكن أتوقع رؤيتك هنا بالتأكيد لأنها ليست منطقتك، أليس كذلك؟

- بلى، ليست منطقتي. ومع ذلك فأنت لست بعيدة جداً عن قرية سينت ميري مِيد حيث أعيش. الواقع أنها تبعد نحو خمسة وعشرين ميلاً فقط، ولكنها خمسة وعشرون ميلاً في الريف حيث لا يوجد لدى المرء سيارة، والواقع أنني لا أستطيع شراء سيارة، وعلى أية حال فإنني لا أستطيع قيادتها... لذلك فإن الواحد منا لا يرى إلا جيرانه الذين يصلهم خط الحافلة فقط أو يضطر أن يذهب من القرية بسيارة أجرة.

قالت إيستر: إنك تدين بصحة ممتازة.

- كنت على وشك القول بأنك أنت التي تدين في صحة ممتازة يا عزيزتي. لم أكن أعرف أنك تعيشين في هذه المنطقة.

- لقد سكنت هنا منذ فترة قصيرة فقط... منذ زواجي.

- آه، لم أكن أعلم. هذا أمر جميل، لا بد أنني فاتني معرفة الخبر رغم أنني أقرأ صفحة الزيجات دائماً.

- لقد تزوجت منذ أربعة أشهر أو خمسة، واسمي الآن هو السيدة أندرسون.

- السيدة أندرسون؟ نعم. يجب أن أحاول تذكره. وزوجك؟

فكرت بأنه سيكون من غير الطبيعي أن لا تسأل عن الزوج؛ فمشهور عن السيدات العجائز أنهن فضوليات جداً. قالت إيستر: إنه مهندس، وهو يدير فرع إحدى الشركات. إنه...

ترددت قليلاً قبل أن تضيف: أصغر مني بقليل.

أجابتها الآنسة ماريل على الفور: هذا أفضل بكثير. آه، أفضل

بكاثر يا عزيزتي. في هذه الأيام يشيخ الرجال بسرعة أكثر من النساء. أعرف أن الناس لم يعتادوا قول ذلك، لكنها حقيقة واقعة بالفعل. أعني أن أمراضهم أكثر تعمداً. وأظن ذلك عائداً إلى أنهم يقلقون ويعملون كثيراً، ثم بعد ذلك يرتفع ضغط دمهم أو ينخفض أحياناً، وأحياناً أخرى يصابون ببعض المشكلات القلبية، كما أنهم معرضون للإصابة بالقرحة... لا أظن أنا نقلل كثيراً منهم معشر النساء، أعتقد أنا الجنس الأقوى.

- قد يكون هذا صحيحاً.

ابتسمت للآنسة ماربل، وأحست الآنسة ماربل بالاطمئنان. في آخر مرة رأت فيها إيستر كانت إيستر تبدو وكأنها تكرهها، وربما كانت تكرهها في ذلك الوقت فعلاً. أما الآن فربما كانت تشعر ببعض الامتنان. لعلها أدركت أنها ربما كانت ترقد الآن في قبر في مقبرة الكنيسة بدلاً من العيش حياة سعيدة مع السيد أندرسون.

قالت الآنسة ماربل: إنك تبدين في أتم صحة ومرحة جداً.

- وكذلك أنت يا آنسة ماربل.

- آه، لقد كبرت في السن الآن، وفي مثل سني يصاب المرء بكثير من الأمراض. لا أقصد الأمراض المهووس منها، ولكن المسن يصاب في العادة بالروماتزم أو ببعض الآلام والأوجاع في جسده. إن قدمي ليستا كما أحب أن يكونا، كما أن ظهري وكتفي تؤلمني. يا إلهي! ما كان يجب أن أتحدث عن هذه الأمور. إن يداك جميل جداً.

نعم، لم تمض علينا فترة طويلة فيه. لقد انتقلنا إليه قبل أربعة أو ستة أسابيع تقريباً.

نظرت الآنسة ماربل حولها. كانت قد ظنت أنهما لم ينتقلا إلا حديثاً بالفعل، بل إنها رأت أيضاً أنهما عندما انتقلا إلى هذا المنزل جهزاه بكل وسائل الراحة؛ فالأثاث ثمين ومريح وفيه ترف: ستائر وأغطية جيدة، لا يوجد ذوق فني خاص واضح ولكنها لم تكن لتتوقع مثل هذا الذوق. ظنت أنها تعرف سبب هذا المظهر من الرخاء، ورأت أنه قد جاء من الثروة الكبيرة التي تركها السيد رافائيل لإيستر. وقد سعدت عندما رأت أن السيد رافائيل لم يغير رأيه في هذه الناحية.

قالت إيستر وكأنها تكاد تعرف ما كان يدور في ذهن الآنسة ماربل: أظن أنك قد قرأت خبر نعي السيد رافائيل؟

- نعم، نعم؛ قرأته بالفعل. كان ذلك قبل نحو شهر، أليس كذلك؟ لقد أسعدت كثيراً. أمر محزن جداً، رغم أن المرء كان يعرف ذلك كما أظن، فقد اعترف هو بنفسه به، أليس كذلك؟ لقد أصيب عدة مرات إلى أن حياته لن تطول. أظن أنه تصرف كرجل شجاع إزاء هذا الموضوع، أليس كذلك؟

- بلى، كان رجلاً شجاعاً جداً وكريماً جداً في الواقع. لقد أخبرني في بداية عملي عنده أنه سيعطيني راتباً ممتازاً ولكن علي أن أوفر عزماً منه لأن علي -كما قال- أن لا أتوقع منه أي شيء آخر، والحقيقة التي لم أتوقع أن أحصل منه على شيء آخر، فقد كان رجلاً بارداً بكلمته كثيراً. لكن من الواضح أنه غير رأيه.

قالت الآنسة ماربل: نعم، نعم، أنا سعيدة بهذا. كنت أعتقد هذا... إنه لم يقل شيئاً من هذا بالطبع لكني تساءلت في نفسي.

قالت إيستر: لقد ترك لي مبلغاً كبيراً من المال، مبلغاً كبيراً فاجأني. كان ذلك مفاجأة كبيرة بالفعل، ولم أكد أصدق الأمر في البداية.

- أظن أنه أراد جعل الأمر مفاجأة لك، أعني كان من هذا النوع من الرجال. هل ترك أي شيء لذلك الرجل... ماذا كان اسمه؟ ذلك الرجل الذي كان يسهر عليه ويعالجه، السدلك؟

- آه، تقصدين جاكسون؟ لا، لم يترك له أي شيء، لكني أعتقد أنه قدّم له هدايا قيمة وكبيرة في السنة الأخيرة.

- هل رأيت جاكسون بعدها؟

- لا، لا أظن أنني رأيته منذ أن غادرنا تلك الجزر. لم يبقَ مع السيد رافائيل بعد عودتنا إلى إنكلترا، وأظن أنه ذهب للعمل مع أحد الملوردات في مقاطعة جيرسي أو جيرنسي.

قالت الآنسة ماربل: كنت أرغب في رؤية السيد رافائيل مرة أخرى. يبدو غريباً أن لا أراه بعد كل ما عملناه معاً، أنا وهو وأنت وبعض الآخرين. وبعدها، بعدما عدتُ إلى الوطن وبعد مرور ستة أشهر بدا لي مدى العلاقة الحميمة التي توطدت بيننا في أوقات الشدة تلك، ومع ذلك استغربت كيف لا أعرف عن أخبار السيد رافائيل شيئاً. فكرت في هذا الأمر قبل أسابيع قليلة فقط بعدما قرأت خبر نعيه، وتمنيت لو أنني علمت المزيد عنه. أين وُلد؟ وعلمًا عن والديه،

ثبت كانا؟ وهل له أولاد أو أبناء أو بنات أخوة أو أية أسرة؟ أودّ كثيراً معرفة ذلك.

ابتسمت إيستر أندرسون قليلاً، ونظرت إلى الآنسة ماربل وملامحها توشك أن تقول: "نعم، أنا واثقة من أنك تريدين دائماً معرفة كل شيء عن كل شخص تقابلينه" ولكنها اكتفت بالقول: الحق أن هناك شيئاً واحداً يعرفه الجميع عنه.

قالت الآنسة ماربل على الفور: أنه كان ثرياً جداً. هل هذا ما تقصدينه؟ عندما تعرفين أن شخصاً ما غني جداً فإنك لا تسألين أي شيء آخر عنه. أقصد أنك لا تطلبين معرفة المزيد عنه، فقط تقولين في نفسك: "إنه غني جداً"، أو تقولين: "إنه واسع الثراء"، وتخفضين صوتك قليلاً لأن الثراء أي الشخص واسع الثراء أمر مؤثر جداً ويترك انطباعاً في النفس.

ضحكت إيستر قليلاً، وسألتها الآنسة ماربل: هل كان متزوجاً؟ إنه لم يذكر شيئاً عن وجود زوجة.

- لقد فقدَ زوجته قبل سنوات كثيرة. أظن أنه فقدها بعد زواجهما بوقت قصير، كما أظن أنها كانت أصغر منه بكثير. أعتقد أنها توفيت بمرض السرطان، أمر محزن.

- أكان له أولاد؟

- آه، نعم، ابنتان وولد. بنت متزوجة وتعيش في أمريكا، والبنت الأخرى توفيت وهي صغيرة على ما أظن. لقد قابلت البنت الأمريكية مرة، ولم تكن مثل أبيها على الإطلاق. كانت -في الواقع- مرأة عادية وليست كتوبة. ولم يتحدث السيد رافائيل عن ابنه أبداً، أظن

أن كانت بينها مشكلة، فضيحة أو شيء كهذا، وأنه توفي قبل بضع سنوات. على أية حال فإن والده لم يكن يذكره أبداً.

- يا إلهي! هذا محزن جداً.

- أعتقد أن ذلك قد حدث منذ زمن بعيد، وأعتقد أنه رحل إلى مكان ما في الخارج ولم يعد أبداً... ومات هناك.

- وهل حزن السيد رافائيل لذلك؟

- لم يكن أحدٌ قادراً على معرفة أمره. كان من ذلك النوع من الرجال الذين يحبون إلى قليل خسائرهم دوماً، ولو ظهر له أن ابنه أصبح سيئاً وعبئاً عليه ونقمة بدل أن يكون نعمة فإن من شأنه -كما أظن- أن يتخلى عنه مباشرة. ربما قام بما هو ضروري بعد ذلك، كإرسال المال أو الدعم، ولكنه لن يفكر بابنه أبداً بعد ذلك.

- عجباً، ألم يتكلم عنه أبداً أو يقل أي شيء؟

- لعلك تتذكرين أنه لم يكن يتكلم بشيء عن مشاعره الشخصية أو حياته؟

- نعم، نعم، بالطبع. ولكني حسبت أنه ربما أفضى إليك بمتاعبه أو بمشكلاته حيث كنت سكرتيرته لسنوات عديدة.

- لم يكن من النوع الذي يفضي بمتاعبه للآخرين... هذا إن كانت هناك أية متاعب، وهو ما أشك فيه. لقد تزوج عمله إذا صح التعبير! كان أباً لعمله وكان عمله هو الابن الوحيد الذي يهتم له، كان يستمتع به أشد الاستمتاع، الاستثمار وجمع الأموال وتحقيق إنجازات تجارية غير متوقعة.

همست الآنسة ماربل وهي تكرر الكلمات وكأنها شعار: لا تقل إن فلاناً سعيد حتى يموت!

ويبدو فعلاً أن هذه العبارة قد أصبحت شعاراً في هذه الأيام، أو هكذا رأت الآنسة ماربل الأمر. سألت: إذن لم يكن لديه أي شيء يشغله قبل وفاته؟

بدت إيستر وقد فوجئت، وقالت: نعم، ولماذا تظنين غير ذلك؟

- الواقع أني لم أظن أي شيء. كان مجرد سؤال لأن الناس يبدؤون في أحد الأمور يقلق أكثر عندما... لن أقول عندما يكبرون بالسن لأنه لم يكن كبيراً بالسن، لكن أقصد أن الأمور تقلق الناس أكثر عندما يقعدهم المرض ولا يستطيعون العمل كما كانوا يفعلون وحينما يتوجب عليهم أن يهونوا على أنفسهم؛ عندما تنتابهم أنواع القلق وتصبح محسوسة أكثر لديهم.

- نعم، أفهم ما تقصدين. لكن لا أظن أن السيد رافائيل كان كذلك. على أية حال فقد اعتزلت العمل عنه منذ فترة... بعد شهر أو شهرين من الذي يقدمونه.

- آه، نعم، زوجته. لا بد أن السيد رافائيل قد تضايق من خسارته لك.

رنت عليها إيستر بمرح: آه، لا أظن ذلك. لم يكن من شأنه أن يزعج أو يتضايق من مسألة كهذه؛ كان سيحضر سكرتيرة أخرى على الفور... وهو ما فعله. وبعدها، إذا لم تعجبه فإنه يتخلص منها ويحضر غيرها إلى أن يجد واحدة تناسبه. كان دوماً رجلاً واعياً جداً.

– نعم، نعم، أفهم هذا. رغم أنه كان يفقد أعصابه بسرعة.

– كان يستمتع بفقد أعصابه، وأظن أنه كان يرى في ذلك شيئاً من الإثارة.

قالت الآنسة ماربل متأملة: إثارة؟! هل تظنين... لقد تساءلت كثيراً، هل تظنين أنه كان للسيد رافائيل أي اهتمام خاص بعلم الجريمة، أقصد دراسة علم الجريمة؟ إنه... لا أدري.

– هل تقصدين بسبب ما حدث في الكاريبي؟

كان صوت إيستر قد أصبح قاسياً فجأة. وأحست الآنسة ماربل بالارتياب من إمكانية استمرارها، ومع ذلك كان لا بد لها من أن تحاول الحصول على معلومات قد تساعدها. قالت: لا، ليس بسبب ذلك، لكنه ربما تساءل بعد ذلك عن سيكولوجية تلك الأشياء، أو أنه أصبح يهتم بالقضايا التي لم تكن حلولاً عادية أو...

كانت أفكارها تزداد تشوشاً شيئاً فشيئاً، فقالت إيستر: ولماذا يهتم بهذه الأشياء؟ لا نريد أن نتكلم عن ذلك الحادث المفزع في بيت هوتري.

– آه، نعم، أظن أنك محقة تماماً. أنا آسفة جداً، لقد كنت أفكر في بعض الأشياء التي كان السيد رافائيل يقولها أحياناً. كانت عبارات غريبة مفاجئة وقد سألت نفسي إن كانت لديه أية نظريات... أعني فيما يتعلق بأسباب الجرائم؟

قالت إيستر باختصار: كانت اهتماماته مالية تماماً على الدوام.

ربما كان من شأن عملية احتيال ذكية جداً أن تجذب اهتمامه، ولكن الأمر لا يتعدى ذلك.

كانت تنظر إلى الآنسة ماربل نظرات فارغة، فقالت الآنسة ماربل معتذرة: أنا آسفة، ما كان عليّ أن أتحدث عن أمور محزنة أصبحت الآن من الماضي لحسن الحظ. كما يجب أن أنطلق الآن، أريد أن ألحق بالقطار. يا إلهي! ماذا فعلت بحقيبتي؟ آه، نعم، ها هي.

جمعت حقيبتها ومظلتها وبعض الأشياء الأخرى وهي تتراجع وتحتفر إلى أن هدأ التوتر قليلاً، وعندما خرجت من الباب التفتت إلى إيستر التي كانت تلح عليها بالبقاء وشرب فنجان من الشاي فقالت: لا، اشكرك يا عزيزتي، لقد تأخرت. إنني سعيدة جداً برؤيتك ثانية كما أعتقد على زواجك وأرجو لك حياة سعيدة. لا أظن أنك ستعملين في أية وظيفة، أليس كذلك؟

– بعض النساء مثلي يفعلن ذلك؛ إنهن يقلن إن العمل مشوق، وإنهن يشعرن بالملل عندما لا يكون لديهن عمل، لكني أعتقد بأنني سأستمتع بحياة عالية من العمل، كما سأستمتع بالثروة التي تركها لي السيد رافائيل. كان ذلك عملاً لطيفاً منه وأظن أنه كان يريدني أن أستمتع بها حتى لو أنفقتها بطريقة كان يراها سخيفة وغبية، طريقة أتوقع أنها تهب غالبية الثمن وتشريحات شعر جديدة ومثل هذه الأشياء... لقد كان يرى مثل هذه الأشياء سخيفة جداً.

ثم أضافت فجأة: لقد كنت معجبة به، نعم، أحببت به تماماً. أظن أن السبب أنه كان يمثل تحدياً لي، كان يصعب التعايش معه ولذلك استمتعت في إدارة شؤونه.

- وفي إدارته هو أيضاً، أليس كذلك؟

- ليس تماماً، ولكنني نجحت في ذلك بأكثر مما كان يعتقد في الحقيقة.

عرجت الآنسة ماربل إلى الشارع تمشي بخطوات متثاقلة. نظرت ورامها مرة ثانية ولوّحت بيدها، كانت إيسلر أندرسون تقف على عتبة الباب ولوّحت لها بمنديلها.

قالت الآنسة ماربل لنفسها: لقد ظننت أن لها علاقة بذلك الأمر أو أنها تعرف شيئاً عنه، ولكن أظن أنني مخطئة. نعم، لا أظن أنها معنية بهذا الأمر، أياً كانت طبيعته وبأية طريقة كانت. يا إلهي! الشعر أن السيد رافائيل كان يتوقع مني أن أكون أذكى بكثير مما أنا عليه. أعتقد أنه كان يتوقع مني تجميع الخيوط... ولكن أية خيوط؟ ترى ماذا أفعل بعد ذلك؟

هزت رأسها بأسف. كان عليها أن تفكر بالأشياء تفكيراً مثمراً، لقد تُرك هذا الأمر لها، تُرك لها لكي ترفض أو تقبل، ولكي تفهم ما هو أو لا تفهم أي شيء، ولكي تواصل عملها ترجو أن يحظى أحدٌ ما دليلاً أو إرشاداً معيناً يشير لها الطريق. كانت من وقت لآخر تحلق عينيها وتحاول أن تتخيل وجه السيد رافائيل، جالساً في حديقة الفندق في جزر الهند الغربية في بدلته الصيفية ووجهه المتجمد الناقد وتهكماته. إن ما كانت تريد حقاً معرفته هو ما كان يدور في ذهنه عندما ابتدع هذه الخطة وعندما شرع في تنفيذها لكي يطريها بقبولها... لكي يلذعها بقبولها... أو ربما لكي يرهبها لقبولها. وبالنظر لطبيعة السيد رافائيل فإن هذه العبارة الأخيرة هي الأرجح ضمن دوافعه. لكن لنفترض أنه

أراد عمل شيء واختارها لتقوم بهذا العمل. لماذا؟ لأنها عطرت بيالة فجأة؟ ولكن لماذا عطرت بيالة؟

أعادت التفكير بالسيد رافائيل وبالأشياء التي حدثت في سينت مونزي. هل جعلت المشكلة التي كان يفكر فيها وقت وفاته يعود إلى التفكير بزيارته تلك إلى جزر الهند الغربية؟ هل كانت تتعلق بطريقة ما- بشخص كان موجوداً هناك، شخص شارك أو شاهد شيئاً هناك، وهل ذلك هو ما ذكره بالآنسة ماربل؟ هل هناك أية رابطة أو صلة؟ إذا لم يكن فلماذا فكر بها فجأة؟ ما هي تلك الميزة التي تمتلكها وتجعلها مفيدة له؟ إنها محور مشتة التفكير، إنسانة عادية تماماً، ليست قوية من الناحية الجسدية ومن الناحية العقلية لم تعد صافية الذهن كما كانت سابقاً. ما هي مؤهلاتها الخاصة؟ لم تستطع أن ترى أية مؤهلات. هل يمكن أن يكون الأمر دعابة من طرف السيد رافائيل؟ حتى لو كان السيد رافائيل على وشك الموت فإنه ربما أراد القيام بمزحة تتناسب مع روح السخرية الغريبة التي كان يمتاز بها.

لم تستطع أن تفكر أن السيد رافائيل ربما كان يريد الدعابة حتى وهو على سرير الموت، ربما كان يريد إشاعة روح السخرية عنده. وقالت الآنسة ماربل لنفسها بحزم: لا بد... لا بد أنني أمتلك مؤهلات محددة لأمر محدد.

لكن ما هي المؤهلات التي تملكها؟ تساءلت الآنسة ماربل: ما هي المؤهلات التي أملكها ويمكن أن تفيد أي شخص لعمل أي شيء؟

فكرت في نفسها بتواضع. إنها امرأة فضولية تسأل الأسئلة، إنها كأترابها من النساء المسنات اللاتي يُتوقع منهن توجيه الأسئلة. تلك

في إحدى النقاط، نقطة محتملة. يمكنك أن ترسل متحرياً خاصاً ليوجه أسئلة أو محققاً نفسانياً، ولكنك تستطيع أيضاً وبسهولة أكثر أن ترسل سيدة مسنة ذات طبيعة فضولية ونظيفة، تحدث كثيراً ولها رغبة في اكتشاف الأسرار، ومع ذلك يبدو الأمر طبيعياً للغاية.

قالت الآنسة ماربل تحدث نفسها: عجوز ثرثارة... نعم، معروف عني أنني عجوز ثرثارة. يوجد الكثير من العجائز الثرثارات وكلهن متشابهات، وبالطبع فإنني عجوز عادية، عجوز عادية متشتة التفكير. وهذا بالطبع تمويه جيد. يا إلهي! أراني أسير على الطريق السليم في التفكير. أحياناً أفكر تفكيراً سليماً وأعرف طبائع الناس، أقصد أنني أعرف طبائع الناس لأنهم يذكّرونني بأناس آخرين معينين ممن عرفتهم، ولذلك أعرفُ بعضَ عيوبهم وبعضَ حسناتهم وأعرف أي نوع من الناس هم. هذه ميزة أخرى.

فكرت ثانية في سيدت هونري وفندق فولدن بالم. وحاولت مرة أخرى بحث احتمالات وجود رابطة من خلال زيارتها لإيستر والترز، لا تشك أنها زيارة عديمة الجدوى... هذا ما قررته الآنسة ماربل. لم يبدُ وجود أية رابطة ابداً من هناك، لا شيء يمكن ربطه مع طلب السيد رافائيل من الآنسة ماربل أن تشغل نفسها بأمر ما زالت تجهل طبيعته.

صاحت الآنسة ماربل: يا إلهي، كم أنت رجل مضجر يا سيد رافائيل!

قالتها بصوت مرتفع، وكانت نبرة التأنيب ظاهرة في صوتها. ومع ذلك، وعندما صعدت على سريرها فيما بعد ووضعت زجاجة

الماء الساخن فوق ذلك الجزء من ظهرها الذي يؤلمها من الروماتزم تكلمت ثانية بما يشبه الاعتذار: لقد بذلت قصارى جهدي.

تكلمت بصوت مرتفع وكأنها كانت تخاطب شخصاً موجوداً معها في الغرفة. صحيح أنه قد يكون في أي مكان، ولكن حتى في هذه الحالة ربما كان يوجد اتصال روحي ما أو هاتفي، وإذا ما كان الأمر كذلك فإنها ستكلم بشكل محدد ومباشر: لقد فعلت كل ما بوسعي، أفضل شيء وفق إمكاناتي، ولا بد أن أترك الأمر لك الآن.

بعد ذلك اضطجعت بارتياح أكثر وبسطت يدها وأطفأت المصباح وراحت في نوم عميق.

* * *

الفصل الخامس
تعليمات من العالم الآخر

بعد ذلك بثلاثة أيام أو أربعة وصلها الصال عن طريق بريد المساء. أخذت الآنسة ماريل الرسالة وعملت بها ما تعمله بالرسائل عادة: قلبتها ونظرت إلى الطابع ونظرت إلى الكتابة على المغلف وقررت أنها ليست فاتورة وفتحتها. كانت مطبوع بالآلة الطابعة

عزيزتي الآنسة ماريل،

عندما تقرئين هذه الرسالة سأكون ميتاً ومدفوناً أيضاً. لن أتحرق جشعي لأنني كنت أرى دوماً أنه من غير المعقول أن يخرج شبحي من تلك الحفرة الرونزية التي تحتوي على رماد جثتي لكي أخرج لشخص حيثما أشاء! أما فكرة الخروج من القبر وظهور شبحي للناس فإنها فكرة مخيفة أكثر. فهل سأفعل ذلك؟ من يدري! ربما أردت الاتصال بك.

في هذا الوقت سيكون محامي قد اتصل بك وقام لك عرضاً محدداً. أرجو أن تكوني قد قبلته، وإذ لم تكوني قد قبلته فلا تشعري بالندم؛ إنه خيارك. سيصلك هذه

الرسالة في الحادي عشر من الشهر إذا فعل محامي ما طلبته منه وإذا قام ساعي البريد بأداء الواجب المتوقع منه. وخلال يومين من الآن سيتدفقون الصالاً من أحد مكاتب السفريات في لندن. أرجو أن لا تسألي عن العرض الذي سيقدمه ذلك الاتصال. لا أريد أن أقول أكثر؛ أريدك أن تنظري إلى الأمر بعقل متفتح. احتمي بنفسك. أعتقد أنك ستستطيعين القيام بذلك؛ فأنت امرأة ذكية جداً. أتمنى لك حظاً موفقاً وليحرسك الله.

صديقك المحب: ج. ب. رافائيل

قالت الآنسة ماريل: يومان!

أحست أنها لا تكاد تستطيع الانتظار. وقد قام مكتب البريد بواجبه المطلوب منه وكذلك مكاتب السفريات، فوصلتها الرسالة بعد ظهر

الآنسة ماريل العزيزة،

بناء على التعليمات التي أعطيت لنا من السيد رافائيل نرسل لك تعجيلات رحلتنا رقم ٣٧ التي ستنطلق من لندن يوم الخميس القادم السابع عشر من هذا الشهر، فإذ استطعت الصعود إلى مكانها في لندن فإن السيدة سالدبورد التي ستواصل الرحلة ميسرها أن تعطيك كل التفاصيل وتجيب على جميع أسئلتك.

إن رحلاتنا تستمر من أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع، ويعتقد السيد رافائيل أن هذه الرحلة بالذات ستنال رضاك لأنها مجاورة جزءاً من إنكلترا أنت ذاهبة إليه من قبل حسب

طن السيد رافاييل، وهي تتضمن بعض المناظر الطبيعية الخلابة والحدائق الجذابة، وقد حجز لك أفضل إقامة وأفضل وسائل الراحة التي نستطيع توفيرها لك.

أرجو أن تخبرينا عن الموعد الذي يناسبك لزيارة مكاتبنا في شارع بيركلي.

طوت الآنسة ماريل الرسالة ووضعتها في حقيبتها وكتبت رقم الهاتف، وفكرت في بعض صديقاتها ثم اتصلت بالثنين، واحدة منهما كانت قد ذهبت في رحلة مماثلة مع شركة السفريات تلك وقد أثنت على الشركة، أما الثانية فلم تذهب شخصياً لكن بعض صديقاتها سافرن مع هذه الشركة بالذات وقلن إن كل شيء كان رائعاً رغم أنها مكلفة، لكنها ليست مدعية لامرأة مسنة. ثم اتصلت برقم مكتب المكتب في شارع بيركلي وقالت إنها ستزورهم يوم الثلاثاء القادم.

وفي اليوم التالي تحدثت مع شيري في هذا الموضوع. قالت: ربما أسافر يا شيري في رحلة.

- رحلة؟ تقصدين رحلة خارجية؟

ليست خارجية، وإنما داخلية في البلد، لزيارة مدن تاريخية وحدائق.

- أترين ذلك خطوة صحيحة في مثل عمرك؟ هذه الرحلات متعبة جداً، وأحياناً يتطلب الأمر أن تمشي أميالاً.

- صحتي جيدة، وقد سمعت أنهم في هذه الرحلات يحرصون على تقديم فترات استراحة للأشخاص المسنين.

قال شيري: إذن اعتني بنفسك، فلا تريدك أن تصابي بأزمة قلبية كالتي ما كانت روعة المناظر التي ستشاهدينها. إنك كبيرة قليلاً على مثل هذه الرحلات، اطمئني إذ أقول ذلك رغم أنها تبدو وقاحة مني، فأنا لا أحب أن أفكر بإمكانية مكروه يصيبك نتيجة الجهد الكبير والإرهاق.

قالت الآنسة ماريل بوقار: أستطيع الاعتناء بنفسي.

- حسناً، حاذري على نفسك.

• • •

خرجت الآنسة ماريل حقيبتها وذهبت إلى البنك وحجزت لها غرفة في فندق متواضع. فكرت في نفسها: آه، فندق بيرترام، كم كان رائعاً هذا الفندق! يا إلهي، يجب أن أطرد هذه الأمور من تفكيري، إن مطعمة سيئة جورج مطعمة جيدة.

وفي الموعد المحدد كانت في شارع بيركلي ودخلت المكتب، حيث نهضت امرأة في الخامسة والثلاثين من عمرها تقريباً لتحيتها، وقدمت نفسها بأنها السيدة ساندبورن وأنها مسؤولة شخصياً عن هذه الرحلة. قالت الآنسة ماريل: هل أفهم أن هذه الرحلة في حالتي...

ترددت، لكن السيدة ساندبورن التي أحست بارتباك الآنسة ماريل أسرعت تقول: آه، نعم، كان يجب أن أشرح ذلك الأمر في الرسالة التي بعثناها لك بطريقة أفضل. لقد دفع السيد رافاييل جميع النفقات.

- هل تعرفين أنه قد مات؟

- آه، نعم، لكن ذلك تم ترتيبه قبل وفاته. ذكر لنا أنه مريض لكنه يريد تقديم خدمة لصديقة كبيرة بالسن تم تحصيل على فرصة في السفر كما كانت تتمنى.

* * *

بعد يومين حملت الآنسة ماربل حقيبتها اليدوية الصغيرة وحقيبة الملابس الجديدة الجميلة وسلمتها للسائق، وانطلقت بها حافلة مريحة فخمة باتجاه شمال غرب لندن. بدأت تتفحص قائمة الركاب المرفقة مع كتاب دليل الرحلة الذي يحتوي تفصيلات عن خط الرحلة ومعلومات مختلفة عن الفنادق ووجبات الطعام والأماكن التي سيشاهدها الركاب وبدائل أخرى في أيام النزول البر.

قرأت الآنسة ماربل القائمة وتفحصت وجوه زملائها الركاب. لم يكن في هذا العمل أية صعوبة لأن الركاب الآخرين كانوا يفعلون الشيء نفسه، كانوا ينظرون إليها وإلى الآخرين، لكنها لاحظت عدم وجود أحد ينظر إليها نظرات ذات اهتمام خاص.

السيدة رابسلي بوزار
الآنسة جوانا كراوفورد
الكولونيل ووكر وزوجته
السيد بالمر وزوجته
الآنسة إليزابيث ليمبل
البروفسور والسيد
السيد ريتشارد جيمسون
الآنسة لومللي

الآنسة بلام
السيد كاسر
الآنسة كوزل
الآنسة بارو
السيد إيملين برايس
الآنسة جين ماربل

كان بين الركاب أربع سيدات مسنات، لاحظهن الآنسة ماربل أولاً حتى تزيحهن عن الطريق (إذا صح التعبير). اثنتان منهما كانتا مسافرتين معاً، وقدرت الآنسة ماربل أن أعمارهما يتجاوز السبعين، بينما اعتبارهما من بنات جيلها تقريباً. واحدة منهما من الواضح أنها من النوع شديد التذمر والشكوى، ممن يصرون -مثلاً- على الجلوس في المقدمة، فإذا تعذر ذلك أصروا على مؤخرة الحافلة، في الجانب المواجه للشمس أو في جانب الظل... وكانتا تحملان معهما حصيراً ولفحات صوف ومجموعة من الكتب الإرشادية. كانتا شبه متعادتين وتوجعان من آلام القدم أو الظهر أو الركبة ولكنهما كانتا من ذلك الطراز الذي لا يمنعه السن أو المرض من التمتع بالحياة طالما توفرت فرصة لذلك، من العجائز الزائرات لكنهما ليستا -بالتأكيد- ممن يحبون الجلوس في البيت.

وضعت الآنسة ماربل صفحة لهما في الدفتر الصغير الذي تحمله.

خمسة عشر راكباً بالإضافة إليها وإلى السيدة ساندبورن. وبما أنها وُضعت مع هذه المجموعة في الرحلة فلا بد أن لواحد من هؤلاء الركاب الخمسة عشر أهمية معينة، إنما مصدراً للمعلومات أو شخصاً

معنياً بالقانون أو بقضية قانونية، أو ربما يكون قاتلاً... قاتلاً ربما ارتكب جريمة أو يستعد لارتكابها!

وفكرت الآنسة ماربل بأن أي شيء محتمل وممكن مع السيد رافائيل! على أية حال لا بد أن تدوّن ملاحظات من هؤلاء الركاب، ستدوّن على الصفحة اليمنى من دفترها الأشخاص الذين يستحقون الاهتمام من وجهة نظر السيد رافائيل وعلى الصفحة اليسرى ستدوّن أسماء الأشخاص الذين يمكن أن يفيدوا بشيء، كإعطائها معلومات مثلاً: قد تكون معلومات لا يعرفون هم أنفسهم أنهم يمتلكونها، أو حتى لو كانوا يمتلكونها فإنهم لا يعلمون أنها قد تكون مفيدة لها أو للسيد رافائيل أو للشرطة أو العدالة. وفي مؤخرة دفترها الصغير ربما تكتب هذه الليلة بعض الملاحظات حول ما إذا كان أحدٌ من الركاب قد ذكّرها بشخصيات عرفتها في الماضي في سينت ميري ميد وأماكن أخرى، أية تشابهات قد تكون مؤشراً مفيداً. فمثل هذه الملاحظات كانت مفيدة في مناسبات سابقة.

بدا واضحاً أن السيدتين المسنتين الأخريين كانتا مسافرتين كل واحدة على حدة، وكل واحدة منهما كانت في الستين من العمر تقريباً. إحداهما كانت امرأة تهتم بنفسها وبهندامها وواضحٌ أنها ذات مكانة اجتماعية رفيعة؛ كان صوتها عالياً واستبدادياً، ويبدو أنها قد جاءت مع واحدة أخرى، ابنة أخ لها في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من عمرها كانت تخاطبها بالعمة جيرالدين. ولاحظت الآنسة ماربل أن الفتاة معتادة على التأقلم مع سطوة عمتها، وكانت فتاة قديرة إضافة إلى كونها فتاة جذابة.

وعلى الجانب المقابل لمقعد الآنسة ماربل في الطرف الآخر

من الممر جلس رجل ضخم عريض المنكبين ذو جسم غير متناسق يبدو مثل أمة زكيّها طقل من أحجار عشية. أما وجهه فقد بدا أنه كان ينبغي أن يكون مستديراً، ولكنه تمرد على ذلك وسعى لاكتساب شكل مربع عن طريق حلك قوي عريض. كان ذا شعر كثيف أشيب وحاجبين كثين عظيمين يتحركان صعوداً ونزولاً لإعطاء أهمية لما يقوله. أما عباراته فقد بدا أنها لا تصدر إلاّ على شكل سلسلة من الشتائم كما لو كان كاتباً تزاراً! وكان يشارك معه في المقعد أجنبي أسمر طويل القامة يتململ في جلسته ويومئ برأسه كثيراً، وكان يتكلم بلهجة إنكليزية غريبة جداً تتخللها عبارات بالفرنسية والألمانية. وكان رجله الضخم يبدو قادراً على التأقلم مع هذه المقاطع اللغوية والغير لسانه بكل مرور إلى الفرنسية والألمانية.

نظرت الآنسة ماربل إليهما نظرة سريعة وقررت أن صاحب الحاجب الغزير لا بد أن يكون البروفسور واستنيد وأن الأجنبي المهذاج هو السيد كاسبر. وتساءلت عن الموضوع الذي كانا يجادلان بمثل هذه الحيوية، لكنها لم تستطع فهمه بسبب سرعة وقوة الإرسال لدى السيد كاسبر.

المقعد أمامهما شغلته المرأة الأخرى ذات الستين عاماً. وهي امرأة طويلة القامة ربما كانت تزيد عن الستين عاماً، ولكن كان من شأنها أن تقف متميزة فسط أي حشد من الناس أينما كان. كانت امرأة قد حافظت على وسامة بالغة، ذات شعر أسود يغطه الشيب يرتفع عن رأسها عالياً، وكان صوتها متخلفاً واضحاً. أحسّت الآنسة ماربل أنها امرأة ذات شخصية مرموقة، امرأة مهمة! نعم، كان واضحاً أنها ذات شخصية مهمة. قالت تحدّثت نفسها: "إنه لذكرني بالسيدة إيميلي والدرون". كانت السيدة إيميلي والدرون عميدة كلية في أكسفورد

وعالمة مشهورة، وبعد أن قابلتها الآنسة ماربل بضعة أيام أعجبها لم تنسها أبداً.

لابست الآنسة ماربل مسبحها للركاب: هناك زوجات، الزوجة أمريكية في وسط العمر، وهي ودودة وتتكلم كثيراً، والزوج عادة يوافقها على كل شيء. وكان واضحاً أنهما من محبي السفر ورؤية المناظر. كما كان هناك زوجان إنكليزيان في منتصف العمر لم تتردد الآنسة ماربل لحظة في كتابة استنتاجها على أنهما العسكري المتقاعد الكولونيل ووكر وزوجته.

وعلى المقعد خلفها كان يجلس رجل نحيف طويل القامة في الثلاثين من عمره تقريباً، يتكلم بعبارات عالية التخصص، ومن الواضح أنه مهندس معماري. وفي آخر الحافلة جلست سيدتان في أواسط العمر مسافرتين معاً كانتا تتناقشان حول دليل الرحلة وما تحمله الرحلة من مفاجآت وأشياء جميلة، وكانت إحداهما سمراء نحيلة أما الثانية فكانت شقراء مكتنزة الجسم، وبدا وجهها مألوفاً بعض الشيء للآنسة ماربل. تساءلت أين رأتها أو التقت بها من قبل، لكنها لم تستطع تذكر المناسبة، ربما كانت قد التقت بها في إحدى الحفلات أو جلست قبالتها في قطار... لم يكن فيها شيء خاص تتذكره.

بقي لها تخمين مسافر واحد فقط، وهو شاب في التاسعة عشرة أو العشرين من العمر. كان يرتدي ثياباً تناسب عمره وجنسه، بنطالاً ضيقاً من الجينز الأسود وسترة أرجوانية اللون، وكان شعره كثاً أسود غير مرتب. كان يظهر بشيء من الاهتمام إلى ابنة أخي السيدة المتسلطة، ولاحظت الآنسة ماربل أيضاً أن الفتاة كانت تظهر

إليه باهتمام هي الأخرى. فعلى الرغم من تفوق المجتمع الزائرات ومتوسطات العمر في العدد إلا أنه كان ثمة شبان بين المسافرين.

* * *

توقفت الحافلة حتى يتناول الركاب طعام الغداء في أحد الفنادق على جانب النهر، وقد خصصت مدينة بليتهايم للنجوم فيها لرؤية المناظر الطبيعية بعد الظهر. كانت الآنسة ماربل قد زارت بليتهايم من قبل مرتين، لذلك وفرت جهدها ولم تخرج لرؤية المنطقة وذهبت تستمتع بمناظر الحدائق الغربية من الفندق.

وعندما وصلوا إلى الفندق الذي سيقضون فيه الليلة كان الركاب قد بدؤوا بالتعارف؛ فقد قامت السيدة ساندبورد القديرة بدورها على أكمل وجه في تعريف الركاب بعضهم ببعض، وذلك بتشكيل مجموعات صغيرة وضم من يبدو بمفرده إليها وهي تقول مثلاً: "يجب أن تطلب من الكولونيل ووكر وصف حديقته لك، إن في حديقته مجموعة رائعة من أشجار الفوشية"... وبهذه العبارات الصغيرة ألفت بين قلوب الركاب.

في هذا الوقت كانت الآنسة ماربل قادرة على ربط أسماء جميع الركاب بأصحابها، فقد ظهر أن صاحب الحاجبين الكثين هو البروفسور وانستيد والرجل الأجنبي هو السيد كابير أوهو ما كانت متعمدة)، أما المرأة المتسلطة فكانت السيدة رايسلي بورار واسم ابنة أخيها جوانا كراوفورد. الشاب ذو الشعر المنفوش هو إيفانس برايس، وقد بدا أنه يستكشف مع جوانا كراوفورد ما يجمع بينهما من الأمور

المشتركة كأرائهما حول الاقتصاد والفن والسياسة، والأمور المشتركة التي يكرهانها أيضاً.

وتقربت السيدتان المسنتان من الآنسة ماربل بشكل طبيعي باعتبار قرابة العمر، فناقشن معاً بشرح أمراض المفاصل والروماتزم والحمية والأطباء المعدة والأدوية وذكرياتهن عن علاج ربات البيوت قديماً (الذي أثبت نجاحه رغم فشل جميع أنواع العلاج الأخرى)... ناقشن الرحلات الكثيرة التي سافرن فيها إلى بلاد أجنبية في أوروبا والفنادق ووكالات السفر، وأخيراً مقاطعة سومرست حيث كانت الآنسة لوملي والآنسة بنتام تعيشان، وحيث لا يمكن تصديق المصاعب التي يواجهها المرء في العثور على بستانيين مناسبين.

أما السيدتان متوسطتا العمر المسافرتان معاً فقد ظهر أنهما الآنسة كوك والآنسة بارو. ما زالت الآنسة ماربل تحس أن وجه الشقراء منهما (الآنسة كوك) مألوف لديها، لكنها -مع ذلك- لم تستطع أن تتذكر أين رأتها من قبل. ربما كان ذلك مجرد وهم من جانبها، قد يكون مجرد وهم، لكنها لم تستطع إلا أن تشعر بأن الآنسة بارو والآنسة كوك كانتا تتجنبانها، بدا أنهما تحرصان على الابتعاد كلما اقتربت... ربما كان ذلك مجرد وهم منها بالطبع.

خمسة عشر شخصاً، أحدهم على الأقل لا بد أن يكون مهماً بطريقة ما.

راحت في تلك الليلة تذكر اسم السيد رالفايل عرضاً حتى تلاحظ ردود فعل المستمعين، ولكن لم يظهر أي رد فعل من أي منهم. لم يرفت المرأة الجميلة المهمة بأنها الآنسة إليزابيث تيمبل، وهي مديرة مقاطعة لإحدى مدارس البنات المشهورة. لم يبدُ للآنسة ماربل أن أحداً من أفراد المجموعة يمكن أن يكون قاتلاً إلا السيد داسبر، وربما كان ذلك بسبب التحيز ضد الأجانب. الشاب النحيف هو ريتشارد جيمسون، وهو مهندس معماري.

قالت الآنسة ماربل تحدث نفسها: ربما أنجز عملاً أفضل في الهند.

* * *

ذهبت الآنسة ماربل إلى النوم وقد نال منها التعب. كانت رؤية الناظر ممتعة لكنها مرهقة، وكان الأكثر إرهاقاً هو محاولة دراسة خمسة عشر شخصاً مرة واحدة مع التفكير فيمن عساه يكون منهم ذا علاقة بجريمة قتل. أحست الآنسة ماربل أن في هذا الأمر من اللاواقعية ما يجعل المرء لا يأخذه على محمل الجد؛ فقد بدت المجموعة كلها مجموعة بشر لطفاء ممن يحبون الأسفار والرحلات، ومع ذلك ألقت نظرة سريعة أخرى إلى قائمة الركاب ودوّنت بعض الملاحظات.

السيدة رايسلي بورتر: ليست مرتبطة بعالم الجريمة. امرأة اجتماعية جداً ومستقلة. ابنة أخيها جوان كراوفورد: الشيء نفسه، أخبها تدرّ بالغة الكفاءة. ومع ذلك قد يكون لدى السيدة رايسلي بورتر معلومات من نوع معين قد تجد الآنسة ماربل أن لها علاقة بأمور معينة، لا بد أن تبقى على علاقة حسنة معها.

الآنسة إليزابيث تيمبل: ذات شخصية مرموقة مثيرة للاهتمام. إنها لا تُذكّر الآنسة ماربل بأي مجرمة قاتلة عرفتها. قالت الآنسة

ماريل في نفسها: "الواقع أنها امرأة تتمتع باستقامة، ولو أنها ارتكبت جريمة قتل فستكون لهدف سام أو لهدف اعتبرته سامياً". لكن ذلك لم يكن مقنعاً، ورأت أن الآنسة تيمبل تعرف عالماً ما تفعله ولماذا تفعله وليس من شأنها الانجراف خلف أية أفكار سخيفة عن السمو عندما تكون المسألة مسألة شر يُرتكب. قالت الآنسة ماريل لنفسها: "إنها امرأة مهمة على أية حال، وربما أراد مني السيد رافائيل تقاديها لسبب معين". وكتبت هذه الأفكار على الجانب الأيمن من دفتر ملاحظاتها.

لم تثيرت مجال تفكيرها. كانت تفكر حتى الآن في قاتل محتمل، ولكن ماذا عن ضحية محتملة؟ من يمكن أن يكون ضحية متوقعة؟ لا أحد محتمل. ربما كانت السيدة رايسلي بورتر مؤهلة لهذا، فهي تبدو غنية ومكروهة بعض الشيء. إنة أعطيها القديرة قد ترثها، هي والفرنسوي إيملين برايس قد يلتقيان في قضية معادلة الرأسمالية. إنها ليست فكرة يمكن تصديقها كثيراً، ولكن لا يبدو وجود أية جريمة أخرى متوقعة.

البروفسور وانستيد: رجل مثير. إنها واثقة من هذا، وهو لطيف أيضاً. هل هو عالم أم طبيب؟ لم تكن واثقة بعد لكنها اعتبرته عالماً. وهي نفسها لم تكن تعرف شيئاً عن العلم، ولكن ذلك لم يكن مستبعداً تماماً.

السيد بالمر ورزوجته: استبعدتهما. إنهما أمريكيان لطيفان، ليست لهما أية علاقات أو صلات مع أحد في الهند الغربية أو بأي شخص تعرفه. نعم، لم تظن أن لهما صلة بالموضوع.

ريتشارد جيمسون: ذلك المعماري النحيل. لم تفهم الآنسة

ماريل كيف يمكن إدخال فن المعمار في هذا الأمر، رغم إمكانية ارتباطه. وربما كان للأمر علاقة بتصميم مكان يختبئ فيه المجرم؟ وربما كان في أحد البيوت التي سيزورونها مكان للاختباء، قد يحتوي على هيكل عظمي! ولأن السيد جيمسون مهندس معماري فإن من شأنه أن يعرف أين هذا المكان، وقد يساعدها على اكتشافه أو هي تساعده على اكتشافه ثم يكتشفان جثة هناك... لكن الآنسة ماريل ما لبثت أن قالت لنفسها: أي هراء هذا الذي أقوله وأفكر فيه!

الآنسة كرك والآنسة بارو: عاديتان جداً، ومع ذلك فقد رأت واحدة منهما من قبل بالتأكيد. لقد شاهدت الآنسة كرك على الأقل، وفكرت أنها ستتذكر دون شك.

الكولونيل ووكر وزوجته: شخصيات لطيفان. متقاعد من الجيش عاد في الخارج، جميل التحدث معهما، لكنها لم تر أنها ستتحصل منهما على شيء.

الآنسة بنادم والآنسة أوملي: السيدتان المسنتان. من غير المحتمل أن تكونا مجرمتين، ولكن بما أنهما عجوزان ثرثارتان فقد تعرفان الكثير من الشائعات والأقاويل، أو أن لديهما بعض المعلومات أو ربما قالتا ملاحظة ذات دلالة، حتى لو جاء ذلك في سياق الحديث عن الروماتزم أو التهاب المفاصل أو الأدوية.

السيد كاسبر: ربما كان صاحب شخصية خطيرة، يبدو سريع الاهتياج. سوف تبقيه في القائمة في الوقت الحالي.

إيملين برايس: يُفترض أنه طالب، والطلاب عنيفون عادة. هل يمكن أن يكون السيد رافائيل قد أرسلها لتعقب طالب؟ ربما اعتمد

هذا على ما فعله الطالب أو أراد فعله أو سيفعله لاحقاً، ربما كان فرنسوياً يحيل إلى العنف مثلاً.

قالت الآنسة ماربل وقد تمتمت قبلها: يا إلهي! يجب أن أنام.

كانت تشعر بالألم في قدميها وفي ظهرها، ورأت أن قواها العقلية لم تكن في أحسن حالاتها. نامت على الفور، وكان نومها مليئاً بالأحلام العديدة. رأت في أحدها أن حاجبي البروفسور والسيد قد سقطا لأنهما لم يكونا حاجبيه الحقيقيين بل كانا زائفين! وعندما استيقظت بعد قليل كان انطباعها الأول هو الانطباع الذي ينتج جميع الأحلام في الغالب، وهو الاعتقاد بأن هذا الحلم قد حلّ كل شيء. فكرت في نفسها: "بالطبع، بالطبع!... حاجبان زائفان وهذا يحل كل شيء! إنه هو المجرم!

وللأسف، سرعان ما رأت أنها لم تحل شيئاً، فسقوط حاجبي البروفسور والسيد لم يساعدها أبداً. ولسوء الحظ لم تعد تشعر بعد ذلك بالنعاس، فجلست على سريرها وقد عزمت أمرها. تنهدت ولبست رداءها وذهبت إلى حيث يوجد كرسي عالي الظهر وأخرجت من حقيبتها دفتر ملاحظات أكبر قليلاً وشرعت في العمل.

كتبت: إن المشروع الذي تواليه مرتبط بجريمة من نوع ما بالتأكيد؛ فالسيد رافائيل ذكر ذلك في رسالته بوضوح. لقد قال إن لي موهبة في تحسس العدالة وهذا يشمل موهبة لتحسس الجرائم بالضرورة، إذن فالأمر ذو علاقة بجريمة، ويفترض أنها ليست جريمة تجسس أو احتيال أو سرقة لأن مثل هذه الجرائم لم تصادفني أبداً، وليس لي علاقة بمثل هذه الأعمال أو أي معرفة بها أو مهارات خاصة تتعلق بها. إن ما عرفه السيد رافائيل عني ينحصر في تجربتي معي

عندما كنا معاً في سينت هونري، وقد ارتبطنا هناك بجريمة قتل. إن تقارير جرائم القتل التي تنشر في الصحف لم تثر اهتمامي أبداً، كما أنني لم أقرأ كتباً عن علم الجريمة ولم أعتزم بمثل هذا الموضوع. لقد حدث فقط أن وجدت نفسي في محيط من جرائم القتل مرات أكثر قليلاً من المعتاد. لقد توجه انتباهي إلى جرائم قتل تتعلق بأصدقاء لي أو معارف، وهذه المصادفات الغريبة في ارتباط أناس معينين بموضوعات محددة تحدث أحياناً في الحياة. أتذكر أن إحدى حماتي تحطمت السفن التي تركبها خمس مرات مختلفة، كما أن إحدى صديقاتي كانت ما يمكن أن أسميه امتهنت حوادث؛ بحيث أن بعض زميلاتها كنّ يرفضن ركوب سيارة أجرة معها. لقد وقعت لها أربع حوادث في سيارات أجرة وثلاث حوادث في سيارات خاصة وحادثا قطار... أشياء كهذه يبدو أنها تقع لأناس معينين دون سبب معروف، ورغم أنني لا أحب تدوين ذلك إلاّ أن جرائم القتل تحدث دوماً في المحيط الذي أكون فيه، وأحمد الله أنها لا تحدث لي شخصياً.

توقفت الآنسة ماربل وعزرت موقفها ووضعت مسنداً وراء ظهرها وأكملت: لا بد من محاولة عمل مسح منطقي قدر الإمكان لهذا المشروع الذي توليت القيام به. إن المعلومات التي لديّ ما زالت ناقصة تماماً حتى الآن، بل غاية عملياً. ولذلك لا بد أن أسأل نفسي سؤالاً واضحاً: فلأم يدور هذا الأمر كله؟ الإجابة: لا أعرف. أمر غريب ومثير، طريقة تصرف غريبة لرجل مثل السيد رافائيل، وخصوصاً أنه كان رجل أعمال ورجل مال ناجحاً. يريدني أن أعتقد وأن أوثّق غريزتي، وأن أمتثل وأطيع هذه التوجيهات التي تُعطى لي أو يلمّح بها إليّ.

إذن، النقطة رقم (١): سأُعطى لي توجيهات من رجل ميت.

النقطة رقم (٢): إن القضية التي أقف لإدعاء في قضية عدالة. إما أن أزيل أو أسمح قليلاً أو أتقدم من الشر بتقديمه إلى العدالة. إن هذا يتوافق مع كلمة السر «نظام العدالة» التي أعطاها لي السيد رافائيل.

بعد الشروحات التي قُدّمت للقضية المطروحة استلمت أول توجيه جغرافي. فقد وعد السيد رافائيل قبل موته بأن أذهب في الرحلة رقم ٣٧ لشركة السفريات هذه. لماذا؟ هذا ما يجب أن أسأله نفسي. أهو لسبب جغرافي معين أم لوجود صلة ما أو مفتاح للغز؟ بيت مشهور مثلاً؟ أو شيء له علاقة بحديقة معينة أو منظر طبيعي ما؟ كل هذا يبدو مستبعداً. التفسير الأكثر احتمالاً يكمن في الناس، أو أحد الناس الموجودين ضمن هذه الرحلة. لا أعرف أحداً منهم شخصياً، لكن واحداً منهم على الأقل لا بد أن يكون مرتبطاً باللغز الذي على حلّه. في مجموعتنا شخص مرتبط بجريمة قتل أو محتمل بها، شخص لديه معلومات أو صلة خاصة بضحية الجريمة، أو هو نفسه القاتل. قاتل ما زال بعيداً عن الشبهات.

توقفت الآنسة ماريل هنا فجأة وأومأت برأسها. كانت راضية عن تحليلها حتى الآن. وهكذا ذهبت إلى النوم بعد أن أضافت في دفتر ملاحظاتها عبارة تقول: «هنا ينتهي اليوم الأول».

* * *

الفصل السادس

الحب

في صباح اليوم التالي زارت المجموعة بدأ ريفياً صغيراً للملكة ان. لم تكن الرحلة إلى هناك طويلة أو متعبة، وكان البيت ساحراً جميلاً ذا تاريخ مشوّق، وكانت له حديقة جميلة غير عادية.

أُعجب المعماري ريتشارد جيمسون بالبناء الجميل للقصر غاية الإعجاب، وبما أنه كان شاباً من أولئك الذين يحبون التباهي فقد ظل في كل غرفة من غرف القصر يتنهل سير المجموعة ليشير إلى نواحي المواقد في الغرف، وليعطي معلومات وتواريخ عنها. ومع استمرار هذه المحاضرات الرتيبة بدأ بعض أفراد المجموعة بالإحساس بالضجر بعد أن أبدوا تقديرهم في البداية، وبدأ بعضهم ينحرف جانباً عن خط سير المجموعة أو يتلاشى وراءها. أما القيّم المسؤول على القصر الذي كان مسؤولاً عن مراقبة الزوار فلم يكن سعيداً هو الآخر من قيام أحد الزوار باغتصاب دوره، فقام بعدة جهود لإعادة الأمور إلى نصابها واستلام زمام المبادرة وأداء دوره. لكن السيد جيمسون لم يكن ليذعن. ثم قام الدليل بمحاولة أخيرة فاشلاً في هذه الغرفة -أيها السيدات والسادة- التي يسميها أهل البطلة «الغرفة البيضاء» أكثر

على جثة! كانت جثة شاب ممدة أمام الموقد وقد طُعن بخنجر، وكان ذلك في الفرد الثامن عشر. ويقال إن سيدة القصر كان لها عشيق وقتها، وقد دخل من باب جانبي صغير وصعد درجاً شديد الانحدار ليدخل هذه الغرفة من باب سري قرب الموقد، وقيل إن زوجها السير ريتشارد موفات كان مسافراً إلى بلد بعيد لكنه عاد إلى بيته فجأة فشاهدهما معاً.

ثم سكت سكوت المصعب بنفسه. كان سعيداً من ردود فعل مستمعيه الذين استراحوا من التفصيلات المعمارية التي أجبروا على تجرعها رغماً عنهم.

قالت السيدة باتلر بلهجتها الأمريكية الرنانة: أليس هذا مثيراً يا عزيزي؟ في هذه الغرفة جو من نوع خاص... إنني أحس به، أحسّ به بالتأكيد.

قال زوجها ملتمتراً وهو يخاطب نفسه حوله: إن مبنى حساسة جداً تجاه أجواء الأماكن. عندما كنا ذات مرة في بيت قديم في لوزيانا...

بدا أن الكلام حول حساسية مبنى تجاه الأجواء سيمضي إلى نهايته، ولذلك انتهزت الآنسة ماربل وبعض الآخرين الفرصة فخرجوا من الغرفة بهدوء ونزلوا الدرج إلى الطابق الأرضي.

قالت الآنسة ماربل تخاطب الآنسة كوك والآنسة بارو اللتين كانتا بجانبها: لقد عاشت إحدى صديقاتي تجربة مثيرة للأعصاب قبل بضع سنوات. فقد وجدت جثة على أرضية غرفة المكتبة في بيتها ذات صباح.

سألتها الآنسة بارو: هل كانت واحدة من العائلة؟ هل كانت مجرد غريبة صرع مثلاً؟

- لا، بل جريمة قتل. كانت فتاة غريبة بلباس السهرة، شقراء، لكن شعرها كان مصبوغاً. كانت فتاة سمراء في الحقيقة و... آه!

سكتت الآنسة ماربل وهي تنظر إلى شعر الآنسة كوك الأصفر وهو يتدلى من تحت منديلها. لقد تذكرت فجأة! عرفت الآن لماذا كان وجه الآنسة كوك مألوفاً لها وعرفت أين رأتها من قبل. لكنها عندما رأتها تلك المرة كان شعرها أسود، أما الآن فهو أصفر زاه.

قالت الآنسة رايسلي بورتر بحزم وهي تنزل الدرج والآخرون وراءها باتجاه الصالة: لن أصعد وأنزل هذا الدرج بعد الآن، كما أن الوقوف في هذه الغرفة مخيفٌ جداً. أعتقد أن الحدائق هنا قد نالت استحسان دوائر المهتمين بتنسيق الحدائق، وأرى أن نذهب إلى هناك دون إضاعة أي وقت؛ إذ يبدو أن السُّحُب تتراكم بسرعة وأعتقد أن السماء ستمطر قبل انقضاء الصباح.

كان للسلطة التي تحدثت بها السيدة رايسلي بورتر أثرها المعتاد؛ فقد تبعها كل من كانوا على مقربة منها أو سمعوها ليخرجوا من الأبواب الزجاجية المفتوحة إلى الحديقة. كانت الحدائق كما قالت السيدة رايسلي بورتر عنها فعلاً، وسرعان ما أمسكت السيدة بزمام الكولونيل وبورتر بإحكام وانطلقت معه، وتبعهما بعض القوم بينما فضّل الآخرون الذهاب إلى أماكن في الاتجاه الآخر.

أما الآنسة ماربل فقد اتجهت نحو أحد المقاعد الموجودة في الحديقة وكان مقعداً مريحاً، فجلست عليه وهي تتنهد بارتياح، ثم

جاءت الآنسة إليزابيث تيميل فشهدت بدورها وجلست بجانبها على المقعد. قالت الآنسة تيميل: إن الخجول في البيوت مرهق دائماً، أكثر ما يسبب الإرهاق في هذا العالم، ولا سيما إذا توجب عليك أن تصغي إلى محاضرة مملة في كل غرفة...

ردت عليها الآنسة ماريل بارتياب: كل ما قيل لنا مثير جداً بالطبع.

- آه، أتعتقدين ذلك؟

التفتت برأسها قليلاً وقابلت عيناها عيني الآنسة ماريل. نشأ بين المرأتين نوع من الصلة أو التفاهم، وسألتها الآنسة ماريل: ألا ترين أنت ذلك؟

- لا أظن.

هذه المرة كان التفاهم قد استقر بينهما. جلستا متجاورتين في صمت، وسرعان ما بدأت الآنسة تيميل تتحدث عن الحدائق وعن هذه الحديقة على وجه الخصوص. قالت: لقد صممها هولمان قريباً من عام ١٨٠٠، لقد مات شاباً، يا له من أمر مؤسف، فقد كان عبقرياً.

- أمر محزن أن يموت الإنسان صغيراً.

قالت الآنسة تيميل بطريقة غريبة تأملية: لا أدري!

- ولكنهم بذلك يفقدون أشياء كثيرة، كثيرة جداً.

- أو يرتاحون من أشياء كثيرة.

قالت الآنسة ماريل: لا أملك سوى في هذا العمر المتقدم الآن- إلا الإحساس بأن الموت المبكر يعني فقدان الأشياء.

قالت الآنسة تيميل: أما أنا فأكون قد قضيت معظم حياتي وسط الشباب فإني أنظر إلى الحياة كفترة من الزمن كاملة بحد ذاتها. ما ذاك المقطع الذي قاله الشاعر إليوت؟ «إن دقيقة الوردة ودقيقة شجرة الصنوبر متساويتان».

قالت الآنسة ماريل: فهمت ما تقصدينه... الحياة تجربة مكتملة مهما كان طولها. ولكن آلا...

ترددت قليلاً ثم قالت: ألا ترين أن الحياة قد لا تكون مكتملة إذا ما قُطعت قبل أوانها؟

- بلى، هذا صحيح.

قالت الآنسة ماريل وهي تنظر إلى الأزهار بجانبها: كم هي جميلة أزهار الأقحوانيا هذه. إن فيها الكثير من الكبرياء رغم هشاشتها الجميلة.

التفتت إليزابيث تيميل إليها وقالت: هل جئت في هذه الرحلة لرؤية البيوت أم لرؤية الحدائق؟

- أظنني جئت لرؤية البيوت. سوف أستمتع بالحدائق أكثر لكن البيوت ستكون تجربة جديدة لي، بناؤها وتاريخها وهذا الأثاث القديم الجميل والصور الجميلة...

ثم أضافت تقول: إن صديقاً طيباً لي قد أهداني تذكرة هذه

الرحلة، ولها ذاكرة له كثيراً، فأنا لم أرَ كثيراً من البيوت المشهورة الكبيرة في حياتي من قبل.

- إنها لفكرة طيبة.

سألتها الأنسة ماريل: هل تسافرين في مثل هذه الرحلات لرؤية المناظر الطبيعية؟

- لا، هذه ليست رحلة لرؤية المناظر الطبيعية بالضبط بالنسبة لي.

نظرت إليها الأنسة ماريل باهتمام. كانت على وشك أن تتكلم لكنها أحجمت عن سؤالها، وابتسمت لها الأنسة تيمبل وقالت: إنك تتساءلين عن سبب وجودي هنا؛ ما هو دافعي أو غرضي. حسناً، لماذا لا تخمنين؟

- لا أحب التدخل بهذا الشكل.

- بل خمني، خمني... إن ذلك يسليني حقاً. هيا خمني.

سكتت الأنسة ماريل بضع لحظات. كانت تركز بصرها على إليزابيث تيمبل وتأملها في محاولة لتقييمها، ثم قالت: إن ما سألونه ليس مما أعرفه عنك أو مما قيل لي عنك. أعرف أنك شخصية مشهورة، وأن مدرستك مشهورة جداً. لا، سوف أعتمد بناء على ما يبدو عليك. إني... يمكن أن أصفك بأنك حاجة؛ إنك تذهبين مثل امرأة تحج إلى مكان مقدس.

قالت إليزابيث بعد صمت: هذا يصف الحال جيداً. نعم، أنا في رحلة حج.

قالت الأنسة ماريل بعد لحظات من الصمت: إن صديقي الذي أرسلني في هذه الرحلة ودفع كل النفقات ميت الآن. إنه السيد رافائيل، كان رجلاً غنياً جداً. هل تعرفينه؟

- جيسن رافائيل؟ أعرفه بالاسم بالطبع، لكني لم أعرفه شخصياً ولم أقابله أبداً. لقد قدم منحة كبيرة لأحد المشاريع العلمية التي كنت مهتمة بها، وكانت معادلة له كثيراً. لقد كان غنياً جداً كما قلت، وقد رأيت خبر نعيه في الصحف قبل بضع أسابيع. إذن فقد كان صديقاً قديماً لك؟

- لا، لقد التقيته قبل أكثر من سنة في الخارج، في جزر الهند الغربية. لم أعرف عنه الكثير أيضاً، لم أعرف شيئاً عن حياته أو عائلته أو أي من أصدقائه. كان مستشراً عظيماً ولكنه -كما يقول الناس- كان رجلاً كتوماً جداً فيما عدا ذلك، فيما يتعلق بشخصه. هل كنت تعرفين عائلته أو أحداً من...؟

سكتت الأنسة ماريل قليلاً، ثم قالت: لقد تساءلتُ كثيراً، ولكن المرء لا يحب طرح الكثير من الأسئلة والظهور بمظهر المتطفل.

سكتت إليزابيث قليلاً ثم قالت: عرفت فتاة ذات مرة، فتاة كانت تلميذة عندي في مدرستي فالوفيلد، لم تكن من أقارب السيد رافائيل الفعليين، لكنها كانت مخطوبة لابن السيد رافائيل ذات يوم.

- وهل تزوجا؟

- لا.

- ولم لا؟

- لأنها كانت فتاة عاقلة كما أظن، فهو لم يكن شاباً يمكن لشخص أن يرغب بتزويجه أبداً. كانت فتاة رائعة الجمال ومهذبة جداً، ولا أعرف لماذا لم تتزوجه. لم يخبرني أحدٌ عن ذلك أبداً.

تنهدت ثم أضافت: لقد ماتت على أية حال.

- وما هو سبب موتها؟

حدّقت الآنسة ليميل إلى أزهار الأقحوان لبعض الوقت، وعندما تكلمت نطقت بكلمة واحدة كان صداها كرنة جرس عميقة إلى حد يثير الدهشة. قالت: الحب.

كررت الآنسة ماربل الكلمة بحنق: الحب؟!

- إنها واحدة من أكثر الكلمات رعباً في هذه الدنيا.

كانت المرارة وظلال المأساة كامنين في صوتها وهي ترده: الحب!

* * *

الفصل السابع

دعوة

قررت الآنسة ماربل تجاهل رحلة بعد الظهر، واعترفت بأنها مرهقة وأنها ربما سيفوتها رؤية كنيسة قديمة يعود زجاجها إلى القرن الرابع عشر. قالت إنها ستستلقي قليلاً ثم تنضم إليهم في أحد المقاهي الموجودة في الشارع الرئيسي بعد أن أعطيت عنوانه، وكانت السيدة ساندبورن متفهمة للموقف فغادرتها.

جلست الآنسة ماربل على مقعد مريح خارج المقهى تفكر فيما تخطط للقيام به في الخطوة التالية، وفيما إذا كان من الحكمة القيام به أم لا.

عندما انضمت إليها الآخرون في المقهى كان من السهل عليها أن تجلس مع الآنسة كرك والآنسة بارو على طاولة مخصصة لأربعة أشخاص دون أن يبدو ذلك تطفلاً منها، وقد جلس على الكرسي الرابع السيد كاسبر الذي اعتبرته الآنسة ماربل متحدثاً غير ضجر في اللغة الإنكليزية، لذلك فإن وجوده لا يهم.

قالت الآنسة ماربل لمخاطب الآنسة كرك وهي تميل بجسدها

على الطاولة وتناول قليلاً من قطعة الكعك أمامها: أنا متأكدة تماماً أنا التقيا من قبل، كنت أتساءل وأتساءل عن ذلك... إنني لم أعد أستطيع تذكر الوجوه كثيراً لكني واثقة من أنني التقيت بك من قبل في مكان ما.

بدت الآنسة كوك وكأنها قد ارتابت، ونظرت إلى صديقتها الآنسة بارو، وكذلك فعلت الآنسة ماربل. لم تظهر الآنسة بارو أية بادرة للمساعدة في حل هذه المسألة، وأكملت الآنسة ماربل القول: لا أعرف إن كنت قد أقمت في المنطقة التي أعيش فيها أم لا. إنني أعيش في سينت ميري ميد، وهي قرية صغيرة جداً إنها ليست صغيرة جداً في هذه الأيام على أية حال فهناك الكثير من المباني تقام في كل مكان، وهي ليست بعيدة عن مشي بنهام ونيد التي عشر ميلاً فقط من ساحل لوماوث.

قالت الآنسة كوك: آه، دعيني أتذكر. إنني أعرف لوماوث جيداً، وربما...

فجأة صاحت الآنسة ماربل مسرورة: يا إلهي، بالطبع! كنت في حديقة بيتي ذات يوم في سينت ميري ميد وتحدثت أنت معي وأنت تمرين على الطريق خارج حديقتي. أذكر أنك قلت لي إنك ذاهبين هناك مع صديقة.

هتفت الآنسة كوك: بالطبع، يا لي من غبية! لقد تذكرت الآن، تكلمنا عن الصعوبة في العثور على بستاني يقوم بأعمال الحديقة هذه الأيام... أقصد أي بستاني يمكن أن يفيد بأي شيء.

- نعم، وأظن أنك لم تكوني تعيشين هناك بل كنت تقيمين مع أصدقاء؟

- بلى، كنت أقيم مع... مع...

ترددت الآنسة كوك وكأنها لا تعرف أو لا تتذكر الاسم. قالت الآنسة ماربل: مع سيدة تدعى سادرلاند؟

- لا، لا، كانت السيدة... السيدة...

قالت الآنسة بارو بغتة وهي تتناول قطعة من الكعك: هيستنغز.

قالت الآنسة ماربل: آه، نعم، كانت تسكن في واحد من تلك البيوت الجديدة.

قال السيد كاسبر على نحو غير متوقع: هيستنغز...

وابتسم ثم قال: لقد ذهبت إلى هيستنغز وذهبت إلى إيستبورن أيضاً جميلة جداً... قرب البحر.

قالت الآنسة ماربل: يا لها من مصادفة! أن نلتقي مرة أخرى بهذه السرعة... إنه عالم صغير، أليس كذلك؟

قالت الآنسة كوك بأسلوب غامض: آه، كلنا نحب الحدائق كثيراً.

قال السيد كاسبر: الأزهار جميلة جداً، أحبها كثيراً.

ثم ابتسم ثانية، وقالت الآنسة كوك: كثير من النباتات والشجيرات النادرة.

انخرطت الآنسة ماربل بكل قوة في حديث سريع ملخصتين عن الصداقة، فيما بادلتها الآنسة كوك الموضوعات ذاتها. أما الآنسة بارو فقد كانت تلقي بملاحظة عابرة من وقت لآخر، وظلّ السيد كاسبر صامتاً يبتسم.

بعد ذلك، وبينما كانت الآنسة ماربل ترتاح كعادتها قبل العشاء، بدأت تدرس ما جمعته من معلومات. لقد اعترفت الآنسة كوك بأنها كانت في سينت ميري ميد، وقد اعترفت بأنها مرّت أمام بيت الآنسة ماربل، واتفقت معها على أنها محض مصادفة. مصادفة؟

فكرت الآنسة ماربل بتأمل وهي تجذّب تلك الكلمة وتتلفظ بها. هل كانت مصادفة فعلاً، أم أن شيئاً دفعها للمجيء إلى هناك؟ هل أرسلها أحدٌ ما إلى هناك؟ ولماذا عساها تُرسَل إلى هناك؟ هل كان ذلك مجرد احتمال سخيف؟

قالت الآنسة ماربل تحدّث نفسها: إن أية مصادفة تستحق الملاحظة دائماً، ثم يمكنك أن تتجاهلها فيما بعد إذا اتضح أنها مجرد مصادفة لا غير.

بدت الآنسان كوك وبارو صديقتين عاديتين تماماً تقومان كل عام بمثل هذه الرحلة كما تقولان: سافرتا في رحلة إلى اليونان في العام الماضي وفي رحلة إلى غرناطة قبلها بعام وإلى أرلندا الشمالية قبل ذلك بعام... إنهما تبدوان سيدتين عاديتين تماماً ومحبوبتين، لكنها فكرت أن الآنسة كوك قد بدت وكأنها تودّ لو تكثر زيارتها لسينت ميري ميد، وقد نظرت إلى صديقتها الآنسة بارو وكأنها تبحث عن تعليمات حول ما ستقوله. كان واضحاً أن الآنسة بارو هي

الشريك الأقوى والمهيمن. وفكّرت الآنسة ماربل: ربما كانت أتخيل هذه الأشياء بالطبع، ربما لا تحمل أية دلالة أبداً.

فجأة تذكرت كلمة «خطر». لقد استخدمها السيد رافائيل في رسالته الأولى، وفي الرسالة الثانية كان يشير إلى احتمال حاجتها إلى حراسة الله. هل ستواجه الخطر في هذا الأمر؟ ولماذا؟ ومَن؟

ليس من الآنسة كوك أو الآنسة بارو بالتأكيد؛ فهما سيدتان عاديتان. ومع ذلك فقد صبغت الآنسة كوك شعرها وغيرت تسريحة شعرها، والواقع أنها تذكّرت بقدر استطاعتها، وأقل ما يقال عن ذلك أنه أمر غريب!

وفكرت مرة أخرى بزملائها المسافرين معها: السيد كاسبر، من السهل الآن أكثر من ذي قبل أن تتخيل أنه قد يكون خطيراً. هل تراه يفهم من الإنكليزية أكثر مما يظاهر أنه يفهمه؟ بدأت تتساءل عن أمر السيد كاسبر.

لم تنجح الآنسة ماربل أبداً في التخلي عن نظريتها الفيكتورية تجاه الأجانب. إن المرء لا يعرف حقيقة الأجانب. من السخافة أن نشعر بمثل ذلك الشعور بالطبع، فلديها الكثير من الأصدقاء من دول أجنبية مختلفة. ومع ذلك...

الآنسة كوك، الآنسة بارو، السيد كاسبر، ذلك الشاب ذو الشعر الأشعث، إيملين... توري غوستوي؟ السيد باكلر وزوجته، زوجان أمريكيان لطيفان، ولكن ربما كانا أكثر لطفاً من أن يكونا المرء؟ قالت الآنسة ماربل: الحقيقة أني يجب أن أستجمع قواي.

حولت انتباهها إلى دليل الرحلة، ورأت أن اليوم التالي سيكون

يوماً شاقاً. رحلة صباحية لرؤية المناظر الطبيعية سيراً في وقت مبكر، سير على الأقدام لمسافة طويلة على طريق ساحلي بعد الظهر، نباتات بحرية مثيرة... قد تكون مملة. وقد أُلحق بالبرنامج اقتراح لي: أي شخص يشعر أنه بحاجة إلى الراحة يمكنه البقاء في الفندق، «فيرادن بورد»، وهو ذو حديقة جميلة جداً، أو يمكنه القيام برحلة قصيرة تستغرق ساعة واحدة فقط إلى منطقة جميلة في مكان قريب من الفندق.

ورأت أنها ربما تفعل ذلك. ولكن لِمَ لا تخطط أن تغير قليلاً، وهو ما لم تكن تعرفه وقتها.

* * *

بينما نزلت الآنسة ماربل من غرفتها في فندق فيرادن بورد في اليوم التالي، وقد غسلت يديها استعداداً للغداء، تقدمت منها بشيء من الارتياك امرأة تلبس معطفاً صوفياً وتثرثر، وتكلمت معها: آرجو المعذرة، هل أنت الآنسة ماربل... الآنسة جين ماربل؟

رأت عليها الآنسة ماربل وقد فوجئت قليلاً: نعم، هذه أنا.

اسمي السيدة غلين، لافينيا غلين. إني أعيش مع أختين لي قريباً من هنا... وقد سمعنا أنك قادمة.

قالت الآنسة ماربل وقد فوجئت: سمعت أني قادمة؟

– نعم، كاتب إلينا صديقٌ قديم رسالة... آه، منذ وقت طويل، لا بد أن ذلك كان قبل ثلاثة أسابيع، لكنه طلب منا أن نسجل تاريخ اليوم، اليوم الذي تصل فيه رحلة هذه الشركة. قال إن إحدى صديقاته العظيمات أو... قريباته قادمة في الرحلة، لا أدري أيهما قال.

واصلت الآنسة ماربل إظهار دهشتها. قالت السيدة غلين: إني أتكلم عن شخص يدعى السيد رافائيل.

– آه، السيد رافائيل! هل... هل تعرفين أنه...

– أنه مات؟ نعم، إنه أمر محزن. بعد أن وصلت رسالته بوقت قليل فقط. أظن أنه مات بعد أن كتب لنا هذه الرسالة بوقت قصير، لكننا شعرنا بضرورة خاصة في أن نحاول القيام بما طلبه منا. لقد اقترح أن تأتي وتقيمي معنا لمدة ليلتين. إن هذا الجزء من الرحلة شاق ومتعب، أقصد أنه لا بأس به للشباب لكنه متعب لكبار السن، فهو يتضمن المشي لعدة أميال وفيه تسلق لمنحدرات صخرية صعبة... سنكون أنا وشقيقاتي مسرورات جداً إذا ما جئت وأقمت في بيتنا هنا، إنه يبعد عن الفندق مسافة عشر دقائق سيراً على الأقدام، وأنا واثقة أننا نستطيع أن نريك كثيراً من الأشياء المثيرة في المنطقة.

ترددت الآنسة ماربل قليلاً. لقد أعجبت بمظهر السيدة غلين، كانت ممتلئة الجسم ذات نظرات ودودة، وبدت طيبة مع طبع خجول بعض الشيء، وإلى جانب ذلك... فلا بد أن تعليمات السيد رافائيل تكمن هذا مرة أخرى. أتكون تلك هي الخطوة التالية أمامها؟ نعم، لا بد أن الأمر كذلك.

تساءلت لماذا شعرت بالارتياك. ربما لأنها بدأت تشعر الآن بالألفة مع زملائها في الرحلة وبأنها جزء من المجموعة، رغم أنها لا تعرفهم إلاّ منذ ثلاثة أيام فقط. التفتت إلى حيث كانت السيدة غلين تقف منتظرة بلهفة وقالت: شكراً لك، هذا لطف كبير منك. سأكون سعيدة جداً بزيارتكم.

* * *

الفصل الثامن

الأخوات الثلاث

وقفت الآنسة ماربل تنظر خارج النافذة وعلى السرير وراءها كانت حقيبتها. نظرت إلى الحديقة دون أن تراها، ولم يكن من عادتها أن تنظر إلى حديقة دون أن تراها، سواء أكان ذلك بعين المعجب أم بعين الناقد. وفي هذه الحالة كان من شأن الآنسة ماربل أن تنظر إلى هذه الحديقة بعين الناقد، فقد كانت حديقة مهملة، حديقة لم ينفق من الأموال عليها إلا مبلغ ضئيل منذ سنوات عديدة ولم يُنجز فيها إلا عمل قليل.

والبيت أيضاً كان مهملاً. كان بيتاً جيد التناسق ذا أثاث كان جيداً ذات مرة، ولكنه لم ينل في السنوات الأخيرة إلا القليل من العناية والاهتمام. ورأت أن البيت لم يلق في السنوات الأخيرة على الأقل - شيئاً من سكانه، ولكنه استطاع الاحتفاظ بمدلولات اسمه: «بيت العزبة القديم»... بيت يُبنى ويتناسل ومقدار من الجمال وعاش فيه أهله في وقت من الأوقات وأحبوه ورعوه، ثم تزوج الأولاد والبنات وتركوه، وتعيش فيه الآن السيدة غلين التي قالت عبارة تلفظت بها بلا وعي وهي ترافق الآنسة ماربل إلى غرفتها، قائلة إنها قد ورثته هي

وأخواتها من أحد أعمامها وجئن إلى هنا للعيش فيه مع أختهن بعد وفاة زوجها. وقد كبرن كلهن في العمر وتضاءلت مداخيلهن وأصبح توظيف أيد عاملة للبيت أكثر صعوبة.

ويبدو أن شقيقتيها بقيتا بلا زواج. كانت إحداهن أكبر من السيدة غلين والأخرى أصغر منها، وكلاهما تُدعيان باسم الآنسة ستوت. لم يكن في البيت شيء يخص طفلاً أو يدل على وجوده، لا كرة مطاط ولا عربة أطفال ولا كرسي صغير... كان مجرد بيت ذي ثلاث أخوات.

همست الآنسة ماربل تحدث نفسها: "يبدو ذلك روسياً جداً". لماذا كانت تقصد قصة «الأخوات الثلاث». أكانت من أعمال تشيخوف؟ أم أنه ديستوفسكي؟ لم تستطع أن تتذكر أيهما. أخواتٌ ثلاث... لكن هؤلاء، بالتأكيد لسن على شاكلة الأخوات الثلاث المستعدات على الذهاب إلى موسكو، كانت شبه واثقة من أن هؤلاء الأخوات الثلاث قانعات بالبقاء حيث هن. لقد قدمتها صديقتها إلى أعضاء مجلس إعداديا من المطبخ، فيما تراءت الثانية الفرح لرؤيتها بها. كانتا مهذبتين ولطيفتين وبدل سلوكهما على تربية جيدة، ورأت أنهن من تلك الفئة التي تراجعت مكانتها الاجتماعية منذ انحطاط والد الآنسة ماربل فذهبن أن يطلق عليهن اسم «السيدات الباقيات».

إلا أن السيدات هذه الأيام لم يعدن باقيات، إنهن يتلقين المساعدات من الحكومة أو من الجمعيات أو من قريب غني، أو ربما من شخص مثل السيد راغليل. ألم يكن ذلك «في نهاية الأمر» هو المغزى والسبب في وجودها هنا في هذا البيت؟ لقد رتب السيد راغليل كل هذا، لقد تجشم عناء هذا كله. كان يُفترض أنه قد عرف

- قبل هذا أسابيع- الموعد المحتمل لولادة، مع السماح بهامش خطأ بسيط!

السيد رافائيل. كان هذا هو الشخص الذي كانت الآنسة ماريل تفكر فيه وهي تنظر إلى الجديلة بجانبي شارلين. السيد رافائيل؟ أحست الآن أنها تقترب قليلاً من فهم المهمة التي أوكلت بها، أو المشروع الذي أقرع عليها. كان السيد رافائيل رجلاً يجمع الخطط، يضعها الطريقة ذاتها التي كان يخطط فيها لعمل الصفقات المالية. وكما تقول عادتها شيري فإنه كان يعاني من مشكلة، وعندما كانت شيري تواجه مشكلة كانت تأتي وتستشير الآنسة ماريل بخصوصها.

كانت هذه مشكلة لم يستطع السيد رافائيل معالجتها بنفسه، وهو ما أزعجه كثيراً لدرجة دفعت الآنسة ماريل، لأنه كان يستطيع معالجة مشكلاته بنفسه في العادة وكان يعتز على ذلك... لكنه كان طريح الفراش يحتضر. كان يستطيع تدبير أموره المالية والاتصال بمحاميه ومرتقبه وأصدقائه وأقاربه، ولكن كان هناك شيء أو شخص لم يستطع تدبره؛ مشكلة لم يحلها، مشكلة ما زالت بحاجة إلى حل، مشروع يريد تنفيذه... وواضح أنها لم تكن مشكلة يمكن تسويتها بواسطة المال أو بصفقات عمل أو بخدمات يقدمها له السحابي. قالت الآنسة ماريل: لذلك فكر في.

ما زال ذلك يدهشها كثيراً، كثيراً جداً. ومع ذلك فإن رسالته بالمعنى الذي تفكر فيه الآن- كانت واضحة تماماً. لقد فكر بأنها تمتلك مؤهلات معينة لعمل شيء معين، وفكرت مرة أخرى بأن ذلك علاقة بالجرائم أو بما يمكن أن ينتج عن الجرائم، إذ إن الشيء الأخر الوحيد الذي كان يعرفه عن الآنسة ماريل هو أنها كانت تحب

الـ... ان، ولا يمكن أن يكون قد أراد منها حل مشكلة تتعلق بحديقة! لا، يمكن أن يفكر فيها إذا تعلق الأمر بعالم الجريمة، جريمة في... الهند الغربية وجرائم في منطقتها نفسها. جريمة... أين؟

لقد قام السيد رافائيل بعمل ترتيبات، ترتيبات مع محاميه أولاً، ... قام محاميه بإدارته بعد فترة محددة من الزمن أرسل لها السحابي ... ة، ورأت أنها كانت رسالة مدروسة تماماً. وربما كان من الأبسط (الأرجح- أن يحررها بالضبط ما الذي أراد منها أن تفعله وتماماً. لقد اعتنتها أنه لم يعتمد قبل وفاته إلى الإرسال في طلبها بالحاح ادراه ... على فراش موته ليحررها على الإذعان لما يطلبه منها، ولكنها ... درت بأن السيد رافائيل لم يكن ليتصرف بهذا الأسلوب. فبخروج ان يوسعه أن يضغط على الناس، ولكن هذه القضية لم تكن قضية ... ضغط، كما أنها واثقة من أنه لم يرد أن يتوسل إليها أو يناشدها قبيل ... وف من الجلد أو أن يصلح خطأ ما. لا، هذا أيضاً ليس من أسلوب السيد رافائيل. لقد رأت أنه أراد -كما هي عادته- أن يدفع ثمن ما يطلب من خدمة، لقد أراد أن يدفع لها ولذلك أراد أن يثير اهتمامها إلى درجة تجعلها تستمتع بذلك العمل المطلوب، لقد قام لها المبلغ الذي يأمر اهتمامها وليس من أجل إغرائها. لم تزل لا تفكر بأن هذا المبلغ سيجعلها تفكر فرحاً لأنها لم تكن بحاجة ماسة إلى المال؛ فإن لها ابن أخ كانت عزيزة عليه ويحبها وكان مستعداً الآن بدفع لها ما تطلبه من مال عند الحاجة، إن أرادت إصلاح بيتها أو زيارة طبيب أو قضاء شيء خاصة مثلاً. كان ريموند يعطيها ما تحتاجه دائماً. نعم، إن المبلغ الذي عرضه عليها كان يقصد إثارتها، كان مبلغاً كبيراً من المال لا يمكنك أن تحصل عليه إلا عن طريق الخط.

ولكن مع ذلك... فكرت الآنسة ماريل في نفسها بأنها ستحتاج

إلى بعض الحظ إضافة إلى العمل الجاد، وستحتاج إلى كثير من التفكير والتأمل، وربما القوى ما تفعله على بعض الخطر. ولكن كان عليها أن تكتشف بنفسها فحوى هذا الأمر كله، فهو لم يُرِدْ إخبارها، ربما لأنه لم يُرِد التأثير على تفكيرها؛ فمن الصعب أن تخبر شخصاً بشيء دون أن تفصح منك -دون إرادة- وجهة نظرك حول هذا الأمر. ربما ظن السيد راقابل أن وجهة نظره قد تكون خطأ. لم يكن من طبيعته أن يفكر مثل هذا التفكير، ولكنه أمر محتمل. ربما شك في أن حكمه -وقد أضعفه المرض- لم يعد جيداً كما كان؛ لذلك عليها هي الآنسة ماربل، وكيلته أو موظفته، أن تختبر وحدها وتصل إلى النتائج بنفسها. حسناً، لقد حان الوقت لأن تصل إلى بعض النتائج؛ أي أن عليها أن تعود إلى السؤال القديم: علام يدور هذا الأمر كله؟

لقد أعطيت لها توجيهات، فلتأخذ ذلك بعين الاعتبار بداية. لقد أعطاها التوجيهات رجلٌ هو الآن في عداد الأموات، لقد أُعطيت توجيهات لتخرج من بيت ميري بيد، لذلك فإن المهمة -مهما تكن- لا يمكن البدء بها من هناك. لم تكن مشكلة قريبة منها ولم تكن مشكلة يمكن حلها بمطالعة قصاصات الصحف أو عمل تحليلات إلا إذا عرفت السبب الذي تريد عمل التحقيقات من أجله. لقد أُعطيت توجيهات، أولاً أن تذهب إلى مكتب المحامي ثم لتقرأ رسالة... بل رسالتين... في بيتها، ثم لكي تذهب في رحلة جميلة مدروسة يقوم بها مكتب سفريات.

ومن هناك وصلت إلى الخطوة التالية وهو البيت الذي هي فيه الآن في جورجين بيندت ميري، حيث تعيش السيدة غلين والآنسة كلوتيلد سكوت والآنسة آنيا سكوت. لقد رتّب السيد راقابل هذا، ربما مسبقاً قبل أسابيع من وفاته. ربما كان ذلك هو الشيء التالي

الذي فعله بعد التوجيهات التي أعطاها لمحاميه وبعد أن حجز باسمها مقعداً في الرحلة، لذلك فهي موجودة في هذا البيت لغرض محدد. ربما كان ذلك للبلشن فقط وربما كان أكثر، قد تكون هناك أمور معينة تم ترتيبها يمكن أن تدفعها إلى البقاء مدة أطول أو قد يُطلب منها أن تمكث مدة أطول...

وأعادها ذلك التفكير إلى حيث تقف الآن. السيدة غلين وشقيقتاها: لا بد أنهن معتزلات بهذه القرية، سيتعين عليها اكتشاف حقيقة هذا الأمر. الوقت قصير، هذه هي المشكلة الوحيدة. لم يساور الآنسة ماربل أدنى شك في قدرتها على اكتشاف الأمور؛ إنها واحدة من هؤلاء السيدات العجائز المحبات للقيل والقال واللاتي يقرع منهن الآخرون أن يتحدثن كثيراً ويوجهن أسئلة تُعتبر من حيث الظاهر مجرد أسئلة من سيدة عجوز ثرثارة. يمكنها أن تتحدث عن طفولتها فيدفع ذلك واحدة من الأخوات الثلاث لأن تتحدث عن طفولتها هي الأخرى. يمكنها أن تتحدث عن الطعام الذي أكلته والخدم الذين عملوا عندها، عن البنات والأقارب، وعن السفر والزيجات والمواليد و... نعم، عن الوفيات. عليها أن لا تُظهر أي اهتمام خاص عندما تسمع شيئاً عن حادث وفاة مثلاً، يجب أن تكون أجوبتها عفوية وتلقائية، يجب عليها أن تكتشف القرابات والحوادث والشير الحياتية، وترى إذ كان هناك أي حادث له دلالة معينة. قد يكون حادثاً في الجوار غير مرتبط بهؤلاء السيدات الثلاث مباشرة، شيء يمكن أن يعرفن عنه وأن يتحدثن عنه.

على أية حال لا بد من وجود شيء ما هناك، مفتاح لغز معين، مؤشر معين. بعد يومين من الآن ستعود لتقسم إلى زملائها في

الرحلة، إلاّ إذا حصلت خلال هذه الفترة على مؤشر معين يطلب منها أن لا تعود لمتابعة الرحلة.

أسباب تذكيرها من البيت إلى الحافلة والركاب الجالسين فيها: قد يكون ما تبحث عنه موجوداً هناك في الحافلة، وسيكون هناك مرة أخرى عندما تعود إليها. شخص واحد، عدة أشخاص، بعض الأحياء أو بعض من ليسوا أحياء تماماً، قصة تعود بتاريخها إلى الماضي البعيد... قطبت جبينها قليلاً محاولة أن تتذكر شيئاً، شيئاً لمع في ذهنها جعلها تفكر وتقول في نفسها: أجلْ أني متأكدة... متأكدة من ماذا؟

عادت بتفكيرها إلى الأخوات الثلاث: يجب أن لا يبقى في غرفتها هذه طويلاً. يجب أن تُخرج بعض حاجياتها المتواضعة من حقيبتها والتي تلزمها للقضاء ليلتين، شيئاً تُغيّر به ثيابها لهذه الأمسية وتأخذ النوم وتفرغ حقيبتها الصغيرة ثم تنزل وتنضم إلى مضيفاتها للتحدث معهن حديثاً لبقاً. ثمة نقطة رئيسية يجب حسمها: هل أُريد للأخوات الثلاث أن يكنّ صديقات لها أم عدوّات؟ كلا الاحتمالين وارد، ويجب أن تفكر في هذا الأمر بحذر.

سمعت دقات على الباب، ثم دخلت السيدة غلين وقالت: أرجو أن تكوني مرتاحة تماماً هنا. هل أساعدك في ترتيب حقيبتك؟ عندنا امرأة لطيفة جداً تخدمنا في البيت كانت تأتي إلى هنا في الصباح فقط، سوف تساعدك في كل شيء.

قالت الآنسة ماربل: آه، لا، شكراً لك. لقد أخرجت فقط بعض الأشياء الضرورية.

– يجب أن أريك الطريق الذي يتزلك إلى الطابق الأرضي مرة أخرى، إنه بيت متداع، ويوجد درجان منا يجعل الأمر صعباً بعض الشيء، فأحياناً يضيع الناس فيه.

– آه، هذا لطف منك.

– أرجو أن تنزلي لتناول الشاي معنا قبل الغداء.

قبلت الآنسة ماربل العرض بامتنان وتبعت مضيفتها، ونزلتا الدرج. رأت أن السيدة غلين تصغرها كثيراً، ربما كانت في الخمسين من عمرها ولا تزيد عن ذلك كثيراً.

تغلبت الآنسة ماربل على عقبة نزول الدرج بحذر، فركبتها اليسرى تسبب لها الألم دائماً. وقد كان على أحد جانبي الدرج درابزين، كان درجاً جميلاً. وعلّقت قائلة: إنه بيت جميل جداً بالفعل. أظن أنه بُني في القرن الثامن عشر. هل هذا صحيح؟

قالت السيدة غلين: في عام ١٧٨٠.

بدت مسرورة من إعجاب الآنسة ماربل. أخذتها إلى غرفة الاستقبال، وكانت غرفة كبيرة جميلة فيها بعض قطع الأثاث الجميلة من نوعيات جيدة، أما الستائر فكانت من القطن وذات ألوان باهتة وبالية إلى حد ما. أما السجاد فلاحظت الآنسة ماربل أنه أيرلندي، وكانت الأريكة ثقيلة جداً والمخمل الذي يكسوها بالياً تماماً.

كانت أمنا السيدة غلين جالسين في الغرفة، وقد نهضتا لتحية الآنسة ماربل. إحداهما كانت تحمل فنجاناً من الشاي والأخرى كانت تشير إليها بالجلوس على أحد الكراسي. قالت: لا أدري إن كنت

تفضلين الجلوس على كرسي مرتفع؟ كثير من الناس يحبون ذلك.

قالت الآنسة ماربل: أحب ذلك، فهو أسهل بكثير. إذ ظهري ليس على ما يرام.

بدا أن الأخوات الثلاث يعرفن عن الأم الظهر الكثير. كانت كيراهن امرأة طويلة القامة وسيمة سمراء البشرة سوداء الشعر. أما الأخرى فهي أصغر منها كثيراً، وكانت نحيلة ذات شعر أشيب. كان أشقر فيما مضى وقد تدلى على كتفيها دون نظام، وبدا في مظهرها العام ما يكاد يذكّر المرء بشكل شبح.

ورأت الآنسة ماربل أنها تصلح تماماً لدور أوفيليا فيما لو أتيح لأوفيليا شكسبير أن تعمر طويلاً. أما الأخت الأخرى، كلوتيلد، فقد رأت الآنسة ماربل أنها ليست مثل أوفيليا بالتأكيد، بل إنها ربما كانت لتنجح تماماً في دور الليدي ماكبث؛ إذ كان من شأنها أن تطعن زوجها وهو في حمّامه متهللة فرحة. ولكن بما أنها لم تتزوج أبداً فإن هذا التشبيه لا يقنع.

كلوتيلد، آنيا، لافينيا... كانت كلوتيلد وسيمة جذابة، ولافينيا دميمة ولكنها لم تسر الناظر إليها. أما آنيا فكان أحد حفيديها يرتعش من وقت لآخر. كانت عيناها كبيرتين رماديتين وكانت لها طريقة غريبة في النظر حولها بسرعة ثم شمالاً، ثم تنظر فجأة وبطريقة غريبة إلى الوراء وكأنها تشعر بأن شخصاً يراقبها طوال الوقت. رأت الآنسة ماربل ذلك غريباً واختارت قليلاً في أمر آنيا.

جلس الجميع ودار الحديث، ثم غادرت السيدة غلين الغرفة، كان واضحاً أنها ذاهبة إلى المطبخ وبدا أنها أنشطهن في الواجبات

المنزلية. اتخذ الحديث المسار المعتاد، فشرحت كلوتيلد بأن البيت كان للعائلة، كان ملكاً لعم أبيها ثم لعمها، وعندما مات تركه لها ولأختيها اللتين انضمتا إليها هنا. ثم مضت الآنسة ماكونت تقول: كان له ابن واحد وقد قُتل في الحرب، ونحن -في الحقيقة- أكبر من يلي من العائلة على قيد الحياة ما عدا بعض الأقارب البعيدين جداً.

قالت الآنسة ماربل: إنه بيت جميل التناسق، وقد أخبرتني أحداك أنه بُني في عام ١٧٨٠ تقريباً.

- نعم، أظن ذلك. ولكن المرء ينسى لو لم يكن كبيراً ومتقدماً إلى هذا الحد.

قالت الآنسة ماربل: كما أن الإصلاحات تكلّف كثيراً هذه الأيام.

رمقت عليها كلوتيلد وهي تتنهد: نعم، بالفعل. كان علينا أن نترك كثيراً من أجزاء البيت تتداعى وتتساقط. أتعنين المباني الخارجية التابعة لهذا البيت، كالإسطبلات الزجاجي على سبيل المثال... لقد كان لدينا بيتُ نباتٍ زجاجي كبير وجميل جداً.

قالت آنيا: وكانت فيه دالية عنب مسكية رائعة، كما أن الفتيان كانوا يتسورون فيتطلق الجذرات من الداخل. نعم، إنني أسفتُ على ذلك كثيراً. لم نستطع إحضار أي بستاني للعمل عندنا في أثناء الحرب بالطبع. كان لدينا بستاني شاب ثم استُدعي للخدمة العسكرية. نحن لا نكترث هذا بالطبع، ولكن كان من المستحيل إصلاح الأمور بعد ذهابه، وهكذا تلف البيت الزجاجي كله وتساقط.

- وهذا ما حدث مع بيت الخزين الصغير قرب البيت أيضاً.

تهدت الشقيقتان كثيراً مع مرور الزمن وتغيراته، تلك التغيرات التي لم تكن إلى الأفضل. ولاحظت الآنسة ماريل أن ثمة قلة تخيم على هذا البيت، كانت كآبة مشوبة بالحزن... الحزن الذي لم يكن من السهل التخلص منه أو انتزاعه لأن جذوره أصبحت عميقة جداً. لقد غارت جذوره عميقاً.

وارتعشت الآنسة ماريل قليلاً.

* * *

الفصل التاسع

عصا الراعي

كانت الوجبة تقليدية: قطعة صغيرة من لحم الضأن والبطاطا المشوية تبعها قطعة من كعكة الخوخ وبعض القطائر العادية. كانت بعض الرسومات معلقة على جدران غرفة الطعام، واقترحت الآنسة ماريل أنها تمثل صور أفراد من العائلة. وكانت رسومات تعود إلى العصر الفكتوري ولا تحمل قيمة فنية ذات شأن. وكانت الستائر قرمزية داكنة، وكان يمكن أن يجلس إلى الطاولة الكبيرة المصنوعة من خشب الماهوغاني الأحمر عشرة أشخاص.

تحدثت الآنسة ماريل عن الأحداث التي عاشتها في رحلتها الحالية. وحيث إنه لم يمض على هذه الرحلة إلا ثلاثة أيام فقط فلم يكن لديها الكثير مما يقال.

قالت الآنسة ستيوارت الكبرى: أظن أن السيد راشيل كان صديقاً قديماً لك؟

قالت الآنسة ماريل: ليس كذلك في الحقيقة. لقد التقيته أول

مرة عندما كنت في رحلة إلى جزر الهند الغربية، وكان موجوداً هناك للعلاج والنقاهة حسب ظني.

قالت آنيا: نعم، كان ذلك منذ سنوات.

قالت الآنسة ماربل: أمر محزن جداً، محزن بالفعل. كانت معجبة بجليد، فقد بدا قادراً على عمل كثير من الأشياء. كان يملي رسائله على سكرتيره كل يوم ويرسل البرقيات باستمرار، ولم يدّ مستسلماً لمرضه أبداً.

قالت آنيا: نعم، لم يكن ليستسلم.

قالت السيدة طيلر: لم نره كثيراً في السنوات الأخيرة، فقد كان كثير المشاغل، ولكنه كان يذاكرنا دائماً في أعياد الميلاد.

سألتها آنيا: هل تعيشين في لندن يا آنسة ماربل؟

- لا، بل أعيش في الريف، في قرية صغيرة جداً في منتصف الطريق بين لوماوث وماركت بيستج، وهي تبعد عن لندن نحو خمسة وعشرين ميلاً. كانت قرية جميلة تذكر المرء بالعالم القديم، ولكنها كغيرها من الأشياء، صارت تشبه الآن ما يسمونه «المناطق المطوّرة».

ثم أضافت تقول: أظن أن السيد راغليل كان يعيش في لندن؟ لاحظت على الأقل أنه كان يستقل في سجلّ فندق سيسيل عنوان منزله في إيتون سكوير، أم أنها بلغريف سكوير؟

قالت كلوتيلد: كان له بيت ريفي في كنت، وأظن أنه اعتاد على الاستجمام هناك في بعض الأحيان مع أصدقاء العمل أو مع أناس من

الخارج. لا أظن أن أي واحد منا قد زاره هناك أبداً، كان يستضيفنا في لندن دائماً، في المناسبات النادرة التي كنا نصادفه بها.

قالت الآنسة ماربل: كان لطفاً بالغاً منه أن يقترح عليكن دعوتي إلى هنا في أثناء هذه الرحلة. كانت لفتة كريمة منه، فما كان المرء ليتوقع من رجل مشغول مثله التفكير بمثل هذه اللفتة اللطيفة.

- لقد دعونا قبلك أصدقاء له مشتركين في هذه الرحلات. أنهم يراعون قدرات المشاركين وأذواقهم عندما يرتّبون مثل هذه الرحلات، رغم أنه من المستحيل مراعاة أذواق الجميع بالطبع. الشباب يحبون المشي والقيام برحلات طويلة وصعود المرتفعات لرؤية المناظر، أما الكبار الذين لا يستطيعون ذلك فيلعبون في الفنادق. لكن الفنادق هنا ليست فخمة أبداً. أنا واثقة من أنك كنت ستستمتعين برحلة اليوم ورحلة الغد إلى سيت بوناليستر، ستعجبين جداً، أظن أن في الغد زيارة لإحدى الجزر على متن قارب، وهي رحلة قاسية أحياناً.

قالت السيدة طيلر: حتى التجول لرؤية البيوت قد يكون متعباً.

قالت الآنسة ماربل: آه، نعم، مشي كثير ووقوف... أمر يتعب القدمين. ما كان يعجب أن أبي في مثل هذه الرحلات، لكن ما أعزائي بالمجمل، هو رؤية المباني الأثرية والمنازل النبيلة والأثاث القديم، وبعض اللوحات الرائعة بالطبع.

قالت آنيا: والحدائق... أنت تحبين الحدائق، أليس كذلك؟

- بلى، ومن الوصف المتعلق في النشرة الخاصة بالرحلة

فإنني أتطلع حقاً لرؤية بعض حدائق البيوت التاريخية الجميلة التي سنزورها.

ثم نظرت حولها إلى الطاولة وهي تبتسم. كان كل شيء طبيعياً جداً ويبعث على السرور، ومع ذلك تساءلت لماذا تشعر بشيء من التوتر؟ إحساس بوجود شيء غير طبيعي في هذا المكان. ولكن ماذا تقصد بقولها غير طبيعي؟ فالحديث كان عادياً معظمه كلام مكرر، هي نفسها كانت تقول عبارات عادية تقليدية، وكذلك الأخوات الثلاث.

«الأخوات الثلاث»... فكرت الآنسة ماربل مرة أخرى في تلك العبارة. لماذا كانتا فكرتا في شيء من ثلاث وحدات أوحى إليها ذلك بجو من السّحر؟ الساحرات الثلاث في مسرحية ماكبث... مع أنه لا يمكن مقارنة هؤلاء الأخوات الثلاث بالساحرات الثلاث. رغم أن الآنسة ماربل قد رأت دائماً أن مُنتجي المسرحيات أخطؤوا في الطريقة التي أظهروا فيها الساحرات الثلاث. بل إنها شاهدت إخراجاً للمسرحية كان في غاية السخف، حيث بدت الساحرات وكأنهن مخلوقات تتخاطب بالإيماء، بأجنحة ترفرف وقبعات أسطوانية غريبة تافهة.

وتذكرت الآنسة ماربل قولها لابن أخيها الذين دعته آنذاك إلى تلك الوليمة التيكسبرية: أتعرف يا عزيزي ريموند؟ لو قُدّر لي أن أقوم أنا بإخراج هذه المسرحية الزائفة لجعلت هؤلاء الساحرات الثلاث مختلفات تماماً. كنت سأجعلهن عجائز عاديات طبيعيات، لكن سيظل بعضهن إلى بعض نظرات ماكرة، وكنت سأشعر بنوع من الخطر الكامن خلف مظهرهن الطبيعي هذا.

أكلت الآنسة ماربل آخر لقمة من كعكة الخوخ ونظرت أمامها حيث تجلس أنثيا امرأة عادية غير مرئية يلفّها الغموض، مع شيء من التشوش. لماذا يمكن أن تشعر بأن أنثيا امرأة شريرة؟ قالت الآنسة ماربل في نفسها: إنني أتخيل أشياء، يجب أن لا أفعل ذلك.

وبعد الغداء أخذتها أنثيا في جولة في الحديقة. أحست الآنسة ماربل أنها حديقة تبعث على الأسف، فقد كانت موضع عناية واهتمام ذات يوم، رغم أنها لم تكن بالغة التنظيم والتميز. كانت هناك مقومات الحديقة العادية للعصر الفكتوري: منطقة مخصصة للشجيرات وطريق من بلاطات الحجر المرقطة، ولا شك أنه كان هناك ذات مرة مرجة وممرات معتنى بها جيداً وحديقة مطبخ واسعة، وأصبح لها كبيرة جداً على ثلاث أخوات يعشن هنا الآن. وقد تُرك جزء منها غير مزروع فنبتت فيه الأعشاب الضارة، وغطت شجيرات طفيلية معظم مساكب الورد... ولم تكد الآنسة ماربل تستطيع السيطرة على مديها الذين كانا تواقين للإمساك بتلك النباتات الضارة واقتلاعها.

تطاير شعر الآنسة أنثيا في الريح فسقط دون شعرها على السّمر أو العشب من وقت لآخر، وتكلمت بأسلوب متقطع نزق بعض الشيء: أظن أن لديك حديقة جميلة جداً في بيتك؟

قالت الآنسة ماربل: آه، إنها صغيرة جداً.

كانا قد وصلا إلى ممر مكسو بالعشب ووقفتا أمام كومة تراب عند أحد المنحدرات في نهاية الممر. قالت الآنسة أنثيا حزينة: هذا كان بيت النبات الزجاجي.

- آه، نعم، حيث كنتم تزرعون دالية العنب؟

– ثلاث دالیات، واحدة كانت تحمل عنباً أسود وواحدة تحمل عنباً أبيض صغيراً حلواً جداً، والثالثة دالية مسكية.

– ودوّار الشمس أيضاً كما قلت لي من قبل؟

– بل القرّيص.

– آه، نعم، إنه طيب الرائحة بالفعل. هل سقطت أية قذيفة هنا؟ هل هي التي... دمرت البيت الزجاجي؟

– لا، لم نواجهها مشكلات تُذكر، فهذه المنطقة لم تصلها القنابل في أثناء الحرب. لا، لقد سقط بسبب الجفاف والإهمال. إننا لم نأت إلى هنا منذ وقت طويل وليس لدينا المال لإصلاحه أو بنائه ثانية، والواقع أن بناءه لن يفيد لأننا لن نستطيع المحافظة عليه. أعني أننا قد تركناه يسقط، فلم يكن بوسعنا عمل أي شيء آخر. وكما ترين فقد نما العشب عليه.

– آه، لقد عطاء ذلك الـ... ما هي هذه النبتة الزاحفة التي تودّين أن تزهر؟

– نعم، إنها شائعة جداً. ماذا يسمونها؟ لا أعرف ما اسمها بالضبط.

– أظن أني أعرف الاسم، إنها نبتة «عصا الراعي». أظن أنها سريعة النمو، أليس كذلك؟ وأظن أنها مفيدة جداً إذا أراد المرء أن يخلي تحتها بناء آيلاً للسقوط أو أي شيء قبيح غيره.

كانت كومة التراب أمامها مغطاة بطبقة سميكة من أوراق تلك النبتة المزهرة بأزهار بيضاء، وكانت الآنسة ماربل تعرف تماماً أن هذه النبتة تخطر على أي شيء آخر يُزاد زرعه، فنباتات عصا الراعي تخطى كل شيء، وهي تغطيه في وقت قصير جداً. قالت: لا بد أن بيت النبات الزجاجي كان كبير الحجم.

– آه، نعم، وكنا نزرع فيه الخوخ والمشمش أيضاً.

بدت آنيا يائسة، وقالت الآنسة ماربل بلهجة مواسية: تبدو جميلة جداً الآن. هذه الأزهار البيضاء جميلة جداً. أليس كذلك؟

– هناك شجرة ماغنوليا جميلة إلى يسار هذا الممر، وأحسب أنه كانت هنا قديماً سكة من الشجيرات جميلة جداً. ولكن المرء لا يستطيع المحافظة عليها أيضاً. أمر صعب جداً، كل شيء صعب جداً. لم يبقَ شيء على حاله، كل شيء فسد... في كل مكان.

ثم قادت ضيفتها إلى الممر على اليمين بسرعة. كان الممر على طول جدار جانبي، وازدادت خطواتها سرعة حتى لم تكد الآنسة ماربل تستطيع مجاراتها. بدا للآنسة ماربل كما لو أن مضيفتها كانت تعتمد إبعادها عن تلك الكومة المزروعة بعصا الراعي، وكأنها تريد إبعادها عن مكان قبيح أو كريه. هل أحست بالخجل لأن الأمجاد السابقة لم تعد قائمة؟ إن نباتات عصا الراعي قد تُركت لتنمو بإهمال كبير حتى إنها لم تُقلّم أو يُهذّب نموها عند حد معقول، مما جعل ذلك الجزء من الحديقة أشبه بأرض عامة لا بد تتدخل بشأنها.

لقد كادت تبدو كمن يهرب من ذلك المكان، هذا ما أحست الآنسة ماربل وهي تلحق بها. وسرعان ما لفتت انتباهها زريبة قديمة كانت تحظى بها بعض الورود المتسلقة. وأوضحت آنيا قائلة: كان عم والدي يربي بعض الخنازير، ولكننا لا نفكر بمثل هذا الأمر في

هذه الأيام بالطبع، فهي تثير الاشمئزاز. لديّ بعض ورود الفلوريبندا قرب البيت، وأعتقد أنها تشكل هزءاً رائعاً في الشتاء.

- آه، أعرف.

ثم ذكرت أسماء بعض الورود، وشعرت بأن هذه الأسماء كلها كانت غريبة تماماً على الآنسة أنثيا.

- هل تأتين في مثل هذه الرحلات كثيراً؟

جاء السؤال فجأة، فقالت الآنسة ماربل: هل تقصدين الرحلات للاطلاع على البيوت والحدائق؟

- نعم، بعض الناس يأتون في هذه الرحلات كل عام.

- آه، لا أستطيع ذلك، فهي مكلفة جداً. لقد قدّم لي صديقٌ هذه التذكرة هدية للاحتفال بعيد ميلادي، إنه كريم جداً.

- آه، لقد تساءلت... تساءلت عن سبب قدومك. أقصد أنها رحلة متعبة، أليس كذلك؟ ولكن إن كنت معتاداً على الذهاب إلى جزر الهند الغربية وأماكن كهذه...

- آه، إن رحلة جزر الهند الغربية تلك كانت مكرمة تبرعت لي بها الأخرى، وفي تلك المرة قدمها لي ابن أخي، ولد عزيز، وكانت هدية رائعة جداً يقدمها لعمته العجوز.

- آه، فهمت، فهمت.

- لا أعرف ماذا يمكننا أن نفعل من غير الشباب! إنهم يالغو للطف والعطف، أليس كذلك؟

- أظن... أظن ذلك. لا أدري حقاً، فليس... ليس لديّ أقارب من الشباب.

- هل لا تحبك السيدة غلين أي لولاد؟ إنها لم تذكر ذلك، ولا يرتب المرء يطرح مثل هذا السؤال.

- لا، فهي لم ترزق بأي طفل من زوجها، وربما كان ذلك أفضل.

تمتمت الآنسة ماربل وهما عائدتان إلى البيت وقالت في نفسها: ماذا تقصد بهذا؟

* * *

الفصل العاشر

الأيام الماضية الحلوة

في الساعة الثامنة والنصف من صباح اليوم التالي سمعت الآنسة ماربل دقات خفيفة على باب غرفتها. طلبت من الطارق أن يدخل، فتح الباب ودخلت امرأة مسنة وهي تحمل صينية عليها إبريق شاي وفنجان وإبريق حليب وصحن صغير فيه خبز وزبدة. وقالت مبتهجة شاي الصباح يا سيدتي. إنه يوم جميل، أرى أنك قد نمت السائر. هل نمت جيداً إذن؟

قالت الآنسة ماربل وهي تصب كأساً صغيراً كانت تقرأ منه جانباً: لقد نمت جيداً وله الحمد.

- إنه يوم رائع، وسوف يأسيهم ذلك في ذهابهم إلى صخور بونفيشنر. ولكن من الجيد أنك لم تذهبي معهم، فهي رحلة تتعب المسافرين.

قالت الآنسة ماربل: أنا سعيدة جداً بوجودي هنا، جميل جداً من الآنسين سكوت والسيدة غلين أن يفكرن لي هذه الدعوة.

- هذا جميل لهن أيضاً، فإن هناك ما يبهجهن أن يجدن رفقة معهن في المنزل. إنه بيت كئيب في هذه الأيام.

فتحت الستائر أكثر ووضعت بكرسي إلى الوراء، ووضعت علبة من الماء الساخن في الحوض الصيني ثم قالت: يوجد حمام في الطابق العلوي ولكننا نرى أن من الأفضل لأي شخص كبير في السن أن يكون الماء الساخن عنده هنا حتى لا يضطر إلى صعود الدرج.

- إنه لطف كبير منك. هل تعرفين هذا البيت جيداً؟

- إنني أعمل هنا منذ أن كنت فتاة... كنت وقتها خادمة المنزل. كان لديهم ثلاثة من الخدم، طاهية وخادمة منزل وخادمة استقبال، وخادمة مطبخ أيضاً في وقت ما. كان ذلك في زمن الكولونيل المجوز، وكان يربي خيولاً وكان له سائس خيول. آه! كان ذلك في الأيام الخوالي. إنه لأمر محزن أن يحدث ما حدث له! لقد فقد الكولونيل زوجته وهي صغيرة، وابنه قُتل في الحرب وابنته الوحيدة رحلت لتعيش في الجانب الآخر من العالم، تزوجت رجلاً بورينتدياً ثم ماتت وهي تضع مولودها وتوفي المولود أيضاً. كان رجلاً حزيناً يعيش هنا وحيداً، وقد أهمل المنزل فلم يعد يُصان كما ينبغي، وعندما توفي ترك البيت لابنة أخيه الآنسة كاثرينلد وشقيقتها، وجاءت هي والآنسة آنيا للعيش هنا. وبعد ذلك توفي زوج لافينيا فجاءت لتعيش مع أختها.

تنهدت وهزت رأسها بأسف وقالت: لم يكن الكثير للمحافظة على البيت. لم يستطعن تحمل النفقات، وتراكن الضريبة العقارية أيضاً...

- كل شيء يدعو إلى الأسف.

- إنهن سيدات لطيفات على أي حال. الآنسة أنيتا مشوشة الذهن وغير منظمة لكن الآنسة كلوتيلد ذهبت للجامعة وهي ذكية جداً وتتكلم بثلاث لغات، والسيدة غلين سيدة لطيفة جداً. كنت أظن أن الأمور ستتحسن بقدومها للعيش مع أختيها، ولكن المرء لا يعرف أبداً ما يحمله المستقبل له. أحياناً أشعر أن القدر المشؤوم قد حلّ هذا البيت.

نظرت الآنسة ماربل بتساؤل فصمتت الخادمة تقول: يحدث شيء أولاً ثم يحدث شيء آخر. ذلك الحادث الرهيب للطائرة... في أسبانيا، حيث قُتل الجميع. إذ الطائرات سخيفة، ما كنت لأركب واحدة منها أبداً. قُتل صديق الآنسة كلوتيلد الآتان، الزوج وزوجته، وكانت ابنتهما ما تزال في المدرسة لحسن حظها فنجت من الحادث، لكن الآنسة كلوتيلد أحضرتها لتعيش هنا وفعلت كل شيء من أجلها، فأخذتها في رحلات إلى الخارج... إلى إيطاليا وفرنسا، وعاملتها كأنها ابنتها. كانت فتاة سعيدة ولطيفة جداً، ولم يظنّ أحدٌ أن يحدث لها ذلك الحادث الرهيب.

- حادث رهيب؟ ما هو؟ هل حدث هنا؟

- لا، ليس هنا والحمد لله، رغم أنك ستظنين -بطريقة ما- أن تقولي إنه حدث هنا لقد التقت به هنا، كان يسكن في مكان قريب، والسيدات يعرفن والده وكان رجلاً غنياً جداً، ولذلك جاء إلى هنا للزيارة... كانت تلك هي البداية.

- أحبّ كل منهما الآخر؟

- نعم، لقد وقعت في حبه مباشرة. كان ولداً وسيماً بطريقة ما، طريقة لطيفة في الحديث. ما كان المرء ليحسب... ما كان المرء ليحسب أبداً...

ثم سكتت، فقالت الآنسة ماربل: نشأت علاقة غرامية ثم «حلت» فانتحرت الفتاة. أليس كذلك؟

حدقت الخادمة العجوز في الآنسة ماربل مذعورة: انتحار؟! من الذي أخبرك بذلك؟ كانت جريمة قتل... جريمة قتل واضحة؛ لقد خنقت وقُطّم رأسها. واضطرت الآنسة كلوتيلد أن تذهب لتتعرف على جثتها، وبعد ذلك الوقت لم تعد كما كانت. لقد وجدوا جثتها على بعد كيلومتر تقريباً من هنا وسط أشجار منحدر مهجور، ولم تفقد بأملها لم تكن أول جريمة يرتكبها، فقد قتل فتيات غيرها. لقد قالت مفقودة لمدة ستة أشهر، وكانت الشرطة تبحث عنها في كل مكان. أما إنه ولد حقير... يبدو أنه شخص حقير شرير منذ يوم ولادته. يقولون هذه الأيام أن هناك أناساً لا يستطيعون السيطرة على أفعالهم... أو أنهم مصابون بلوثة في عقولهم وبالتالي لا يمكن أن يتحملوا مسؤولية أفعالهم. إنني لا أصدق كلمة واحدة من هذا كله! القتلة هم القتلة حتى أنهم لا يحكمون عليهم بالإعدام هذه الأيام. أعرف أن بعض العائلات القديمة كانت تتوارث الجنون. كانت هناك عائلة ديرولت في واستشتن... كان يظهر بين جيل وآخر من أفراد العائلة من يموت في مستشفى المجانين... وهناك السيدة بوليت العجوز التي كانت تخرج إلى الأرفة وتضع التاج على رأسها وتقول إنها ماري أنطوانيت إلى أن أستكوهما. ولكن لم يكن فيها أي شيء غير طبيعي، كان امرأة سخيفة فقط. أما هذا الولد فكان شريراً تماماً.

- وماذا فعلوا به؟

كانوا قد نفذوا حكم الإعدام وقتها... أو أنه كان صغيراً في السن، لا أستطيع أن أتذكر ما حدث بالضبط. لقد أدانوه بالعنوسة وأرسلوه إلى بوستون أو بروفيدانس، إلى أحد هذه الأماكن التي تبدأ بحرف الباء.

- ما اسم ذلك الفتى؟

- مايكل... لا أتذكر اسم عائلته. لقد حدث ذلك منذ عشر سنوات، لذلك فقد نسيت. اسمه إيطالي كاسم الرسام الإيطالي... رافيل، أظن ذلك.

- مايكل رافاييل؟

- هذا صحيح. لقد أشيع وقتها أن والده أخرجه من السجن بحكم ثروته وقتئذ، الأمر هروباً من السجن مثل هؤلاء الذين يسطون على البنوك. لكني أظن أن ذلك كان مجرد كلام.

- إذن لم يكن ذلك تهديداً بل جريمة قتل؟ لقد قالت إليزابيث تيمبل إن «الحب» كان السبب في وفاة إحدى الفتيات، وكانت على حل نوعاً ما. فتاة شابة وقعت في حب قاتل... وبسبب حبها له قام بافتيادها إلى موت بشع على حين غرة.

ارتعدت الآنسة ماربل قليلاً. كانت قد مرت بالأمس وهي تسير في شارع القرية أمام لوحة إعلانات لإحدى الصحف، وكانت اللوحة تقول: «جريمة في إيستوم داونز، اكتشاف جثة لفتاة أخرى، مطلوب من الشباب مساعدة الشرطة».

* * *

عندما زارت الآنسة ماربل الدرج صباح ذلك اليوم قبل وقتها المعتاد لم تجد ما يشير إلى وجود مفيداتها. خرجت من الباب الرئيسي وتجولت في الحديقة. ولم يكن ذلك لأنها أحبت تلك الحديقة وأرادت الاستمتاع برؤيتها، بل كان ذلك بسبب شعور داخلي بوجود شيء هناك يجب عليها ملاحظته، شيء سيعطيها فكرة أو أن أعطاها فكرة لم تكن هي من الذكاء بحيث تفهمها. شيء كان يجب عليها أن تلحظه، شيء له علاقة بمهمتها.

في تلك اللحظة لم تكن مهتمة برؤية واحدة من الأخوات الثلاث، بل كانت تريد تقليب بعض الأمور في ذهنها: الحقائق الجديدة التي عرفتها من خلال كلام الخادمة جانيت منها صباح اليوم.

كانت إحدى البوابات الحجرية مفتوحة فخرجت منها إلى شارع القرية ثم إلى صف من المحلات الصغيرة، ثم إلى الكنيسة والمقبرة الملاصقة لها. فتحت بوابة المقبرة وصارت تتجول بين القبور. بعض القبور يعود إلى زمن قديم، وتلك القبور عند الجدار البعيد تعود إلى زمن قريب، ووراء الجدار قبور قليلة كان واضحاً أنها جديدة. لم يكن في القبور القديمة أي شيء يثير الاهتمام: أسماء معينة تتكرر كما يحدث في القرى، عدد كبير من أفراد عائلة بريس من أبناء هذه القرية مدفونون هنا: جاسبر بريس المأسوف على شبابه، مارغري بريس، إدغار ووالتر بريس، فيلاني بريس ماتت عن أربع سنوات... ثم صف من القبور لعائلة أخرى: هيرام برود، إيلين جين برود، إليزا برود، ٩١ عاماً.

كانت قد بدأت تبتعد عن ذلك القبر الأخير عندما لاحظت

رجلاً كهلاً يتحرك بين القبور ببطء وهو يعتمل ملابسه، وخلفه قليلاً، صباح الخير.

ردت عليه الآنسة ماريل: صباح الخير، إنه يوم جميل بالفعل.

قال العجوز: سينقلب إلى خير ماطر فيما بعد.

كان يتكلم بكل ثقة، وقالت الآنسة ماريل: يبدو أن كثيراً من عائلة برنس يرود مدفونون هنا.

– آه، نعم، كانت عائلة برنس تعيش هنا، كانوا يملكون كثيراً من الأراضي ذات يوم. كما كانت تعيش هنا عائلة برود قبل سنوات عديدة أيضاً.

– أرى طفلة مدفونة هنا. من المحزن جداً أن نرى قبر طفلة.

– آه، لا بد أنه قبر الصغيرة ميلاني، وقد كنا ندعوها ميلي. نعم، كانت وفاتها محزنة، لقد دُهست. خرجت إلى الشارع تركض وذهبت للشاري حلوى من محل الحلوى... يحدث هذا كثيراً هذه الأيام حين السيارات المسرعة الكثيرة.

– كم هو محزن عندما نرى كثيراً من الناس يموتون باستمرار، غير أن المرء لا ينبه لذلك إلاّ عندما يقرأ الشواهد على القبور الحرض، والعجز، والطفل يدفنون، وأحياناً أشياء مرعبة أكثر... فتيات مقتولات، أقصد جرائم القتل.

– آه، نعم، هناك الكثير من هذه الجرائم. معظمهن فتيات سخيفات، كما أن أمهاتهن ليس لديهن الوقت الكافي للعناية بهن

بالطريقة الصحيحة هذه الأيام بسبب خروجهن للعمل لساعات طويلة.

وافقته الآنسة ماريل على هذا النقد، لكنها لم تكن ترغب بإساءة وقتها في الموافقة على الأفكار السائدة. سألها الرجل العجوز: أ... تقيمين في بيت العزبة القديمة، أليس كذلك؟ أظن أنك وصلت مع الرحلة. لكني أعتقد أنها تربطة جداً بالنسبة لك، إن بعض كبار السن لا يستطيعون تحملها.

اعترفت الآنسة ماريل: لقد وجدتها فعلاً مرتفعة بعض الشيء، لقد كتب صديق كريم يدعى السيد رافائيل إلى بعض أصدقائه هنا مدعواً للإقامة عندهم أياماً.

بدا واضحاً أن اسم رافائيل لم يعن شيئاً للبستاني العجوز. قالت الآنسة ماريل: كانت السيدة غلين وشقيقتاها في منتهى الكرم، أظن أنهن يعشن هنا منذ زمن طويل؟

– ليس طويلاً إلى هذا الحد، ربما منذ عشرين سنة فقط. كان البيت مملكاً للكولونيل العجوز براندوري سكوت... أقصد بيت العزبة القديمة. كان قريباً من السبعين عندما مات.

– هل كان له أي أولاد؟

– ابن قتل في الحرب، ولذلك أورث هذا المكان لبنات أخيه. لم يكن له أي وريث آخر.

عاد إلى عمله بين القبور، ودخلت الآنسة ماريل الكنيسة. كانت لمسات العصر الفكتوري واضحة عليها، وكان زجاج النوافذ لامعاً

وبعض التخمينات واللوحات المعلقة على الجدران هي كل ما بقي من الماضي.

جلست الآنسة ماريل على أحد المقاعد الخشبية غير المريحة وراحت تتساءل في نفسها: هل كانت تسير على الطريق الصحيح؟ لقد بدأت الأمور تترابط، ولكن الروابط بينها كانت أبعد ما يكون عن الوضوح. فتاة قُتلت (والواقع أن عدة فتيات قد قُتلن)... الاشتباه في بعض الشباب وقيام الشرطة باعتقالهم «لمساعدتها في تحقيقاتها» لسوء حظ هؤلاء، لكن ذلك كله أصبح تاريخاً قديماً يعود إلى عشر سنوات أو اثني عشرة سنة. لا شيء يمكن اكتشافه... الآن، لا توجد مشكلات لحلها. مأساة أسدل عليها الستار.

ما الذي يمكنها أن تفعله؟ ما الذي كان السيد رافائيل يريد منها أن تفعله؟

إليزابيث تميل... يجب عليها أن تحمل إليزابيث تميل على إخبارها بالمزيد. لقد تحدثت إليزابيث عن فتاة كانت مخطوبة لمايكل رافائيل، ولكن هل كان الأمر كذلك حقاً؟ يبدو أن ذلك غير معروف للسيدات في بيت العزبة القديمة.

تذكرت الآنسة ماريل قصة مأساوية أكثر لديها، قصة كانت تتكرر باستمرار في قريتها، كانت تبدأ دائماً «في ربيع حياته» وكانت تتطور في نفس الطريقة المعتادة... وقالت الآنسة ماريل تحدّث نفسها: ثم تجد الفتاة نفسها حاملاً وتخبر الفتى وتطلب منه أن يتزوجها، ولكنه ربما لا يريد الزواج بها أو لم يفكر أبداً بالزواج منها. وتصبح الأمور صعبة عليه في هذه الحالة، إذ ربما عارض والده معارضة شديدة

دنا يضرّ أقاربها على أن «يصلح خطأه». وفي هذه الفترة يكون قد ندم من الفتاة... وربما عرف فتاة غيرها، ولذلك يقوم بخطوة سريعة وحاسمة: يخلقها ويضربها على رأسها ويهشمه حتى لا يتعرف أحد عليها! إنه سيناريو يناسب هذه القضية، جريمة وحشية قذرة ولكنها بسيطة وتنهي أمرها.

نظرت حولها إلى الكنيسة التي كانت تجلس فيها. بدت هادئة جداً، وكان يصعب تصديق حقيقة وجود الشر. موعة اكتشاف الشر... هذا ما نسبه السيد رافائيل إليها. نهضت وخرجت من الكنيسة ونظرت نظرة حولها إلى المقبرة مرة أخرى، ولم يتحرك في نفسها هذا من هذه القبور أي إحساس بالشر.

أكان الشر هو الذي أحست به بالأمس في بيت العزبة القديمة؟ ذلك الحزن العميق، ذلك الحزن اليائس. أكانا سكوت وهي تنظر من نافذة واحدة إلى الوراء نظرات خوف وكأنها تخشى من وجود أحد يقف هناك... يقف واقفاً هناك... ورابعاً! إنهن يعرفن شيئاً، هؤلاء الأخوات الثلاث، ولكن ما الذي يعرفنه؟

مرة أخرى، إليزابيث تميل. تخيلت إليزابيث تميل مع بقية زملائها في الرحلة تسير بخطوات سريعة، تنزل وتصعد الممرات المنحدرة وتنظر إلى البحر من فوق الصخور الشاهقة. غداً، عندما تنضم إلى الرحلة ثانية ستطلب من إليزابيث تميل أن تخبرها بالمزيد.

عادت الآنسة ماريل أدراجها إلى بيت العزبة القديمة وهي تمشي ببطء، لأنها صارت مرهقة الآن. لم تتمكن من الشعور بأن هذا الصباح قد أثمر شيئاً مفيداً؛ فحتى هذه اللحظة لم يعطها بيت العزبة القديمة أية أفكار محددة ذات دلالة معينة مهما كانت. لديها قصة عن مأساة

قديمة سردتها حالياً، ولكنك تجد الكثير من أمثال هذه المآسي والحوادث الماضية مكتوبة في ذاكرة الخادمات اللاتي يتذكرنها كما يتذكرن جميع الأحداث السعيدة كحفلات الزفاف والعمليات الناجحة أو الحوادث التي ينجو منها الناس بأعجوبة.

وعندما كانت تقترب من البوابة رأت امرأتين تقفان هناك. جاءتها واحدة منهما وكانت السيدة غلين، وقالت: آه، أنت هنا؟ لقد تساءلنا عنك. اعتقدت أنك خرجت لتتمشين في مكان ما ولذلك تمنيت أن لا تكوني قد أجهدت نفسك. لو كنت أعرف أنك تراني وخرجت من البيت لجئت معك لأريك ما يمكن رؤيته، مع أنه ليس هناك الكثير.

قالت الآنسة ماربل: لقد تجولت في المنطقة القريبة فقط، وزرت طيرة الكنيسة والكنيسة. إنني مهتمة بالكنائس، أعتقد أن توجد نقوش غريبة جداً على الأضرحة، ولما الجميع مثل هذه النقوش. أظن أن الكنيسة قد تجددت في العصر الفكتوري؟

- نعم، أظن أنهم وضعوا فيها بعض المقاعد القبيحة. إنها مقاعد من خشب جيد النوعية وقوي ولكن ليس فيها ذوق.

- أرجو أن لا يكونوا قد أخذوا منها شيئاً ذا أهمية خاصة؟

- لا أظن ذلك؛ إنها ليست قديمة جداً في الحقيقة.

واقتنعت الآنسة ماربل: لا يبدو أن فيها خلوات كثيرة أو تحاسيات كثيرة أو أي شيء من هذا القبيل.

- يبدو أنك مهتمة بالعمارة الكنسية؟

- آه، إنني لم أدرسها، ولكن في قريتي سينت ميري ميد دور الأمور كلها حول الكنيسة. أقصد أنها كانت دوماً كذلك، كان ذلك أيام صباي. أما اليوم فإنه مختلف بالطبع. هل نشأت في هذه المنطقة؟

- لا، لقد عشنا في منطقة ليست بعيدة كثيراً من هنا، نحو ثلاثين ميلاً، في ليتل هيرندسلي. كان والدي عسكرياً متقاعداً، وكنا في سلاح المشاة. وكنا نأتي إلى هنا من وقت لآخر لزيارة عمي، والواقع أننا كنا نأتي لزيارة عم والدي قبله... لكني لم آت إلى هنا كثيراً في السنوات الأخيرة. انتقلت شقيقتاي إلى هنا بعد وفاة عمي ولكني كنت في الخارج مع زوجي في ذلك الوقت، لقد توفي قبل أربع سنوات أو خمس فقط.

- آه، فهمت.

- كانا حريصتين على أن أتي لأعيش معهما هنا، والواقع أنه كان أفضل شيء أعمله. لقد عشنا في الهند بضع سنوات، كان زوجي مقيماً هناك وقت وفاته. من الصعب جداً أن يعرف الإنسان أين يضع جذوره في هذه الأيام.

- نعم، أفهم هذا تماماً. وبالطبع لقد أحسست بأن لديك جذوراً هنا حيث إن عائلتك كانت تعيش هنا منذ وقت طويل.

- نعم، نعم، لقد شعرت بذلك. بالطبع كنت على اتصال دائم بشقيقتي وكنت أزورهن باستمرار، لكن الأمور تختلف دائماً عندما تظن أنها ستكون عليه. لقد اشتريت كوخاً صغيراً قرب لندن، قرب هامبتون كورت حيث أمضي وقتاً طويلاً وأقوم ببعض الأعمال

الصغيرة لصالح بعض الجمعيات الخيرية في لندن.

- إذن فوقتك مشغول تماماً؟ يا له من تصرف حكيم!

- ربما أحسست في الفترة الأخيرة بضرورة أن أقضي وقتاً أطول هنا، لقد كانت قلقة على تنقيتي قليلاً.

- على صحتهما؟ الكل يقلق هذه الأيام وخصوصاً عندما لا يوجد شخص قدير يمكن توظيفه لرعاية كبار السن عندما يصيبهن أو يمرضون. كثيرٌ من الناس يصابون بالروماتزم والتهاب المفاصل، والمرء يخاف على نفسه من الوقوع في الحمام أو السقوط من الدرج.

قالت السيدة هلين: لقد كانت كلوديلد قوية على الدوام، واستطيع وصفها بالمرأة الحديدية، لكني أشعر بالقلق على أنيا أحياناً إنها غامضة، غامضة جداً بالفعل، وهي تخرج كثيراً أحياناً ولا نعرف أين هي.

- نعم، أمر محزن أن يقلق الناس. لمة الكثير مما يُقلق الناس.

- لكني لا أرى ما يستحق أن تقلق أنيا من أجله.

- ربما تقلق من ضريبة الدخل أو من مسائل مالية؟

- لا، لا، هذه ليست أموراً بالغة الأهمية. إنها قلقة جداً على الحديقة، تذكر كيف كانت العديقة وتفكر كثيراً في صرف الأموال من أجل إصلاح البيت... ولقد أخبرتها كلوديلد أننا لا نستطيع تحمل هذه النفقات في الوقت الحاضر، لكنها ما تزال تتكلم عن بيوت

النبات الزجاجية وأشجار الفوع التي كانت تُزرع فيها ودوالي العنب... وما إلى ذلك.

- ونباتات الظل المتسلقة على الجدران.

- غريب أن تتذكري هذا. نعم، نعم، إنها من الأشياء التي يسبح في الذاكرة، فلها رائحة جذابة كما أنها دائمة اسم ولان أيضاً «تذكرة المرء دائماً» ودالية العنب، العنب الصغير حلو الطعم. آه، لا ينبغي أن نتذكر بالماضي كثيراً.

- وشجيرات الورد أيضاً.

- نعم، نعم، أرادت أنيا إحاطة المكان بشجيرات كثيرة تُزهر لكنا كان الأمر من قبل. ولكن ذلك لم يعد ممكناً، إذ يصعب في هذه الأيام كثيراً إحضار أناس من أهل القرية لكي يجزّوا الأعشاب الموجودة على المرجة كل أسبوعين. كما أن أنيا تحب زراعة مختلف الياسمين مرة أخرى وأيضاً شجرة التين التي كانت فيما مضى خارج بيت النبات الزجاجي— إنها تتذكر كل هذه الأمور ولا تزال تتحدث عنها.

- لا بد أنه أمر صعب عليك.

- هو كذلك، إن التجدلات ليست أمراً مستساغاً، وكلوديلد جيدة جداً في مثل هذه الأمور، فهي ترفض الاقتراحات مباشرة وتقول إنها لا تريد سماع كلمة أخرى عنها.

قالت الآنسة مارپل: يصعب على الإنسان معرفة كيفية معالجة الأمور. هل يكون المرء حازماً أو مستبداً؟ هل يكون قاسياً بعض

الشيء، أم يكون متعاطفاً؟ يصغي للمقترحات ويبقي على محفظته مغلقاً، وهو يعرف أنه ليس لهذا الغلاف ما يبرره؟ نعم، إنه لأمر صعب.

- لكن الأمور أسهل بالنسبة لي لأنني أرحل لم أعود من وقت لآخر للإقامة هنا، ولذلك فمن السهل علي أن أتظاهر بأن الأمور ستكون أسهل في المستقبل القريب وبالتالي يمكن فعل شيء. لكنني عدت إلى البيت قبل أيام ووجدت أن آنيا قد جاوزت التعاقد مع مكتب يقاضي أجوراً باهظة لتأمين عشائل حديقة وتستة لأحياء حديقة البيت وبناء بيت البنات الزجاجي مرة أخرى... وهو عمل سخيف تماماً، فحتى لو زرعنا دوالي العنب فإنها لن تحمل ثمراً قبل سنتين أو ثلاث. لم تكن كلوتيلد تعرف أي شيء عن الأمر وغضبت إلى أبعد حد عندما قرأت القيمة التقديرية لهذا العمل على مكتب آنيا... لقد كانت قاسية معها بحق.

قالت الآنسة ماربل: هناك أشياء كثيرة صعبة.

كانت تلك عبارة مفيدة تستخدمها كثيراً، ثم ما لبثت أن قالت: أظن أن علي أن أذهب في وقت مبكر من صباح الغد. كنت أقوم ببعض الاستشارات في فندق كولدن بوز حيث ستجتمع مجموعة المسافرين صباح الغد، سوف يتطلقون في وقت مبكر، في الساعة التاسعة.

- أرجو أن لا يكون هذا متعباً لك.

- لا أظن ذلك. وأحسب أنا سأذهب إلى مكان يدعى... ماذا يدعى؟ سيترابع بيشت ميزي... اسم قريب من هذا، ويبدو أنه

غير بعيد من هنا. هناك كنيسة مثيرة للاهتمام لزيد زوريها في الطريق وهناك قلعة، وبعد الظهر ستزور حديقة جميلة جداً صغيرة لكن بها آثاراً من نوع خاص. أنا واثقة من أنني سأكون على خير ما يرام بعد هذه الاستراحة اللطيفة لي هنا، ولقد كنت سأتعب كثيراً لو ذهبت وحدي لتسلق تلك الصخور والمرتفعات.

قالت السيدة هلين وهما تدخلان البيت: يجب أن ترتاحي بعد ظهر اليوم حتى تستعدي للغد.

ثم قالت تخاطب كلوتيلد: لقد ذهبت الآنسة ماربل لزيارة الأسرة.

قالت كلوتيلد: ليس فيها الكثير مما يستحق المشاهدة، ليس فيها سوى الزجاج الفكتوري الذي أراه كريهاً تماماً. لقد شُرف عليها الدمار، وأظن أن بعض اللوم يقع على عمي الذي كان سعيداً جداً بهذا الزجاج الأحمر والأزرق غير المتقن.

قالت لانيتا هلين: لطالما رأيته فج الذوق.

ذهبت الآنسة ماربل بعد الغداء لترتاح في قيلولة قصيرة، ولم تقم إلى مقيلتها إلا عند اقتراب موعد العشاء تقريباً. وبعد العشاء دار حديث طويل بينهن إلى أن حان وقت النوم، وقد وجهت الآنسة ماربل الحديث باتجاه استعادة الذكريات... ذكرياتها عن أيام شبابها وعن أعمامها والأماكن التي زارتها والرحلات والأسفار التي قامت بها والناس الذين كانت تعرفهم...

ثم ذهبت إلى النوم متعبة وهي تحمل معها إحساساً بالفشل.

لم تعرف أكثر مما كانت تعرفه أصلاً، ربما لأنه لم يكن ثمة ما يمكن معرفته. كانت رحلة لصيد السمك لم تظهر فيها السمكة... ربما لأن أي سمكة لم تكن موجودة أصلاً، أو أنها لم تهتد إلى الطُعم المناسب الذي يرضي استمتاعه.

• • •

الفصل الحادي عشر

حادث

قُدِّم الشاي للآنسة ماربل في الساعة السابعة والنصف صباح اليوم التالي ليكون معها وقت كافٍ لتنهض وتحزم أمتعتها القليلة. كانت تُغلق حقيبتها الصغيرة عندما سمعت طرقات مستعجلة على الباب لتدخل كلوتيلد وهي تبدو متزعجة. قالت: آه يا عزيزتي، في الصالة شاب جاء لرؤيتك يا آنسة ماربل. اسمه إيفلين برايس، وهو مشارك في الرحلة معك وقد أرسلوه إلى هنا.

- أتذكره بالطبع. نعم، الشاب الصغير؟

- نعم، شاب على الموضة ذو شعر طويل. ولكنه في الحقيقة قد جاء... جاء ليبلغك أخباراً سيئة. لقد وقع حادث للأسف.

حدّقت إليها الآنسة ماربل وقالت: حادث؟ للصديق... للمحافظ؟ هل وقع حادث سير؟ هل أصيب أحدٌ؟

- لا، لا، ليست المحافظ، لم يحدث لها أي شيء، بل وقع حادث في أثناء الرحلة بعد ظهر الأمس. ربما تتذكرين صوب ريح عرية رغم أنني لا أعتقد أن لهذا علاقة بالحادث. أظن أن الناس

يتهيؤون قليلاً في المنطقة، ثمة ممر ممهد ولكن السرء يستطيع أيضاً التسلق من طرق أخرى على المرتفع، وكلا الطريقين يؤديان إلى البرج التذكاري على قمة مرتفعات بوناوينتر التي هي وجهة الجميع. لقد تفرق المشاركون في الرحلة، ويبدو أن أحداً لم يكن يرشدهم أو يحثني بهم أو هو أمر كان ينبغي الالتزام به. ويبدو أن بعض الناس لا يتأكدون من خطواتهم جيداً بشكل دائم. كما أن المنحدرات حادة جداً. وقد سقطت صخور وحجارة من جانب التلة فأصابت إحدى السيدات المتسلقات.

هتفت الآنسة ماربل: يا إلهي! إنه أمر مؤسف، مؤسف جداً. من هي التي أصيبت؟

- فهمت أنها تدعى الآنسة تيمبل.

قالت الآنسة ماربل: إيزابيل تيمبل؟ يا إلهي، يا له من أمر مؤسف! لقد تحدثت معها كثيراً وكنت أجلس إلى جانبها في الحافلة. أظن أنها مديرة مدرسة متقاعدة، امرأة معروفة جداً.

قالت كلوديا: بالطبع، أعرفها جيداً. كانت مديرة مدرسة فالوفيلد، وهي مدرسة مشهورة جداً. لم أكن أعرف أنها مشاركة في هذه الرحلة. لقد تقاعدت من عملها قبل سنة أو سنتين، لكنها ليست كبيرة بالسن، أظن أنها في الستين من عمرها تقريباً، وهي نشيطة جداً وتحب تسلق الجبال والمشي وغير ذلك من أنواع الرياضة. إنه لأمر مؤسف جداً، أرجو أن لا تكون قد أصيبت إصابة بالغة. لم أسمع أية تفاصيل بعد.

قالت الآنسة ماربل وهي تشكل حقيبتها: سأنزل على الفور لأرى السيد برايس.

أمسكت كلوديا بالحقيبة وقالت: اتركيها لي، أستطيع حملها إلى هناك. انزلي معي واحذري الدرج.

نزلت الآنسة ماربل، وكان إيمليين برايس في انتظارها. بدا شعره أشعث أكثر من المعتاد وكان يلبس حذاء رياضياً جميلاً وسترة من جلد وبنطالاً أخضر زاهياً. قال وهو يمسك بيد الآنسة ماربل: إنه حادث مؤسف، وقد رأيت أن آتي بنفسي وأبلغك به. أظن أن الآنسة سكوت قد أبلغتك الخبر... إنها الآنسة تيمبل... تعرفينها، مديرة المدرسة. لا أعرف ما كانت تفعله أو ما حدث تحديداً، ولكن بعض الصخور الضخمة تدحرجت من أعلى. إنه منحدر شديد، وقد رجمها الصخور في الهاوية فاضطروا لأخذها إلى المستشفى في البلدة الساعة في حالة إغماء، نتيجة إصابة في رأسها. أظن أن حالتها سيئة، وعلى أية حال فقد ألغيت رحلة اليوم وسنبقى هذه الليلة هنا.

قالت الآنسة ماربل: إنه أمر مؤسف، مؤسف جداً.

- أظن أنهم قرروا أن لا يذهبوا اليوم في انتظار ما سيسفر عنه التقرير الطبي، ولذلك فإننا لعدم قضاء ليلة أخرى في فندق خواندل بور وإعادة ترتيب برنامج الرحلة قليلاً، وربما لا نذهب إلى خرائب سيرنغ كما كان مخططاً غداً (وهي ليست مكاناً مثيراً في الحقيقة، أو هكذا يقولون). لقد ذهبت السيدة ساندبورن إلى المستشفى في وقت مبكر من صباح اليوم لتفقد المريضة، وستنضم إلينا في خواندل بور

في الساعة العاشرة عشرة عند تناول القهوة، وقد فكرت أنك ربما أردت المجيء لسماع آخر الأخبار.

- سآتي معك بالتأكيد، بالطبع، على الفور.

انتظرت لوداع كلوديلد والسيدة غلين التي جاءت معها. قالت: شكراً لكِ، لقد كنتِ في غاية الكرم واللطف معي. لقد سعدت جداً بقضاء هاتين الليلتين هنا، وأشعر بالراحة الكبيرة. إن ما حدث أمر مؤسف جداً.

قالت السيدة غلين: إذا رغبت بقضاء ليلة أخرى فأنا متأكدة...

ثم نظرت إلى أختها كلوديلد. ولاحظت الآنسة ماربل ذات النظرات الحادة أن نظرة كلوديلد لم تُبدِ استحساناً للفكرة، بل إنها كادت تهزّ رأسها لأختها نافية، رغم أنها كانت حركة خفية لا تكاد تُلاحظ. لكن الآنسة ماربل رأت أنها بحركتها تلك كانت تريد منع أختها من إكمال اقتراحها.

وأكملت السيدة غلين: رغم أني أظن طبعاً أن الأصول تقتضي منك أن تكوني مع زملائك و...

قالت الآنسة ماربل: نعم، أظن أنه سيكون أفضل. سأعرف ما هي خططهم وماذا سنفعل وربما أتمكن من تقديم المساعدة بطريقة ما. شكراً لكِ مرة أخرى.

ثم نظرت إلى إيملين وقالت: أظن أنه لن يكون صعباً حجز غرفة في فندق فولدن بور؟

أجابها إيملين مُطمئناً: سيكون الأمر على ما يرام؛ لقد أعلمت جد. عرف اليوم، وأظن أن السيدة ساندبورن قد حجزت لجميع الـ داب لقضاء الليلة وسنرى غداً... سنرى كيف ستجري الأمور.

ثم تبادل كلمات الوداع والشكر مرة أخرى، وحمل إيملين براس أغراض الآنسة ماربل وخرج مسرعاً. ثم قال: إنه قريب من الزاوية ثم أول شارع إلى اليسار.

- نعم، أظن أني مررت من أمامه بالأمس. مسكينة الآنسة ريمبل، أرجو أن لا تكون إصابتها سيئة.

- بل أظنها كذلك للأسف. أنت تعرفين بالطبع كيف هم الأطباء والعاملون بالمستشفى، يقولون الكلام ذاته دائماً: "المريض بأفضل حال يمكن توقعه". لم يجدوا مستشفى محلياً، ولذلك اضطروا لأخذها إلى كارسادون التي تبعد ثمانية أميال تقريباً. على أية حال سوف تعود السيدة ساندبورن ومعها الأخبار عندما تستقرين في الفندق.

وصلا هناك فوجدا أفراد الرحلة مجتمعين في المقهى يشربون القهوة ويتناولون الفطائر وحلوى الصباح. كان السيد بالمر وزوجته يتحدثان في تلك اللحظة، وقالت السيدة بالمر: آه، إنه سعادت ماساوي جداً. أليس مزعجاً أن يحدث ذلك ونحن جميعاً في أوج سعادتنا واستمتاعنا؟ مسكينة الآنسة ريمبل! وأنا التي كنت أظن دائماً أنها ثابتة القدمين. ولكن المرء لا يستطيع الجزم بشيء، أليس كذلك يا هنري؟

قال هنري: بالطبع، بالطبع. إنني أتساءل... نعم، فولفنا فصير

جداً... السامل إن كان من الأفضل لنا أن نتخلى عن هذه الرحلة هذا لا نريد أن نستمر فيها، إذ يبدو لي أنه سيكون من الصعب استئناف الرحلة إلاّ إذا عرفنا حالة المريضة على وجه التحديد. فلو كانت حالتها خطيرة... أقصد إذا كانت إصابتها قاتلة فقد يكون... أقصد ربما يجري لتحقيق أو شيء من هذا القبيل.

- آه، هنري، لا تقل مثل هذه الأشياء الفظيعة!

قالت الآنسة كوك: أنت متشائم قليلاً يا سيد باتلر، إنني متأكدة من أن الأمور ليست بهذه الخطورة.

قال السيد كاسبر بلهجته الأجنبية: بلى، إنها خطيرة. لقد سمعت بالأمس عندما كانت السيدة ماكدونرز تتحدث مع الطبيب بالهاتف، سمعت أن حالتها خطيرة، خطيرة جداً. يقولون إن إصابتها خطيرة جداً، وسوف يأتي طبيب خاص ليفحصها ويقرر ما إذا كان باستطاعته إجراء عملية جراحية لها أم أن ذلك مستحيل. نعم، إن حالتها سيئة جداً.

قالت الآنسة لوملي: يا إلهي! إن كان هناك أي شك فقد يتوجب علينا العودة إلى البيت يا ميلدريد، يجب أن آري مواعيد القطارات.

ثم التفتت إلى السيدة باتلر وقالت: لقد عملت الترتيبات لوضع قطاني عند الجيران، وإذا تأخرت يوماً أو يومين فسيكون الأمر صعباً جداً على الجميع.

قالت السيدة رايسلي بورتر بصوتها الجهوري الآمر: لا حاجة لأن ترهق أنفسنا بالقلق والوساوس. جوانا، ألقي بهذه الكعكة في سلة المهملات، إن طعمها فظيع ولا أريد تركها في طبقي حتى لا تزداد سماري سوءاً.

بعد أن تخلصت جوانا من قطعة الحلوى قالت: هل ترين بأساً في خروجي مع إيفلين لكي تمشي قليلاً؟ أقصد لترى البلدة. إن لوسانا هنا لا يفيد ونحن نسمع هذا الكلام المحزن، فنحن لا نستطيع عمل أي شيء.

بادرت الآنسة كوك قائلة: أظن أن من الحكمة أن تخرجا.

وقالت الآنسة بارو قبل أن تقوم السيدة رايسلي بورتر: نعم، ادعما الآن.

تبادلت الآنسة كوك والآنسة بارو النظرات وتنهدتا وهما تهزان رأسيهما، وقالت الآنسة بارو: كان العشب زلقاً جداً، لقد زلقت قدمي أكثر من مرة على تلك المرجة الصغيرة.

قالت الآنسة كوك: والصخرة أيضاً... كانت قطع الأحجار الصغيرة تتساقط علي عندما كنت أتعطف عند زاوية الطريق. نعم، أحد الأحجار أصابني في كتفي إصابة قوية.

بعد أن فرغ القوم من شرب الشاي والقهوة وأكل الكعك بدا الجميع مطمئنين قليلاً، فعندما تحدثُ كارثة يصعب معرفة الأسلوب المناسب في التعامل معها. لقد عرض كل امرئ وجهة نظره وأعرب عن دهشته وحزنه، وهم الآن ينتظرون الأخبار في الوقت الذي يراودهم رغبة في الخروج والتجول، رغبة في العثور على اهتمام جديد يشغلهم بحيث يغفلون هذا الصباح. لن يُقدَّم الغداء إلاّ في الساعة

الواحدة، وقد أحسوا أن الجلوس وتكرار العبارات والكلمات نفسها سيكون أمراً كئيباً مزعجاً.

نهضت الآنسة كوك والآنسة بارو كأنهما امرأة واحدة، وقالتا إن عليهن القيام ببعض التسوق وشراء بعض الأغراض والذهاب إلى مكتب البريد لشراء طوابع. قالت الآنسة بارو: أريد أن أرسل بعض بطاقات المعايدة، كما أريد سؤالهم عن الرسوم البريدية لإرسال رسالة إلى الصين.

وقالت الآنسة كوك: أما أنا فأريد معاينة بعض الصوف، كما يبدو لي أن هناك مبنى مثيراً للاهتمام على الجانب الآخر من ساحة السوق.

قالت الآنسة بارو: أظن أن الخروج سيفيدنا جميعاً.

نهض الكولونيل ورتكر وزوجته أيضاً واقترحا على السيد بالمر وزوجته أن يخرجوا ويروا ما يمكن رؤيته. أعربت السيدة بالمر عن أملها بالعثور على محل لبيع التحف قائلة: لا أقصد محل تحف حقيقي، بل محل خردوات فقط. أحياناً يجد المرء أشياء مثيرة هناك.

خرجوا جميعاً. وكان إيميلين برايس قد نزل إلى الباب واختفى على إثر خروجنا دون أن يكلف نفسه عناء الانتظار وتبرير خروجه، أما السيدة رايسلي بوزار فبعد أن قامت بمحاولة أخيرة لمناداة ابنة أخيها قالت إنها تعتقد أن الجلوس في الردهة أفضل من البقاء هنا، ورافقتها الآنسة لومللي، ورافق السيد كاسبر السيدتين إلى الردهة.

بقي البروفسور واستيد والآنسة ماربل. وقال البروفسور واستيد مخاطباً الآنسة ماربل: أنا أعتقد أن الجلوس خارج الفندق أفضل، ثمة مصطبة صغيرة تطل على الشارع، هل باستطاعتي دعوتك للخروج إليها؟

شكرته الآنسة ماربل وبهضت واقفة. إنها لم تتبادل كلمة واحدة حتى الآن مع البروفسور واستيد. كان معه عدة كتب علمية وكان دائم القراءة في أحدها، حتى وهو في الحافلة كان يحاول القراءة. قال: ربما أردت أنت أيضاً التسوق؟ بالنسبة لي فإنني أفضل الانتظار في مكان ما بهدوء لحين عودة السيدة ساندبورن، أظن أن من المهم جداً أن نعرف موقع أقدامنا بالضبط.

قالت الآنسة ماربل: أوافقك الرأي تماماً في هذا. لقد مشيت كثيراً في البلدة بالأمس ولا أشعر بأية ضرورة لفعل ذلك اليوم، بل أفضل الانتظار حتى أرى إن كان في استطاعتي عمل أي شيء للمساعدة. لا أظن وجود شيء يمكن عمله، ولكن من يدري؟

خرجا من باب الفندق ودارا حوله من الخارج حيث كانت هناك حديقة صغيرة ومبنى حجري قريب من جدار الفندق توجد عليه أشكال مختلفة من الكراسي. لم يكن ثمة أحد في تلك اللحظة، ونظرت الآنسة ماربل إلى مرافقها نظرات متأملة، نظرت إلى وجهه المتجعد وحاجبيه الكثين ورأسه ذي الشعر الكثيف الذي كساه الشيب. كان يمشي محدودباً بعض الشيء، ورأت الآنسة ماربل أن له وجهاً مثيراً. كان صوته جافاً لاذعاً، وأحست أنه رجل مخترف كاتباً ما كانت مهنته.

قال البروفسور: آنت الآنسة جين ماربل، إن لم أكن مخطئاً؟

- أنا جين ماربل، نعم.

أهملت قليلاً رغم عدم وجود سبب معين. إن المجموعة لم تقض من الوقت معاً ما يسمح بتعارف الرفاق، وفي آخر اليومين لم تكن الآنسة ماربل مع بقية المجموعة، فبدا تعرفه عليها أمراً غير طبيعي.

قال البروفسور راسبيد: لقد استنتجت ذلك من وصف زوجي لي عنك.

قالت الآنسة ماربل وقد فوجئت مرة ثانية: وصف زوجي لك عني؟

- نعم، عندي وصف لك...

سكت قليلاً، ولم ينخفض صوته تماماً لكنه فقد جهوريته رغم أنها كانت تستطيع سماعه بسهولة. أضاف يقول: من السيد رافائيل.

جفلت الآنسة ماربل وقالت: آه، من السيد رافائيل!

- هل فوجئت؟

- نعم، فوجئت.

- لا أرى سبباً لذلك.

- لم أتوقع...

سكتت الآنسة ماربل ولم تكمل، ولم يتكلم البروفسور راسبيد، كان يجلس وينظر إليها نظرات متفحصة، وشعرت الآنسة ماربل أنه لن

بدأ أن يسألها: "ما هي الأعراض لديك بالضبط؟ هل تعانين صعوبة في البلع؟ هل تعانين من الأرق؟ هل عضلاتك على ما يرام؟" — بدأت الآنسة شبه متأكدة من أنه طبيب، وقالت له: هل وصفني لك؟ لا بد أن ذلك...

- كنت ستقولين قبل وقت طويل... قبل أسابيع. الصحيح أن ذلك كان قبل وفاته! أخبرني بأنك ستكونين في هذه الرحلة.

- وكان يعرف أنك الأمر ستكون فيها... أو ستذهب فيها؟

- يمكنك قول هذا. قال لي إنك قد تساعرين في هذه الرحلة وأنه قد رتب أمور سفرك فيها.

- كان ذلك عملاً لطيفاً جداً منه، لطيفاً جداً. لقد فوجئت كثيراً عندما علمت أنه حجز لي في الرحلة. إنها رحلة رائعة، وما كنت لأستطيع تحمل نفقاتها.

- نعم، أحسنت التعبير.

ثم أردف يراقبه كالذي أعجبه أداء جيد لتلميذ مدرسة. قالت الآنسة ماربل: أمر مؤسف أن يتخلل الرحلة مثل هذا الحادث، مؤسف جداً، في الوقت الذي كنا نستمتع فيه جميعاً بأوقاتنا.

قال البروفسور راسبيد: نعم، نعم، مؤسف جداً. وغير متوقع، أم أنك تريه متوقعاً؟

- ماذا تقصد بهذا يا بروفسور؟

ابتسم ابتسامة عميقة وهز برى نظراتها المتحدية. قال: لقد حدثني السيد رافائيل عنك بالتفصيل يا آنسة ماربل، واقترح علي

أن أتي في هذه الرحلة معك. كان يجب أن أعرف عليك في الوقت المناسب، حيث إن المشاركين في أي رحلة يتعارفون حتماً رغم أنهم يتعارفون بعد يوم أو يومين إلى مجموعات حسب ميولهم وأذواقهم واهتماماتهم. كما أنه طلب مني مراقبتك.

قالت الآنسة مارييل بلهجة: مراقبتي؟ ولماذا؟

- أظن أن ذلك كان بغرض حمايتك، لقد أراد التأكد من عدم حدوث شيء لك.

- عدم حدوث شيء لي؟ ولماذا يحدث لي، هذا ما أود معرفته؟

- ربما ما حدث للآنسة إليزابيث تيمبل.

ظهرت جوانا كروفورد عند زاوية الفندق وهي تحمل سلة مشتريات، وبزت من أمامهما وأومأت برأسها ونظرت إليهما بعض الفضول ثم نزلت الشارع. لم يتكلم البروفسور واستيد إلا بعد أن توارت عن الأنظار، قال: فتاة لطيفة، هذا ما انتقده على الأقل. إنها راغبة في الوقت الحالي بأن تكون مرافقة وعاونة لعمتها المسنة، لكني لا أشك في أنها ستصل إلى سن الثورة عليها عما قريب.

قالت الآنسة مارييل غير آبهة حالياً باحتمال ثورة جوانا: ماذا كنت تقصد بالذي قلته قبل قليل؟

- ربما توجب علينا مناقشة هذه المسألة على ضوء ما حدث.

- أتقصد بسبب الحادث؟

- نعم، إن كان حادثاً فعلاً.

- هل تظن أنه لم يكن حادثاً؟

- أظن أن هذا محتمل، هذا كل ما في الأمر.

قالت الآنسة مارييل متردده: أنا لا أعرف شيئاً عن الأمر الطبي.

- نعم، فأنت لم تكوني هناك. لقد كنت... إن صح التعبير... في مهمة في مكان آخر.

سكتت الآنسة مارييل لحظة، ونظرت إلى البروفسور واستيد مرة أو مرتين ثم قالت: لا أظن أنني أفهم ما تعنيه بالضبط.

- إنك تحاولين أن تكوني حذرة، ولك كل الحق في ذلك.

- لقد جعلتُ من ذلك عادة لي.

- أن تكوني حذرة؟

- لا أريد أن أقول ذلك بالضبط، لكني جعلت مأربي أن أكون مستعدة دائماً لتصديق أو عدم تصديق أي شيء يُقال لي.

- نعم، وأنت محقة في ذلك تماماً. أنت لا تعرفين أي شيء مني. تعرفين اسمي من قائمة الركاب الخاصة برحلة عادية تزور القلاع والبيوت التاريخية والحدائق الرائعة... أظن أن الحدائق هي آخر ما يثير اهتمامك؟

- ربما.

- يوجد هنا أناس آخرون مهتمون بالحدائق أيضاً.

- أو يتظاهرون بالاهتمام بالحدائق.

قال البروفسور وانستيد: آه، لقد لاحظت ذلك إذن؟ لم أقل بشيء. كان دوري (في البداية على الأقل) أن أقوم بملاحظتك ومراقبة ما تفعلينه وأن أكون قريباً منك في حال وقوع أي حادث طارئ مهما كان. لكن الأمور تغيرت قليلاً الآن... يجب أن تقرري إن كنتُ عدواً لك أو حليفاً.

قالت الآنسة ماربل: ربما تكون على حق. لقد أوضحت لي الأمر تماماً، ولكنك لم تقدم لي معلومات عنك -بعد- حتى أحكم عليك. أظن أنك كنت صديقاً للسيد رافائيل؟

- لا، لم أكن صديقاً للسيد رافائيل. لقد التقيته مرة واحدة أو مرتين فقط؛ مرة في اجتماع لجنة إحدى المستشفيات ومرة في مناسبة عامة أخرى. كنت أعرف عنه، وأظن أنه كان يعرف عني أيضاً. إذ قلت لك -يا آنسة ماربل- إنني رجل بارد في مهنتي. فربما ظننت أنني رجل مغرور.

قالت الآنسة ماربل: لا أظن ذلك، ما دمت تقول هذا عن نفسك فأظن أنك تقول الحقيقة. ربما تكون طبيباً.

- آه، أنت حادة الملاحظة يا آنسة ماربل. نعم، إنك حادة الملاحظة. أنا أحمل شهادة في الطب، ولكنني متخصص أيضاً. إنني أخصائي في علم الأمراض والتشريح وطبيب شرعي أيضاً. وأنا لا أحمل معي أوراقاً ثبوتية هنا، لذلك ربما كنت مضطرة لقبول كلامي على ظاهره إلى حد ما، رغم أنني أستطيع أن أريك رسائل موجهة لي وربما مستندات رسمية قد تقنعك. إنني أتولى -بشكل رئيسي- عملاً خاصاً له صلة بالطب الشرعي، وحتى أوضح الأمر لك بلغة مفهومة وبسيطة فإنني مهتم بالأنواع المختلفة للعقل الإجرامي. إنني أدرس

هذا الموضوع منذ عدة سنوات، وقد ألفت كتباً في هذا الموضوع أثار بعضها جدلاً عنيفاً، فيما وجد بعضها من يتبنى أفكاري ويتحمس لها. إن لا أقوم هذه الأيام بعمل جاد كثير، بل أتفرغ وأنا في الكتابة عن موضوعي مؤكداً على نقاط معينة خطرت لي، وأعيناً الصادف من الأمور التي أرى أنها مثيرة، وهي أمور أريد دراستها عن قرب أكثر. أخشى أن هذا يبدو لك عملاً مضجراً؟

قالت الآنسة ماربل: أبداً، ربما تستطيع -مما تقوله الآن- أن تشرح لي أموراً معينة رأى السيد رافائيل أن من غير المناسب شرحها لي. لقد طلب مني مباشرة مشروع معين لكنه لم يعطني معلومات عديدة أعمل على أساسها. وترك لي قبول هذا التكليف أو رفضه، مع أنني أجهل كل شيء. وقد بدا لي أن معالجته للأمر بهذه الطريقة أمر بالغ الصداقة.

- تكلمت قبله، أليس كذلك؟

- بلى، قبله. سأكون صادقة معك تماماً: لدي حافز مالي.

- وهل لهذا أهمية عندك؟

سكتت الآنسة ماربل لحظة ثم قالت ببطء: قد لا تصدق ذلك، لكن ردي على هذا هو أنه لا يهمني حقيقة.

- لم يفاجئني جوابك هذا، ولكن ما تريدين قوله هو أن اهتمامك قد تضاءل نتيجة المكافأة.

- نعم، لقد زاد اهتمامي. لم أعرف السيد رافائيل معرفة جيدة وإنما عرفته لفترة محددة من الزمن، والواقع أنها بضع أسابيع فقط...

في جزر الهند الغربية. أرى أنك تعلم عن هذا الأمر قليلاً أو كثيراً.

– أعرف أنك التقيت بالسيد رافائيل هناك حيث تعاونتما معاً.

نظرت الآنسة ماربل إليه بارتياب، ثم قالت: آه، هل قال لك هذا؟

ثم هزت رأسها أسفاً. قال البروفسور والسنيد: نعم، قال لي. قال لي إن لك موهبة بارزة في الأمور الجنائية.

رفعت الآنسة ماربل حاجبيها دهشة ونظرت إليه، قالت: أظن أن ذلك يبدو لك بعيد الاحتمال، أرى أنه قد فاجأك.

– نادراً ما أسمح لنفسي بأن أفاجأ بما يحدث. كان السيد رافائيل ذكياً جداً وداهية وذا حكم صائب على الناس، وكان يرى أنك أنت أيضاً ذات حكم صائب على الناس.

– أنا لا أعتبر نفسي جيدة في الحكم على الناس، إنما أقول إن بعض الناس يذكرني ببعض الناس الآخرين الذين عرفتهم، ولذلك أستطيع أن أفترض مسبقاً وجود تشابه معين في الطريقة التي يتصرفون فيها. إذ كنت تعتقد بأني أعرف كل شيء عن السبب الذي يفترض أنني هنا من أجله فأنت مخطئ.

– يبدو أننا جلسنا هنا لساعة أكثر منها تقريباً- في مكان مناسب نستطيع فيه مناقشة أمور معينة. لا يبدو أن أحداً يراقبنا ولا يمكن لأحد أن يتنصت علينا بسهولة ولسنا قريبين من نافذة أو باب ولا توجد أية شرفة أو نافذة فوقنا... الواقع أننا نستطيع أن نتحدث

قالت الآنسة ماربل: سيسعدني ذلك، إنني أؤكد على حقيقة أني أجهل تماماً ما تقوم به أو ما يفترض التي أقوم به... لا أعرف إذا أراد السيد رافائيل أن تجري الأمور بمثل هذا الأسلوب.

– أظن أني أستطيع تخمين السبب. لقد أراد أن تتداولي مع نوعاً محددة من الحقائق والأحداث دون أن تتأثري بأقوال الناس أو لا.

بدت الآنسة ماربل خائفة وقالت: أي أنك لن تخبرني شيئاً أنت نفسك؟ عجباً! إن ذلك شيء جداً.

– نعم.

قالها البروفسور والسنيد، ثم ابتسم فجأة قائلاً: أوقفك الرأي، بسبب أن نزول بعض هذه الحدود، سأخبرك بحقائق محددة توضح لك الأمور بشكل جيد، وأنت بدورك قد تستطيعين إخباري بحقائق معينة.

قالت الآنسة ماربل: أتشك في ذلك، ربما كانت عندي بعض المؤشرات الغريبة نوعاً ما، ولكن المؤشرات ليست حقائق.

قال البروفسور والسنيد: ولذلك...

ثم سكت، فقالت الآنسة ماربل بلطف عليك، أخبرني شيئاً ما!

* * *

الفصل الثاني عشر

استشارة

قال البروفسور واستيد: لن أجمل من الأمر فعلة طريقة سأشرح لك -ببساطة- كيف دخلت في هذا الأمر. إني أعمل مستشاراً سرياً لوزارة الداخلية من وقت لآخر، كما أني على اتصال بمؤسسات معينة. توجد بعض المؤسسات التي تقدم في حالة حدوث جريمة المأوى والإقامة لنوع من المجرمين الذين تتم إدانتهم بأعمال معينة، إنهم يعيشون في تلك المؤسسات تحت ما يسمى «أمر مراقبة البوليس» لفترات محددة من الزمن، وأحياناً حسب أعمارهم. وإذا كانوا دون سن معينة فيجب استقبالهم في مكان محدد يتم احتجازهم فيه... لا شك أنك تفهمين هذا.

- نعم، أفهم ما تقصده تماماً.

- في العادة يتم استشاري فور وقوع جريمة حتى أحكم على بعض الأمور، كأسلوب التعامل والاحتمالات الموجودة في القضية وما يمكن أن يحدث... وهي أمور لا تهم كثيراً ولذلك فلن أطيل فيها. كما تتم استشاري أيضاً من وقت لآخر من قبل مسؤولي هذه

المؤسسات من أجل غرض معين. في هذه المسألة تلقيت بلاغاً من مدير معينة وصلت إلي عن طريق وزارة الداخلية، فذهبت لزيارة المؤسسة. والواقع أن الحاكم المسؤول عن السجون أو المراقبين... سمّهم ما شئت من تسميات، وقد كان صديقاً لي، صديقاً قديماً طويلة رغم أنه لم تكن تربطني به علاقة حميمة جداً. ذهبت إلى تلك المؤسسة ووضع الحاكم مشكلته أمامي. كانت مشكلة تتعلق بالمال، ولم يكن الحاكم مقتنعاً بأمر هذا النزيل، بل كانت تراوده بعض الشكوك. كانت تلك قضية نزيل شاب أو نزيل كان شاباً، وفي الواقع أنه كان أقرب إلى صبي عندما جاء إلى تلك المؤسسة. كان ذلك منذ عدة سنوات، ومضت السنون بعد ذلك، وبعد أن تولى الحاكم الحالي عمله الجديد هناك شعر بالقلق (وهو لم يكن موجوداً من أدخل ذلك النزيل السجن). لم يكن قلقه ناتجاً من كونه مقتنعاً مخترقاً، بل لأنه رجل ذو خبرة بالمرضى والسجناء المجرمين. وحتى أبسط تلك الأمور أكثر: كان ذلك النزيل صبياً ذا ماض غير مرضي أبداً. يمكنك أن تسميه ما شئت: حدث جانح أو منحرف صغير أو صبي شرير أو شخص غير مسؤول... هناك كثير من المصطلحات، يمقتها بطبيعة عليه وبعضها لا ينطبق. كان من النوع الإجرامي، وهو أمر مؤكد. لقد انضم إلى عصابات وقام بضرب آدمي وكان لصاً سرق واختلس وشارك في أعمال نصب واحتيال... لقد كان ذلك الصبي باختصار- مصدر بأس كبير.

قالت الآنسة مارپل: آه، فهمت...

- وماذا فهمت يا آنسة مارپل؟

- أظنك تتحدث عن ابن السيد رافتيل.

- أنت على حق تماماً، إنني أتكلم عن ابن السيد رافائيل. ما الذي تعرفت عنه؟

- لا شيء. لقد سمعت بالأمس فقط أن للسيد رافائيل ولداً جانحاً أو غير شرعي، إذا ما أردنا تخفيف وقع الكلمة. كان ولداً ذا سجل إجرامي. وقد عرفت عنه القليل جداً. هل كان ابن السيد رافائيل الوحيد؟

- نعم، كان الابن الوحيد للسيد رافائيل، لكن كانت للسيد رافائيل ابنتان غيره، إحداهما ماتت وهي في الرابعة عشرة من عمرها والكبرى تزوجت لكنها لم ترزق بأطفال.

- هذا محزن جداً له.

قال البروفسور واستيد: ربما، من يدري؟ لقد توفيت زوجته وهي صغيرة، وأظن أن وفاتها قد سببت له حزناً بليغاً على الرغم من أنه لم يكن مستعداً أبداً لإظهار ذلك. لا أعرف إلى أي مدى كان مهتماً بابنه وابنته. كان يحبهم، وقد بذل جهده من أجلهم، بذل ما في وسعه من أجل ابنه لكننا لا نعرف حقيقة مشاعره. لم يكن من السهل معرفة مشاعره، وأظن أن عمله وجميع المال كانا محور حياته واهتماماته. كان جمع المال والعمل له هو ما يهمه وليس المال بحد ذاته، كان يستمتع بجمع المال وبحبه، ولم يكن يفكر بالكثير من الأمور الأخرى.

أظن أنه فعل كل ما استطاعه من أجل ابنه، لقد أنقذه من المآزق والورطات التي وقع فيها عندما كان في المدرسة واستخدم أفضل المحامين لتخليصه من المحاكم عندما كان ذلك ممكناً، لكن الفترة

النهاية جاءت، وربما كانت الصدمة قبلها قد أثرت بوفوعها. أحد الصبي إلى المحكمة بتهمة الاعتداء على فتاة صغيرة، وقيل إنه كان اعتداء واغتصاباً، وظل مدة في ذلك السجن رغم الرأفة التي عومل بها بسبب صغر سنه، ولكن بعد ذلك أدين بتهمة أخرى خطيرة جداً.

قالت الآنسة ماربل: قتل فتاة، أليس هذا صحيحاً؟ هذا ما سمعته.

- لقد استدرج فتاة للخروج معه بعيداً عن بيتها، وقد وجدوا جثتها بعد وقت طويل. كانت مخنوقة وقد شُوِّه وجهها واهتصت ملابسه بسبب ضربه بأحجار كبيرة، وربما كان ذلك حتى لا يتعرف أحدٌ على هويتها.

قالت الآنسة ماربل باللهجة التي تستخدمها العجائز إزاء مثل هذه الفظائع: لم يكن ذلك عملاً لطيفاً.

نظر البروفسور واستيد إليها بعض الوقت ثم قال: هكذا تصفين الحادث؟

- هذا ما يبدو لي. لا أحب مثل هذه الجرائم، ولم أحبها أبداً. إن كنت تتوقع مني أن أتعاطف بالعاطفة والأسف وأنسب الأمر إلى الطفولة البائسة وأليوم البيئة السيئة، وإن كنت تتوقع مني أن أبكي عليه فإنني لا أميل إلى الشعور بمثل هذه الأمور تجاه هذا القاتل الصغير. أنا لا أحب الأشرار الذين يقومون بالأعمال الشريرة.

قال البروفسور واستيد: بل أنا مسرور لسماع هذا. لا يمكنك أن تصدقي ما أعانيه في عملي من أناس يتحيزون ويتعرزقون بأسنتهم

قالت الآنسة ماربل: هذا مثير جداً. نعم، أعتبره مثيراً جداً فعلاً... أقصد الحاكم... كان رجلاً غريباً، رجلاً يحب العدالة. إنه رجل يرغب الإنسان في الاستماع إليه. وإذا افترض أنك قد استمعت له؟

- نعم، كانت لديه الأهمية. رأيت التزيل مادة الدراسة كما ..اسبيه، وقد دخلت إليه من مداخل وزوايا مختلفة عديدة، تحدثت معه وناقشت معه النظريات الكثيرة المحتمل أن تحدث في القانون. قلت له إن من الممكن إحضار محام ليرى النقاط التي يمكن أن تكون موجودة لصالحه، إلخ. ذهبت إليه بصورة صديق ثم ذهبت إليه بصورة محامٍ لأرى كيف سيكون رد فعله نحو هذه المداخل المختلفة، كما قمت أيضاً بعمل الكثير من الاختبارات الجسدية التي نستخدمها كثيراً هذه الأيام. ولن أناقش هذه الأمور معك لأنها فنية صرفة.

- وما الذي توصلت إليه في النهاية؟

- لقد رأيت... رأيت أن المرجح هو أن صديقي على حق: لم أر مايكل رافنيل قاتلاً.

- وماذا عن القضية الأولى التي ذكرتها؟

- كانت تديه بالطبع. ليس في ذهن المحلفين لأنهم لم يسمعوا عنها إلا بعد أن استعرض القاضي الأدلة، ولكن تلك السابقة أدانته في ذهن القاضي بالتأكيد. كانت القضية تديه، ولكني قمت ببعض التحقيقات والاستشارات بعد ذلك. لقد اعتدى على فتاة ولكنه لم يحاول خنقها، وأظن -مما شاهدته في المحاكم كثيراً- أن من غير المحتمل وجود قضية اعتداء واضحة ضده أصلاً. فقد كان للفتاة

ويعود كل شيء إلى أمور حدثت في الماضي. لو علم الناس بالحياة السيئة التي عاش فيها الناس والقسوة والمصاعب التي واجهتهم في حياتهم وحقيقة أنهم مع ذلك خرجوا من تجاربهم مستقيمين شرفاء لما نبذوا وجهة النظر المعادية تلك! إن الحاكم رجل خبير، وقد أعجبني بالضبط لماذا هو مهتم كثيراً بمعرفة ماكيي.

- وماذا حصل بعد ذلك؟

- شعر الحاكم بصورة متزايدة من خلال خبرته ومشاهدته لهذا السجين بالذات بأن الولد لم يكن قاتلاً. لم يزد نمط القتل، ولم يكن يشبه أي قاتل رآه من قبل. كان يرى أن الولد مجرم لا يمكن إصلاحه مهما أعطي له من علاج وأنه لن يصلح نفسه أبداً وأنه لا يمكن عمل شيء له، لكنه شعر -في الوقت ذاته- شعوراً متزايداً بأن الحكم الذي صدر على الصبي كان حكماً خاطئاً. لم يصدق أن الولد قد قتل فتاة، أنه عنفها أولاً ثم شوّه معالم وجهها بعد أن ألقى بجثتها في حفرة؟ إنه لم يستطع إقناع نفسه بتصديق ذلك، وراجع مراراً حقائق القضية التي كانت تبدو ثابتة ومؤكدة: فقد عرف الولد تلك الفتاة وشوهد معها في مناسبات مختلفة قبل وقوع الجريمة، وقد شوهدت سيارته في منطقة قريبة وهو نفسه تم التعرف عليه. كانت قضية واضحة تماماً، لكن صديقي لم يكن راضياً عنها كما قال. كان رجلاً ذا حس قوي جداً بالعدل، وكان يريد رأياً مختلفاً. لم يكن ما أراده -في الواقع- هو رأي الشرطة الذي كان يعرفه، وإنما وجهة نظر فنية مهنية، وقال لي إن ذلك هو مجال اختصاصي. أرادني أن أرى هذا الشاب وأتحدث معه وأزوره وأقوم بدراسة عملية لتقييم حالته لكي أعطيه بعد ذلك رأيي بالأمر.

موضوع الحديث عدة أصدقاء من الشباب ممن ذهبوا بعلاقاتهم معها إلى أبعد من الصداقة البريئة، ولم أر أن تلك العلاقة تعتبر دليلاً يدينه. أما قضية القتل العمد (وقد كانت فعلاً قضية قتل لا شك فيها) فقد بقيت أشهر -نتيجة لكل الفحوصات، الفحوصات الجسدية والنفسية والعقلية- بأن أياً منها لا يمكن أن يتطابق مع هذه الجريمة بالذات.

- وماذا فعلت بعدها؟

- اتصلت بالسيد رافائيل وأخبرته بأنني أريد لقاءه بخصوص مسألة معينة تتعلق بابنه. ذهبت إليه، وأخبرته بما كنت أعتقد، وبرأي المحاكم وبأنه ليس لدينا دليل وأنه لا توجد أسباب تبرر طلب استئناف الحكم في الوقت الحالي، ولكني أخبرته أنا نعتقد أن خطأ في الحكم قد حدث. قلت له إن من الممكن إجراء تحقيق وقد يكون ذلك عملاً مكلفاً، وقد يُظهر حقائق محددة يمكن وضعها أمام وزارة الداخلية، وقد تكون ناجحة وقد لا تكون. قد يوجد شيء ما، دليل ما لنبحث عنه. قلت إن البحث عنه قد يكون مكلفاً، ولكني أظن أن ذلك لا يهم رجلاً في مثل وضعه. كنت قد أدركت -وقتها- أنه رجل مريض، مريض جداً. هو أخبرني بذلك بنفسه، لقد أخبرني بأنه كان يفترض أن يموت منذ فترة، وأن الأطباء حذروه قبل عامين بأنه قد يواجه الموت بعد سنة، لكنهم أدركوا بعد ذلك أنه قد يعيش فترة أطول بسبب قوته الجسدية غير العادية. وسألته عن شعوره تجاه ولده.

- وماذا كان شعوره تجاه ولده؟

- آه، تريدين معرفة ذلك؟ هذا ما أردته أنا أيضاً. أظن أنه كان صادقاً معي إلى أبعد حد بالرغم...

قالت الآنسة ماربل: بالرغم من قسوته، أليس كذلك.

- بلى يا آنسة ماربل، أنت تستخدمين الكلمة الصحيحة؛ كان قاسياً، لكنه كان عادلاً وصادقاً، قال: لقد عرفت حقيقة ابني منذ سنوات عديدة. لم أحاول تغييره لأنني لا أرى أن بإمكان أي شخص تغييره، إنه من جبلة سيئة، إنه منحرف وسيء وسوف يقع في المشكلات دائماً. إنه غير مستقيم ولا أحد يستطيع تقويمه، أنا واثق من هذا تماماً. ولقد فعلت ما في وسعي مع رغم أنني لم أتحلّ عنه مؤخراً أو ظاهرياً، فقد كان يحصل على المال عندما يطلبه ويحصل على المساعدة القانونية وغير القانونية عندما يقع في مشكلة. لقد عملت دائماً كل ما أستطيعه لتحوه. لو كان لي ابن مشلول أو مريض أو مصاب بالصرع فإنني سأعمل كل ما أستطيع من أجله، ولو كان لدي ابن مريض يعرض أخلاقي مثلاً ولا يرجى منه شفاء فإنك ستفعل أيضاً ما تستطيعه من أجله، لا أكثر ولا أقل. ما الذي أستطيعه الآن من أجله؟

وقلت له إن ذلك يعتمد على ما يريد عمله، فقال: لا توجد مشكلة في هذا، أنا رجل مفقد، ولكني أعرف ما أريد عمله تماماً، أريد إثبات براءته، أريد إطلاق سراحه من السجن. أريده حراً ليواصل حياته بأفضل ما يستطيع. لو أن رجلاً آخر هو الذي قتل تلك الفتاة فإنني أريد إظهار هذه الحقيقة، أريد العدالة لمايكل، لكني رجل متقدم عاجز. إنني مريض جداً وعمري الآن لا يقاس بالسنوات أو الشهور ولكن بالأسابيع.

وقلت له إنني أعرف مكتب محامين فتاطمي قائلاً: محاموك سيكونون هديتي القادمة. يمكنك أن تكافئهم بالأمر، ولكنهم لن

بلبدوك. يجب أن أرتب ما يمكنني ترتيبه في مثل هذا الوقت الضيق.

ثم عرض علي مكافأة كبيرة لأتولى البحث عن الحقيقة وأقوم بأي عمل ممكن دون الالتفات إلى النفقات. وقال: "لن أستطيع عمل شيء". فالعودت قد يأتيني في أية لحظة. إنني أثقت كمساعد لي في هذا العمل وسأحاول العثور على شخص لمساعدتك". ثم كتب لي اسماً على ورقة، الآنسة جين ماربل، وقال: "لن أعطيك عنوانها، أريدك أن تقابلها في مقطفة اعتزالها لنا". ثم أخبرني بعدها عن هذه الرحلة، هذه الرحلة الجذابة الرائعة البرية إلى البيوت التاريخية والقلاع والحدائق، وقال إنه سيحجز لي فيها مقدماً بتاريخ محدد، وقال: ستكون الآنسة جين ماربل في تلك الرحلة أيضاً، وسوف تقابلها هناك. ستقابلها بطريقة عرضية، ولذلك سيبدو واضحاً للجميع أن لقاءكما كان عرضياً.

وكان علي أن أختار بنفسي التوقيت المناسب لأعرفك بنفسي إذ رأيت أن هذه هي أفضل طريقة. لقد سألني إن كان لدي -أنا أو صديقي المحامي- أي سبب يدعو للشك في شخص أو معرفة شخص آخر قد يكون مسؤولاً عن هذه الجريمة. إن صديقي المحامي لم يقل شيئاً من هذا بالتأكيد، وقد درس هذه المسألة مع ضابط الشرطة الذي كان يتولى التحقيق في القضية. وكان ذلك الضابط مفتشاً قديراً جداً ذا خبرة طويلة وجيدة في هذه الأمور.

- ألم يطرح اسم أي رجل آخر؟ صديق آخر من أصدقاء الفتاة؟ صديق سابق للفتاة ثم استبدلته بصديق جديد؟

- لم يطرح أي أمر من هذا القبيل. وطلبت منه أن يخبرني عنك

شيئاً لكنه لم يوافق على ذلك، فقط أخبرني أنك كبيرة بالسن وقال لي إنك امرأة ذات دراية بالناس. لكنه أخبرني شيئاً آخر...

سكتت، تقالت الآنسة ماربل: ما هو هذا الشيء؟ إن لدي شيئاً من الفضول الفطري لكني لا أستطيع رؤية أية ميزة أخرى عندي. إن سمعي ثقيل ونظري ليس قوياً كما كان، والواقع أني لا أجد في نفسي أي ميزات باستثناء أنني قد أبدو صغيرة وساذجة وثرثارة... وبما كنت عجوزاً ثرثارة بالفعل. هل هذا ما قاله؟

- لا، لقد قال إن لديك حاسة مرهفة جداً في إدراك الشر.

- آه.

فوجئت الآنسة ماربل، وكان البروفسور والسيد براتيها. قال: هل هذا صحيح؟

سكتت الآنسة ماربل فترة طويلة نسبياً، ثم قالت: ربما كان الأمر كذلك. نعم، ربما. لقد أحسست بوجود الشر في أوقات مختلفة عديدة من حياتي، كنت أدرك أن هناك شراً في منطقتي ومحيطي، أن البيئة المحيطة بشخص شرير ما قربي ذات علاقة بما يحدث من أمور.

نظرت إليه وابتسمت، ثم قالت: إن ذلك أشبه بمن يولد ولد حاسة شم قوية. يمكنك أن تشم رائحة غاز مشروب عندما لا يستطيع الآخرون ذلك، تستطيع أن تميز عطراً عن آخر بسهولة... كانت لي عمة تقول إنها تستطيع أن تشم الكذبة عندما يروجها الناس، وقالت إن رائحة مميزة تصلها آنذاك، إذ تنتشر أبخرة الكاذبين ثم تأتي الرائحة! لا أدري إن كان هذا صحيحاً أم لا، لكنها لفتت النظر إليها في آخر

من مزاء قالت لعمي ذات مرة: "لا تشغل بالك يا جلال- ذلك الشاب الذي كنت تتحدث معه هذا الصباح، لقد كان يكذب عليك طوال حديثه"، وقد اتضح أن ما قالته كان صحيحاً.

قال البروفسور واستيد: إحساس بالشر... إن كنت تحسين بالشر فأخبريني، سأكون مسروراً أو عرفت. لا أظن أن لدي إحساساً خاصاً بالشر، ربما كان لدي إحساس بالعرض الذي أنا فيه هنا فلا أستطيع إدراكه.

نظر على رأسه وهو يشير إلى مكمن الشر، وقالت الآنسة مارپل: من الأفضل أن أخبرك الآن باختصار كيف دخلت في هذا الأمر، فقد تولى السيد رافائيل كتماً لعلمي، وطلب مني محاباه أن أذهب لمقابلته حيث أبلغني بعرضه. تلقيت رسالة منه لم تشرح أي شيء، وبعد ذلك مرّت مدة لم يصلني خلالها شيء، ثم تلقيت رسالة من الشركة التي تدير هذه الرحلات تقول إن السيد رافائيل قد حجز لي قبل وفاته في هذه الرحلة لأنه يعرف حبي لمثل هذه الرحلات وأنه كان يريد أن يفاجئني بها هدية. لقد دُهشت كثيراً لكني اعتبرتها مؤشراً للخطوة الأولى التي كان علي القيام بها؛ كان علي أن أذهب في هذه الرحلة وكان يُفترض أن أعرف في أثنائها مؤشراً آخر أو تلميحاً أو مفتاحاً أو توجيهاً لحل اللغز. وأظن أن ذلك ما حصل بالأمس، لا، بل في اليوم الذي قبله؛ استيقظتُ عند وصولي إلى هنا لكلات سيدات يعشن في بيت عزبة قديمة هنا وقدمن لي دعوة للإقامة معهن، وتبين إن السيد رافائيل كتب لهن رسالة قبل وفاته بمدة يقول فيها إن امرأة مسنة صديقة له ستحضر في هذه الرحلة. وطلب منهن استضافتي يومين أو ثلاثة أيام لأني -كما قال- لا أستطيع تحمل مشاق تسلق هذه

الدرجات الصخرية العالية هنا حيث يوجد في القمة برج تذكاري وهو الهدف الرئيسي لرحلة الأمس.

- وهل أعجبك هذا أيضاً مؤشراً على ما كان عليك فعله؟

قالت الآنسة مارپل: بالطبع، فلا يوجد سبب آخر للدعوة. لم يكن منهن يوزعون الهبات والمنافع بلا مقابل، وليس الموضوع شفقة على عجوز لا تستطيع تسلق المرتفعات. لا، لقد أرادني أن أذهب إلى هناك.

- هل ذهبت إلى هناك؟ إذن ماذا حدث؟

- لا شيء... أخوات ثلاث.

- ثلاث أخوات غريبات الأطوار؟

- كان يُفترض أن يكُنّ كذلك، ولكني لم أرَهُنّ على ذلك النحو. لم يكن ذلك بادياً عليهن على أية حال. لا أعرف حتى الآن، أظن أنهن قد يكنّ كذلك... وربما بدا أنهنّ نساء عاديات، إنهن لا يشعرن بالانتماء لذلك البيت الذي كان ملكاً لعمهن ثم حتى إليه للعيش فيه قبل سنوات، وهن بحالة مادية سيئة بعض الشيء. إنهن لطيفات وودودات لا يُكرِن اهتماماً خاصاً، إلاّ أنهن مختلفات قليلاً بعضهن عن بعض، لا يبدو أنهن كن يعرفن السيد رافائيل جيداً، ولم يبدُ أن أياً من أصدقائي منهن قد جاء بنتيجة.

- إذن لم تعرفي شيئاً في أثناء إقامتك؟

- عرفت حقائق القضية التي أخبرتني عنها قبل قليل. ليس منهن، بل من خادمة عجوز بدأت تحدثني عن ذكرياتها من زمن

منهن. كانت تعرف السيد رافائيل بالاسم فقط، لكنها كانت فصيحة في سرد وقائع الجريمة: بدأ كل شيء بزيارة ذلك الأجنبي للسيد رافائيل إلى ذلك البيت، وذكرت كيف أن الفتاة وقعت في حبه وأنه قتلها عمداً، وكيف أن الحادث كان رهيباً ومحزناً ومأساوياً. كانت مليئة بالمبالغات لكنها قصة بسيطة، ويبدو أنها ترى أن وجهة نظر الشرطة كانت تقول إن هذه لم تكن جريمة القتل الوحيدة التي ارتكبها...

– وهل ظهر لك ما يربط بين الأحوال الثلاث وبين الجريمة؟

– لا، باستثناء أنهن كن الثلاث على الفتاة وكن يحبينها كثيراً، ليس أكثر من هذا.

– وربما يعرفن شيئاً ما... شيئاً عن رجل آخر؟

– نعم، هذا ما نريده، أليس كذلك؟ الرجل الآخر... رجل وحشي لا يتردد في تهشيم رأس فتاة بعد أن يقتلها، رجل يمكن أن يصبح مسعوراً بسبب الغيرة... يوجد رجال من هذا النوع.

– ألم تحدث أشياء أخرى ملفتة للنظر في بيت العزبة القديمة؟

– لا شيء يستحق الذكر. واحدة من الأخوات أظن أنها أصغرهن، ظلت تتحدث عن الحديقة، بدت وكأنها بستانية ماهرة جداً، ولكنها لم تكن كذلك لأنها لم تعرف أسماء كثير من الأشجار والأزهار، وقد وصفت لها فيما أذكر حيث ذكرت بعض الأشجار النادرة وسألتها إن كانت تعرفها، وقد أجابت بالإيجاب وقالت إنها

كانت زائفة. وقالت أنها إنها لا تتحمل فروق النور القاسية فوافقتني، أعني أنها لم تكن تعرف أي شيء عن النباتات. إن هذا يذكرني...

– يذكرك بماذا؟

– قد يظن أني امرأة سخيفة في تعلقي بالحدائق والنباتات، أعني أريد القول إني أعرف أشياء عنها، أقصد أني أعرف أشياء حول الطيور وأعرف بعض الأشياء عن الحدائق.

– أظن أن الحدائق هي ما يشغلك وليس الطيور.

– نعم، هل لاحظت امرأتين في أواسط عمريهما في هذه الرحلة، الآنسة بارو والآنسة كراك؟

– نعم، لقد لاحظتهما؛ جالستاك في وسط العمر مسافرتان دوماً.

– هذا صحيح، لقد اكتشفت شيئاً غريباً بخصوص الآنسة كراك. هذا هو اسمها، أليس كذلك؟ أقصد أنه اسمها في الرحلة.

– وهل لها اسم آخر؟

– أظن ذلك. إنها المرأة ذاتها التي زارتني... لا أعني أنها زارتني فعلاً لكنها كانت خارج حديقة منزلي في سينت ميري ميد، القرية التي أعيش فيها. وقد عثرت من سروري وإعجابها بالحديقة وتحدثت معي حول تنسيق الحدائق، وقالت لي إنها كانت تعيش في القرية وتعمل في حديقة امرأة انتقلت إلى بيت جديد هناك. أظن... نعم، أظن أن كل ذلك كان كاذباً، فهي الأخرى لم تكن تعرف عن الحدائق شيئاً، كانت تتظاهر بذلك لكنه لم يكن صحيحاً.

- وما هو سبب قدومها إلى هناك بظنك؟

- لم أعرف في ذلك الوقت. قالت إن اسمها هو بازليت، وكان اسم المرأة التي كانت تعيش معها يبدأ بحرف الهاء (مع أني لا أستطيع تذكره في الوقت الحالي). لم تكن تسريحة شعرها هي المختلفة فقط وإنما اختلف لون شعرها أيضاً، وأسلوب لبسها مختلف. لم أعرفها عندما رأيتها في هذه الرحلة أول مرة، إنما تساءلت فقط عن وجهها الذي كان مألوفاً لي بعض الشيء. ثم أدركت فجأة أنني لم أميزها بسبب صبغة شعرها، وتساءلت: أين رأيتها من قبل؟ وقد اعترفت لي بأنها كانت هناك، لكنها تظاهرت بأنها هي الأخرى لم تعرفني. كله كذب.

- وما هو رأيك بذلك كله؟

- أعرف شيئاً واحداً بالتأكيد... لقد عاملت الآنسة كوك (لا تريد أن تسميها باسمها الحالي) إلى حينما جرى قيد لمشاغدتي، حتى تتأكد من قدرتها على تمييزي عندما تلتقي ثانية.

- وما هي ضرورة ذلك؟

- لا أعرف. إن لذلك احتمالين، ولا أظنني لرتاح لأي منهما.

قال البروفسور والسيد: وأنا أيضاً لا أحب أياً منهما.

سكتنا لبعض الوقت، ثم قال البروفسور والسيد: ألست مرتاحاً لما حدث (الإزليت تيميل)، هل تحدثت معها في أثناء هذه الرحلة؟

- نعم، تحدثت. وعندما تتحسن حالتها سأتحدث معها ثانية، يمكنها أن تخبرني... تخبرنا... أشياء عن الفتاة التي قُتلت. لقد تحدثت

معي عن هذه الفتاة التي كانت في مدرستها والتي كانت ستتزوج ابن السيد رافاييل... لكنها لم تتزوجه، فقد ماتت بدلاً من ذلك! وسألتها لماذا ماتت أو لماذا، فأجابتني بكلمة واحدة فقط: «الحب»! وفهمت المعنى على أنه انتحار، لكنه كان جريمة قتل. وربما كان القتل بدافع الغيرة مناسباً لهذه الجريمة. إنه رجل آخر، رجل آخر علينا أن نختر عليه. وقد تستطيع الآنسة تيميل أن تخبرنا عن هو.

- ألا توجد أي احتمالات أخرى تثير بالشر؟

- أظن أن ما نحتاجه حقاً هو مجرد معلومات عرضية. لا أرى سبباً يدعو للاعتقاد بوجود أي دافع شرير بين أي من ركاب الحافلة أو أي دافع شرير بين الساكنات في بيت العزبة القديمة، ولكن ربما كانت واحدة من الأخوات الثلاث تعرف أو تذكر شيئاً مما قالته تلك الفتاة أو مما قاله مايكل ذات مرة. اعتادت أغاثا كريستي على أخذ الفتاة في رحلات خارج البلاد، لذلك قد تعرف شيئاً حدث في إحدى الرحلات الخارجية، شيء قالته الفتاة أو ذكرته أو فعلته في واحدة من هذه الرحلات... رجل معين التقته تلك الفتاة، شيء ليست له علاقة ببيت العزبة القديمة هذا... إنه أمر صعب لأنك لا تستطيع الوصول إلى مفتاح لحل اللغز إلا بواسطة الحديث أو المعلومات العرضية فقط. أما الشقيقة الثانية، السيدة غلين، فقد تزوجت في سن مبكر تماماً وقضت زمناً طويلاً في الهند وإفريقيا. ربما سمعت شيئاً من خلال زوجها أو أقارب زوجها أو من خلال أشياء مختلفة ليس لها صلة ببيت العزبة القديمة (رغم أنها كانت تزوره من وقت لآخر) ويفترض أنها كانت تعرف الفتاة. ولكني أظن أن معرفتها بالفتاة لم تبلغ مستوى معرفة أختيها، لكن هذا لا يعني أنها قد لا تعرف بعض الحقائق المهمة عن الفتاة. الأخت الثالثة مشوشة التفكير وأكثر التصاقاً

يزوج الممثلة وابنتها من أختها، ولا يبدو أنها كانت تعرف الفتاة جيداً. ومع ذلك فقد تملك هي الأخرى معلومات عن وجود أصدقاء محتملين للفتاة... أو أن تكون قد رأت الفتاة مع رجل مجهول. ما هي -بالمناسبة- تعرّ من أمام الفندق الآن.

إن الآنسة ماربل -رغم انشغالها بالحديث مع الرجل- لم تستطع التخلي عن عادات لازمتها طوال حياتها. فقد كان مجلوسها في مكان محلل على شارع عام يُعتبر دوماً نقطة مراقبة يتجمع فيه المارة لرؤية أية لا تخطئ، سواء أكانوا مسرعين أو متمهلين.

- إنها أنثى سكوت، تلك التي تحمل الكيس الكبير. أظن أنها ذاهبة إلى مكتب البريد. إنه عند الزاوية، أليس كذلك؟

قال البروفسور والستيد: يبدو لي معقولة تماماً. بكل هذا الشعر الهائل... شعر رمادي أيضاً. إنها أنيه بأوفيليا شكسبير ولكن في الخمسين من عمرها.

- أنا أيضاً فكرت بأوفيليا عندما رأيتها أول مرة! آه، ليتني كنت أعرف ما يترتب عليّ عمله الآن. هل أبقى هنا في الفندق يوماً أو يومين أم أواصل الرحلة في الحافلة؟ إن الأمر أشبه بالبحث عن إبرة في كومة من قش، إذا أدخلت أصابعك فيها لفترة طويلة فلا بد أن تخرج بشيء... حتى وإن وخزتك الأشواك في نهاية ذلك.

* * *

الفصل الثالث عشر

مربعات سوداء وحمراء

عادت السيدة ساندبورن بينما كانت المجموعة تتجمع على مائدة الغداء. ولم تكن أخبارها طيبة. فالآنسة تيمبل ما زالت فاقدة الوعي وهي لن تستطيع الحراك لعدة أيام بالتأكيد.

وبعد أن قدمت نشرتها حولت السيدة ساندبورن الحديث إلى الأمور العملية، فقدّمت جداول رحلات القطارات للذين يرغبون بالعودة إلى لندن واقترحت خططاً مناسبة لاستئناف الرحلة صباح الغد أو في اليوم الذي يليه. كانت معها قائمة برحلات قصيرة مناسبة إلى مناطق قريبة بعد ظهر اليوم، مجموعات صغيرة في سيارات مستأجرة.

سحب البروفسور والستيد الآنسة ماربل جانباً وهما خارجان من قاعة الطعام وقال: ربما تريدين الراحة بعد ظهر اليوم، إذا كنت لا تريدين الراحة فسوف آتي عليك هنا بعد ساعة. بالقرب من هنا توجد كنيسة رائعة ربما رغبت في رؤيتها.

قالت الآنسة ماربل: سيكون ذلك جميلاً جداً.

* * *

جلست الآنسة ماربل هادئة في السيارة التي جاءت لتأخذها، كان البروفسور واستيد قد جاء لأخذها في الموعد الذي ذكره، وقال لها: رأيت أنك ربما كنت مهتمة برؤية هذه الكنيسة بالذات، والقرية الجميلة جداً أيضاً. لا يوجد ما يمنعنا من الاستمتاع بالمناظر المحلية حيث نستطيع.

قالت الآنسة ماربل: هذا لطف كبير منك.

ثم نظرت إليه بواحدة من نظراتها المرتجفة تلك وقالت: لطيف جداً، إلاّ أن الأمر يبدو... لا أريد أن أقول إنه غير لائق، ولكنك تعرف ما أعنيه.

- يا سيدتي العزيزة، إن الآنسة تيمبل ليست صديقة قديمة من صديقاتك، رغم كل ما يثيره الحادث من أسف وحزن.

قالت الآنسة ماربل ثانية: هذا لطف كبير منك.

وكان البروفسور واستيد قد فتح باب السيارة للآنسة ماربل قبل أن تدعوها. لاحظت أنها سيارة مستأجرة، فكرة لطيفة أن يأخذ عجوزاً لرؤية المناظر والمواقع القريبة. كان بإمكانه أخذ سيدة أصغر منها سناً وأكثر تسلية، وربما أجمل منها. ونظرت إليه نظرات متأملة وهما يطلقان في شوارع القرية. لم يكن ينظر إليها بل كان ينظر خارج نافذته.

وعندما خرجت السيارة من القرية وسارت على طريق ريفي رديء، انكمشت جول جانب الهضبة التفتت إليها وقال: أخشى أننا لن نذهب إلى الكنيسة.

- نعم، لقد قلتِ أننا لن نذهب إلى هناك.

- كان من شأنك أن تحتجي ذلك.

- هل لي أن أسألك إلى أين سنذهب؟

- سنذهب إلى مستشفى في كاريستاون.

- آه، نعم، المستشفى الذي أعادوا الآنسة تيمبل إليه؟

كان سؤالاً، برغم عدم الحاجة إليه. قال: نعم، لقد رأيتها السيدة ماكدونالد وجاءتني برسالة من إدارة المستشفى، وقد أخبرت بعض مكالمة هاتفية.

- هل تحسن حالتها؟

- لا، إنها لا تتحسن بشكل جيد.

- فهمت، على الأقل... أتمنى لو أنني لا أفهم.

- إن شفاءها مسألة شاقة، ولكنهم لا يستطيعون عمل شيء لها. قد لا تعيق من غيبوبتها لكنها قد تعيق في نوبات قليلة.

- وما أنت تصطحبني إلى هناك؟ لماذا؟ لست صديقة لها كما تعرف، لقد التقيتها أول مرة في هذه الرحلة.

- نعم، أعرف هذا. سآخذك إلى هناك لأنها طلبت في إحدى نوبات الإفاقة.

- ولكن عجباً، لماذا عساها تطلبني أنا بالذات؟ لماذا فكرت أنني... أنني قد أفيدها أو أفعل لها أي شيء؟ إنها امرأة ناقدة البصيرة، امرأة عظيمة في مجالها، وعندما كانت مديرة مدرسة فالوفيلد احتلت موقعاً بارزاً في مجال التعليم.

- ألعل أن مدرستها كانت أفضل مدرسة للبنات؟

- نعم، كانت ذات شخصية عظيمة. وهي نفسها امرأة عالمة، كانت متخصصة بالرياضيات، لكنها كانت بارعة في مجالات عديدة أيضاً... كانت مربّية بحق. كانت مهتمة بالتربية والتعليم وبالأمور التي تصلح للفتيات وكيفية تشجيعهن، أشياء كثيرة أخرى. لو ماتت سيكون أمراً محزناً وقاسياً، ستفقد امرأة مهمة، رغم أنها قد تقاعدت من إدارة المدرسة إلا أنها ما زالت تمارس الكثير من الصلاحيات. هذا المجاور...

سكتت الآنسة ماربل، ثم أضافت: ربما كنتَ غير راغب في مناقشة الحادث؟

- بل أعتقد أن من الأفضل أن نناقشه. لقد سقط حجر كبير من جانب الهضبة، والشائع أن ذلك كان يحدث من قبل ولكن على فترات متباعدة جداً. ومع ذلك فقد جاء شخص وحدثني عن الأمر...

قالت الآنسة ماربل: جاء وتحدث معك بخصوص الحادث؟ من هو؟

- الشاب، جوانا كراوفورد وإيملين برايس.

- وماذا قالا؟

- أخبرتني جوانا بأن لديها انطباعاً عن وجود شخص على جانب الهضبة في ذلك الوقت، في مكان مرتفع. كانت تسلق الهضبة مع إيملين من الممر الرئيسي السفلي الذي يدور حول الهضبة في

... مخرج وعر، وعندما انعطفا عند إحدى الزوايا رأت بالتأكيد ... في أعلى الهضبة أو امرأة كانت تحاول دحرجة حجر كبير ... الأرض. كان الحجر ثقيلاً لا يستجيب للدفع، ولكنه بدأ أخيراً ... بطيئاً في البداية ثم ازدادت سرعته على سطح الهضبة. وكانت الآنسة إيميل تسير على الممر الرئيسي أسفل الهضبة، وقد وصلت إلى نقطة تحت الحجر مباشرة عندما أصابها. لو كان ذلك عملاً ... لكان من الممكن أن لا ينجح، وربما أخطأها... لكنه نجح. ... كان ما حصل محاولة اعتداء متعمدة على المرأة التي تسير أسفل الطريق فإنها محاولة ناجحة جداً.

سألت الآنسة ماربل: هل كان ما شاهداه رجلاً أم امرأة؟

- لسوء الحظ فإن جوانا كراوفورد لم تستطع الجزم، ومهما كان فإنه كان يرتدي بنطال جينز أو بنطالاً عادياً وبلوزة صارخة اللون ذات مربعات حمراء وسوداء. ثم استدار ذلك الشخص وابتعد عن النظر على الفور تقريباً، وكانت تميل إلى أنه رجل لكنها لم تكن متأكدة.

- وهل تعتقد هي أو أنت أنها محاولة متعمدة للاعتداء على حياة الآنسة إيميل؟

- كلما فكرت الفتاة في الأمر أكثر كلما ازدادت اقتناعاً بأن ذلك كان محاولة متعمدة للقتل، والشاب يوافقها الرأي.

- ألا تعرف أنت من يمكن أن يكون؟

- لا أعرف أبداً، وهما لا يعرفان أيضاً. قد يكون واحداً من زملائنا الزكاب، شخصاً خرج يتمشى بعد ظهر ذلك اليوم متلاً

وقد يكون شخصاً لا تعرفه أبداً وكان يعرف أن الحافلة ستتوقف هنا واختار هذا المكان ليقوم باعتداء على واحد من الركاب. قد يكون شاباً يحب العنف لمجرد العنف أو قد يكون عدواً.

قالت الآنسة ماربل: يبدو الأمر ميلودرامياً جداً إذا قلنا إنه مجنون سيري!

– نعم، فمن ذا يريد قتل مديرة مدرسة محترمة متقاعدة؟ هذا سؤال نريد جواباً عليه. ربما تستطيع الآنسة تيمبل نفسها إخبارنا، وهو احتمال صحيح. ربما عرفت ذلك الشخص الذي يقف أعلى منها أو ربما كانت تعرف شخصاً يحمل لها الضغينة لسبب معين.

– ما زال الأمر يبدو غير محتمل.

قال البروفسور واسترد: أتفق معك في الرأي، تبدو شخصية لا تصلح لأن تكون ضحية اعتداء أبداً، ولكن مع ذلك وعندما يفكر المرء فإنه يرى أن مديرة أية مدرسة تعرف أناساً كثيرين جداً. أناس كثيرون جداً مروا من تحت يديها (إن صح هذا التعبير).

– تقصد أن كثيراً من الفتيات تحززن على يديها؟

– نعم، نعم، هذا ما قصدته. فتيات وعائلاتهن، لا بد أن مديرة المدرسة تعرف أشياء كثيرة جداً، علاقات غرامية مثلاً مما يمكن أن تكون بعض الفتيات قد تورطن فيها دون معرفة أولياء أمورهن... هذا يحدث كما تعرفين، يحدث في الغالب، وخصوصاً في هذين العقدين الأخيرين، وهو يؤدي أحياناً إلى وقوع مأساة وأحياناً أخرى إلى ما هو أبعد من المأساة.

– هل تفكر في قضية معينة؟

– لا، لا، ليس ذلك حقيقة. إنني أفكر مجرد تفكير، أو لعل إني أثير الاحتمالات لمجرد التفكير في ذاتي. لا يمكنني أن أصدق أن إرانيث تيمبل لها عدو شخصي، عدو عديم الرحمة إلى حد يرغب جداً في انتهاز فرصة لقتلها. إن ما أراه بالفعل...

نظر إلى الآنسة ماربل ثم أضاف: هل تودين تخمين ما أراه؟

– أتعني تخميناً باحتمال معين؟ حسناً، أظن أني أعرف أو أخمن ما ترمي إليه. إنك تريد أن تقول إن الآنسة تيمبل كانت تعرف شيئاً أو تعرف حقيقة معينة أو معلومة قد تكون خطراً على شخص ما لو كشفت الأمر.

– نعم، هذا ما أشعر به بالضبط.

قالت الآنسة ماربل: في هذه الحالة يبدو واضحاً أن في مجموعتنا السياحية شخصاً كان يعرف الآنسة تيمبل أو يعرف من هي، ولكن بعد مرور بضع سنوات لم تتذكره أو حتى لم تميزه الآنسة تيمبل. يبدو أن هذا يعيدنا إلى زملائنا الركاب، أليس كذلك؟

سكتت قليلاً ثم قالت: تلك البلوزة التي ذكرتها... هل قلت إنها كانت مربعات حمراء وسوداء؟

– آه، نعم، البلوزة...

نظر إليها نظرات فضولية ثم قال: ما الذي أثار انتباهك فيها؟

قالت الآنسة ماربل: كانت ملفتة للنظر، هذا ما جعلني كالمسافة

استجمع كان أمراً يجدر التنويه به، وهذا ما جعل الفتاة جديرة بتذكره على سبيل التحديد.

- نعم، وبماذا يوحي لك هذا؟

قالت الآنسة ماربل متأملة: إن عنفوان الأعلام شيء تتم ملاحظته وتذكره وتمييزه.

نظر البروفسور واستند إليها وقال مشجعاً: نعم؟

- عندما تصف شخصاً رأيته من بعد فإن أول ما تصفه فيه ملابسه، وليس وجهه أو مشيته أو يديه أو قدميه. سوف تصف لون ملابسه بالتحديد ونوعها، فهي شيء يمكن تمييزه بسهولة وملاحظته دون عناء. والفرض منه أنه عندما يخلع ذلك الشخص تلك الملابس ويتخلص منها يرسلها بالبريد في طرد إلى عنوان معين على بعد مئة ميل من هنا مثلاً، أو يلقي بها في حاوية النفايات في مدينة أو يحرقها أو يمزقها، فإن أحداً لن يشك فيه أو ينظر إليه أو يفكر فيه... لا بد أن لبس تلك البلوزة بمربعاتها الحمراء والسوداء كان مقصوداً. القصد منها التعرف عليها مرة أخرى رغم أن ذلك الشخص لن يلبسها مرة ثانية أبداً.

قال البروفسور واستند إليها: فكرة صحيحة تماماً. كنا قلت لك فإن فالوفيلد لا يبعد عن هذا المكان كثيراً، أظن أنها تبعد مئة عشرة ميلاً. إذن فهذه هي منطقة إليزابيث تيمبل، وهي منطقة تعرفها جيداً وتعرف الناس الذين يعيشون فيها وربما تعرفهم معرفة جيدة أيضاً.

- نعم، وهذا يوسع دائرة الاحتمالات. أوفقك الرأي في أن الأرجح هو أن يكون المعتدي رجلاً وليس امرأة؟ إذا كانت تلك

السيدة قد أقنعت عبداً فإنها قد أرسلت إلى الهدف بدقة شديدة، والدقة في الرماية هي من خواص الرجال أكثر من النساء. ومن ناحية أخرى ربما كان بين الركاب الذين يشاركونا في الرحلة أو ربما في المنطقة المجاورة شخص رأى الآنسة تبعل في الشارع، أو تلميذة سابقة من تلميذاتها في السنوات السابقة، واحدة ربما هي نفسها لم تكن تعرفها أو تميزها بعد هذه الفترة الطويلة. لكن الفتاة أو المرأة كانت تستطيع تمييزها لأن مديرة مدرسة تتجاوز الستين من عمرها لن تختلف كثيراً عما كانت عليه وهي في الخمسين من عمرها. إن الإمكان التعرف عليها بسهولة، امرأة عرفت مديرة مدرستها السابقة وكانت تعرف أيضاً بأن مديرتها تعرف عنها شيئاً مدمراً، واحدة قد جلب لها الخطر بطريقة أو بأخرى... أنا شخصياً لا أعرف هذه المنطقة أبداً. هل تعرف أنت أي شيء معين عن هذه المنطقة؟

قال البروفسور واستند: لا، لا أستطيع الزعم بمعرفتي الشخصية بهذه المنطقة. ومع ذلك فإنني أعرف شيئاً من بين كثير من الأشياء التي حدثت في هذه المنطقة بسبب ما قلته أنت لي. ولولا تعرفي عليك والأشياء التي أعبرتني بها لكنت أكثر جهلاً مما أنا عليه الآن. فما الذي تفعلينه أنت شخصياً هنا؟ أنت لا تعرفين، لكنك أرسلت إلى هنا. كان عملاً شريراً، رذيلاً متعمداً وجعلك على السعي إلى هذا المكان في هذه المنطقة حتى ألتقي معك فيها. لقد توقفنا ومررنا بأماكن أخرى كثيرة، ولكنه قام بترتيبات خاصة حتى يجعلك تقيمين لبلتين هنا. لقد تم جمعك مع صديقات سابقات له لم يكن من تأهين أن يرفضن أي طلب له، فهل كان لذلك سبب معين؟

قالت الآنسة ماربل: حتى أعلم حقائق محددة كان ينبغي علي تعلمها.

- سلسلة من جرائم قتل وقعت قبل سنوات عديدة؟ ليس في هذا أي شيء غير عادي. يمكنك أن تكرري هذا عن كثير من الأماكن الأخرى في إنكلترا. فهذه الأشياء تحدث على الأغلب في شكل سلسلة كما يبدو. توجد في البداية فتاة يُعتدى عليها وتُقتل، ثم فتاة أخرى لا تبعد كثيراً من مكان الأولى، ثم شيء من نفس النوع بعد عشرين ميلاً تقريباً... طريقة القتل ذاتها. لقد تم الإعلان عن فقدان فتاتين في جوسيلن سبنت ميري نفسها، الأولى هي الفتاة التي كنا نناقش أمرها والتي وُجدت جثتها بعد ستة أشهر على بعد أميال من هنا، وكانت قد تم تعذيبها آخر مرة بمصحة مايكل رافائيل...

- والفتاة الثانية؟

- فتاة تدعى نورا برود، ولم تكن «فتاة عادية لا أصدقاء لها». ربما كان لها العديد من العشاق الشباب في آن واحد، ولم تكتشف جثتها أبداً. سوف تكتشف فات يوم! توجد حالات ظهرت فيها الجثة بعد أكثر من عشرين سنة! ها قد وصلنا، هذه هي كاريسبارون وها هو المستشفى.

دخلت الآنسة ماربل المستشفى بصحبة البروفسور وانستيد، وكان واضحاً أن إدارة المستشفى كانت تتوقع وصول البروفسور. أشير إليهما بدخول غرفة صغيرة حيث نهضت امرأة من وراء مكتبها لتحيتهما، قالت: آه، نعم، بروفسور وانستيد، وهذه، هذه...

ترددت قليلاً، فقال البروفسور وانستيد: الآنسة جين ماربل، لقد تحدثتُ مع الممرضة بازكر بالهاتف.

- آه، نعم. قالت الممرضة بازكر إذ الآنسة ماربل ستأتي برفقتك.

- كيف هي الآنسة ليمبل؟

- أظن أنها كما هي، أخشى من عدم وجود تحسن واضح ..ن ذكره.

ثم نهضت وقالت: سآخذكما إلى الممرضة بازكر.

كانت الممرضة بازكر ممرضة طويلة القامة، وكان لها صوت رنين حازم وعينان رماديتان يمكنهما أن تنظرا إليك وتنتقلا إلى شيء آخر على الفور لتجعلك تظن أنها تفحصتك خلال فترة قصيرة جداً من الزمن وأنها قد حكمت عليك.

قال البروفسور وانستيد: لا أدري ما هي الترتيبات التي تفكرين فيها.

- حسناً، ينبغي أن أخبر الآنسة ماربل بما رأيناه. في البداية يجب أن أوضح لك بأن المريضة، الآنسة ليمبل، ما زالت في حالة غيبوبة تصحو منها في فترات نادرة جداً، ويظهر أنها تصحو أحياناً فتميز من هم حولها وتستطيع أن تقول بضع كلمات، ولكن لا تستطيع عمل أي شيء يمكن أن يحفّزها. ينبغي الصبر على ذلك، أظن أن البروفسور وانستيد قد أخبرك بأنها نطقت خلال إحدى نوبات الإفاقة من الغيبوبة وبوضوح كامل الكلمات التالية: "الآنسة جين ماربل". ثم "أريد أن أتحدث معها، الآنسة جين ماربل". وبعد ذلك عادت إلى غيبوبتها. وقد رأى الطبيب أن من الأفضل الاتصال بركاب الحافلة الآخرين، فجاء البروفسور وانستيد لرؤيتنا وشرح عدة أمور وقال إنه سيحضرك إلى هنا. أخشى أن كل ما نستطيع طلبه منك هو أن تجلسي في الجناح الخاص الذي ترقد فيه الآنسة ليمبل حتى تستيقظي

أية ملاحظة تقولها إذا استعادت وعيها مرة أخرى. لكني أخشى أن المؤشرات لا تبشر بخير الآن، وحتى أكون صريحة معك، وبما أنك لست من أقاربها ولن تتضايقي من هذه المعلومة، فإنني أظن أن من الأفضل أن أقول لك إن الطبيب يرى أن حالتها تتدهور بسرعة وأنها قد تموت دون أن تستعيد وعيها، ونحن لا نستطيع عمل أي شيء لتخفيف آثار الارتجاج. من المهم أن يسمع شخص ما تقوله، والطبيب ينصح بأن لا ترى كثيراً من الناس حولها إذا استعادت وعيها. إذا لم تتضايق الآنسة ماربل من فكرة جلوسها هناك وحيدة فهناك ممرضة في الغرفة رغم أنها لن تراها، أي أنها لن تلاحظها وهي ترقد على سريرها ولن تتحرك إلاّ إذا هي طلبت ذلك. سوف تجلس عند إحدى الزوايا ويحجبها ساتر، وعندنا ضابط شرطة هنا أيضاً وهو على استعداد لتسجيل أي شيء، وينصح الطبيب أيضاً بأن يكون هو الآخر مستتراً عن أنظار الآنسة تيمبل. شخص واحد فقط، وهو شخص تتوقع رؤيته، لن يخيفها أو يجعلها تنسى المعلومات التي تريد أن تقولها لك. أرجو أن لا يكون ذلك عملاً صعباً نطلبه منك؟

قالت الآنسة ماربل: لا، أنا مستعدة تماماً لذلك، لديّ دفتر صغير ومعي قلم حبر صغير لن يكون واضحاً للعيان. أستطيع حفظ الأشياء عن ظهر قلب لفترة قصيرة جداً ولذلك لن أضطر للظهور أمامها ممسكة بالقلم أسجّل ما تقوله، يمكنك أن تثقي بذاكرتي، كما أنني لست صمّاء... لست صمّاء بالمعنى الحقيقي للكلمة. لا أظن أن حاسة السمع عندي كما كانت عليه من قبل، ولكن إذا كنت أجلس بجانبها فيجب أن أسمع كل شيء تقوله بسهولة تامة حتى لو كان همساً. إنني معتادة على كلام المرضى، لقد قابلت الكثير منهم في حياتي.

مرة أخرى نظرت الممرضة باركر إلى الآنسة ماربل نظرة فحص سريعة، وفي هذه المرة هزّت رأسها هزة خفيفة علامة على الرضا. قالت: هذا من لطفك، أنا واثقة أن بوسعنا الاعتماد عليك في أية مساعدة تستطيعين تقديمها لنا. وإذا أحب البروفسور وانستيد الجلوس في قاعة الانتظار بالطابق السفلي فإننا سنناديه في أية لحظة نراها ضرورية. والآن يا آنسة ماربل، أرجو أن ترافقيني.

سارت الآنسة ماربل وراء الممرضة على طول الممر ودخلت إلى غرفة خاصة صغيرة جميلة، وهناك على السرير كانت إليزابيث تيمبل مستلقية في غرفة ذات ضوء خافت حيث كانت الستائر نصف مسدلة. كانت ممددة هناك كالتمثال ومع ذلك لم تكن تعطي انطباعاً بأنها نائمة، كانت أنفاسها تخرج على شكل لهاث خفيف، ومالت الممرضة باركر لتفحص مريضتها وأشارت إلى الآنسة ماربل بالجلوس على كرسي بجانب السرير. ثم ذهبت إلى الباب مرة أخرى، وجاء شاب يحمل معه دفتراً من وراء الستارة هناك. قالت الممرضة باركر: إنها أوامر الطبيب يا سيد ريكيت.

ظهرت ممرضة أخرى أيضاً، وكانت تجلس في الزاوية المقابلة من الغرفة. قالت الممرضة باركر: اطلبيني إن لزم الأمر يا آنسة إدموندز، وأحضري للآنسة ماربل أي شيء قد تحتاجه.

نزعت الآنسة ماربل معطفها، فقد كان الغرفة دافئة. واقتربت الممرضة فأخذته منها ثم عادت إلى موقعها السابق، وجلست الآنسة ماربل على الكرسي. نظرت إلى إليزابيث تيمبل تفكر كما فكرت من قبل عندما نظرت إليها وهي في الحافلة، وتتعجب من رأسها الجميل. شعرها الرمادي كان ينساب على وجهها، وكان متناسباً مع وجهها.

امرأة حسناء، امرأة ذات شخصية. نعم، يا للأسف لفقد إليزابيث تيمبل! هكذا فكرت الآنسة ماربل.

عدلت الآنسة ماربل فرش الكرسي وراء ظهرها وحركت الكرسي مقداراً ضئيلاً وجلست تنتظر بهدوء. لم تكن تعرف إن كانت ستنتظر عبثاً أم أن فائدة تنتظرها، ومرّ الوقت، عشر دقائق، عشرون دقيقة، نصف ساعة، خمس وثلاثون دقيقة، ثم فجأة ومن غير توقع سمعت صوتاً كان خفيضاً رغم وضوحه وخشونته، لم تكن في تلك الرنة التي كانت تميزه: آنسة ماربل...

فتحت إليزابيث تيمبل عينيها وراحت تنظر إلى الآنسة ماربل، وبدت مدركة تماماً. كانت تتفحص وجه المرأة التي تجلس بجانب سريرها، تتفحصها دون أية إشارة لعاطفة أو دهشة. كانت مجرد نظرات تفحّص، تفحّص واع تماماً.

ثم تكلم الصوت مرة أخرى: الآنسة ماربل، أنت جين ماربل؟

- هذا صحيح. نعم، أنا جين ماربل.

- كان هنري يتحدث عنك كثيراً، وقال عنك أشياء كثيرة.

صمت الصوت، فقالت الآنسة ماربل وهي تتساءل: هنري؟

- هنري كليذرينغ، صديق قديم لي... صديق قديم جداً.

قالت الآنسة ماربل: إنه صديق قديم لي أيضاً، هنري كليذرينغ.

عادت بذاكرتها إلى السنوات الكثيرة التي عرفته خلالها. السير هنري كليذرينغ، الأشياء التي قالها لها، المساعدة التي كان يطلبها

منها أحياناً، والمساعدة التي كانت تطلبها هي منه... صديق قديم جداً.

- لقد تذكرت اسمك في قائمة الركاب، رأيت أنك هي دون شك. أنت تستطيعين المساعدة، هذا ما كان سيقوله... نعم، هذا ما كان هنري سيقوله لو كان هنا. قد تستطيعين المساعدة، الاكتشاف... إنه مهم، مهم جداً بالرغم من... أنه قد مضى وقت طويل على ذلك الآن. وقتٌ... طويل... جداً.

ضعف صوتها قليلاً وأغلقت عينيها، فنهضت الممرضة وجاءت بكأس صغير وقرّبته من شفتَي إليزابيث تيمبل. رشفت الآنسة تيمبل رشفة وأومأت برأسها وكأنها تطلب منها الانصراف، فوضعت الممرضة الكأس وعادت إلى كرسيها.

قالت الآنسة ماربل: إن كنت أستطيع المساعدة فسوف أفعل.

لم تسأل أية أسئلة أخرى، قالت الآنسة تيمبل: جيد. ثم بعد دقيقة أو اثنتين قالت ثانية: جيد.

رقدت دقيقتين أو ثلاث دقائق مغمضةَ العينين. ربما كانت نائمة أو غائبة عن الوعي، ثم فتحت عينيها فجأة وقالت: أي... أي منهما؟ هذا ما ينبغي معرفته. هل تعرفين الذي أتحدث عنه؟

- أظن ذلك، فتاة ماتت... نورا برود؟

قطبت إليزابيث تيمبل جبينها بسرعة وقالت: لا، لا، لا. الفتاة الثانية، فيريتي هَنت.

سكتت قليلاً ثم قالت: جين ماربل، أنت عجوز... أكبر سناً

مما كنتِ عليه عندما كان يتحدث عنك. لقد كبرت في السن لكنك ما زلت تستطيعين اكتشاف الأشياء، أليس كذلك؟

ارتفع صوتها قليلاً بإصرارٍ أكثر: تستطيعين، أليس كذلك؟ قولي إنك تستطيعين. ليس لديّ الوقت الكثير، أعرف هذا، أعرف هذا جيداً. واحدة منهما، ولكن أيهما؟ اكتشفي، كان من شأن هنري أن يقول إنك تستطيعين. قد يكون ذلك خطيراً عليك، لكنك ستكتشفين، أليس كذلك؟

قالت الآنسة ماربل: سأفعل بعون الله.

كان ذلك عهداً قطعته.

تأوّهت المريضة وأغمضت عينيها، ثم فتحتهما ثانية. كانت كأنها تحاول أن تبتسم وهي تقول: الصخرة الكبيرة من أعلى، صخرة الموت.

- مَن الذي ألقى تلك الصخرة؟

- لا أعرف، لا يهم... الذي يهم فقط هو فيريتي، اكتشفي كل شيء عن فيريتي. الحقيقة، إنها اسم آخر للحقيقة، فيريتي...

لاحظت الآنسة ماربل استرخاء الجسد على السرير، وكان هناك همس خفيف: وداعاً، ابذلي جهدك...

استرخى جسدها وأغلقت عينيها، وجاءت الممرضة ثانية إلى جانب السرير. في هذه المرة تحسست النبض وأومأت برأسها إلى الآنسة ماربل، فنهضت الآنسة ماربل طائعة وتبعتها خارج الغرفة. قالت الممرضة: كان ذلك جهداً كبيراً عليها؛ إنها لن تستعيد وعيها

... أخرى إلاّ بعد وقت طويل، وربما لن تستعيده أبداً. أرجو أن ... قد علمت شيئاً؟

- لا أظن ذلك، ولكن من يدري؟

* * *

سألها البروفسور وانستيد وهما خارجان باتجاه السيارة: هل ...صلت على شيء؟

- اسم فقط. فيريتي، هل كان ذلك اسم الفتاة؟

- نعم؛ فيريتي هَنت.

ماتت إليزابيث تيمبل بعد ساعة ونصف الساعة، ماتت دون أن تستعيد وعيها.

* * *

الفصل الرابع عشر

السيد بروديب يتساءل

قال السيد بروديب لشريكه السيد شامبر: هل قرأت صحيفة «التايمز» هذا الصباح؟

ردّ عليه السيد شامبر بأنه لا يقرأ «التايمز» في الصباح.

قال السيد بروديب: حسناً، قد يكون الخبر فيها أيضاً، في صفحة الوفيات. الآنسة إيرايت تميل.

بدا السيد شامبر متحيراً بعض الشيء. فقال السيد بروديب: مديرة مدرسة فالوفيلد، لا شك أنك سمعت بفالوفيلد؟

قال شامبر: بالطبع، مدرسة البنات. لقد أسست منذ خمسين عاماً أو نحو ذلك، مدرسة من الدرجة الأولى ورسومها مرتفعة جداً. إذن كانت مديرتها؟ كنت أظن أن المديرة قد استقالت منذ زمن، منذ أشهر على الأقل. أنا واثق من أني قرأت ذلك في الصحيفة. لابد أن الصحيفة قد نشرت حول المديرة الجديدة. فهي امرأة متزوجة صغيرة السن، بين الخامسة والثلاثين والأربعين من عمرها، وكانت تُعتبر حديثة وتعطي الفتيات دروساً في مواد التجميل وتسمح لهن بارتداء البنطال، وما إلى ذلك.

- لا أظن أنها ستحصل على الشهرة التي حصلت عليها إيرايت مستقبلاً. فقد كانت تلك امرأة ذات شخصية قوية، وكانت في ذلك المنصب منذ وقت طويل.

قال السيد شامبر بشيء من عدم الاكتراث: نعم.

وتساءل عن السر في اهتمام بروديب بأمر مديرة مدرسة ماتت. لم تكن المدارس لتجلب اهتمام أي من الرجلين حقاً، فولداهما قد أنهيا الآن مرحلة الدراسة الثانوية، والابن الأول للسيد بروديب عمل في قطاع الخدمة الحكومية والآخر في شركة للنفط. أما أولاد السيد شامبر فيدرسون في جامعات مختلفة.

قال السيد بروديب: كانت في رحلة سياحية.

- تلك الرحلات... ما كنت لأسمح لأي من أقاربي بالذهاب في إحدى تلك الرحلات؛ فقد توفي شخص في حادث مأساوي في سويسرا في الأسبوع الماضي، وقبل شهرين تدهورت حافلة من هذه الحافلات وقتل فيها عشرون شخصاً. لا أعرف من يقود مثل هذه الحافلات هذه الأيام.

- كانت رحلة داخلية لرؤية القلاع والبيوت والحدائق. لا أذكر اسم الشركة، ولكنك تدرك ما أعنيه.

- آه، نعم، عرفت، إنها... تلك التي أرسلتها فيها الآنسة... تلك المديرة التي حصلت لها على مقعد.

- الآنسة جين ماربل كانت مشاركة فيها.

- لم تُقتل هي الأخرى، أليس كذلك؟

- ليس حسب علمي، ومع ذلك فقد تساءلت في نفسي قليلاً.

- هل كان حادث سيارة؟

- لا، كان في أحد المواقع ذات المناظر الجميلة. كانوا يسيرون على أحد الطريقات صاعدين إلى قمة عظيمة، وكانت مسيرة تتطلب حيرة في التسلق وثبات أقدام. كانوا يصعدون عظية شديدة الانحدار مليئة بالصخور، وسقطت إحدى الصخور على جانب الهضبة بقوة فأصابت الآنسة تيمبل وأخذت إلى المستشفى مصابة بارتجاج في المخ ثم توفيت هناك.

قال السيد شاستر: حظ سيء.

وانتظر سماع المزيد، فقال السيد بروديريب: لقد تساءلت فقط لأني تذكرت أن... أن فالوفيلد هي المدرسة التي كانت فيها تلك الفتاة.

- أية فتاة؟ لا أعرف ما الذي تتكلم عنه يا بروديريب.

- الفتاة التي قتلها الشاب مايكل رافاييل. كنت أستذكر فقط بعض الأشياء التي قد تبدو ذات صلة ما بتلك المهمة الغريبة التي كان المحبوب رافاييل حريصاً على إيكالها إلى جين مارفل. أيه أخبرنا بالمزيد!

- ما هي القصة؟

بدا شاستر أكثر اهتماماً، وبدأ يشعل سيكاره الفاخرة ليكون قادراً على إعطاء رأي حصيف بما يوشك السيد بروديريب على الإفضاء به إليه.

- تلك الفتاة، لا أتذكر اسم عائلتها الآن. اسمها الأول فيرجني، ... أظن أن اسمها فيرجني هنتر. كانت واحدة من ضحايا سلسلة الجرائم تلك، وقد وُجدت جثتها في حفرة لبعد نحو ثلاثين ميلاً من المكان الذي فُقدت فيه. كانت قد قُتلت قبل ستة أشهر، ومن الواضح أنها أصيبت ثم فُتِّشَ رأسها ووجهها... لتأخير عملية التعرف عليها كما أعتقد الشرطة، ولكن تم التعرف عليها رغم ذلك. الملابس والحقيبة اليدوية والحلي... وبالطبع أوراق ثبوتية تحمل اسمها. آه، نعم، لقد عثروا على جثتها بسهولة.

- أظنها هي التي كانت موضوع المحاكمة بوقتها، أليس كذلك؟

- نعم، لقد اشتهرت المحاكمة في قيام مايكل بقتل ثلاث فتيات خلال عام سابق، لكن الدليل لم يكن كافياً في الجرائم الأخرى، ولذلك ركز الشرطة جهودهم على هذه الجريمة حيث توجد أدلة أكثر وصحيفة جنائية سيئة، وحالات سابقة من الاعتداء... لقد ساعدت إن كانت توجد صلة بين هذه الأمور كلها. أظن أن عمل جين مارفل هنا مع رافاييل قد يكون له صلة بموضوع مايكل.

- لقد جزموه، أليس كذلك؟ وحكموا عليه بالسجن المؤبد؟

- لا أستطيع أن أتذكر الآن... لقد مضى على ذلك وقت طويل، وربما نجحوا في الحصول على حكم مخفف بدعوى عدم الأهلية العقلية.

- وهل كانت فيرجني هنتر طالبة في تلك المدرسة، مدرسة الآنسة تيمبل؟ هل كانت تلميذة مدرسة عندما قُتلت؟ لا أتذكر هنا.

- أبداً. لا. كانت في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من عمرها، تعيش مع أقارب أو أصدقاء لوالديها. كان يبدأ جميلاً وأعتقد لطيفاً، وكانت هي قد أعجبت بكل المعايير، فلا يحترمها أقاربها عادة جداً ولا تخرج مع أناس غرباء وليس لها أصدقاء من الشباب، مع أن الأقارب لا يحلمون بعلاقات الفتيات عادة، إذ يبذلون كل جهد لإخفاء ذلك. ويقال إن ابن رافائيل كان شديد الجاذبية في أعين الفتيات.

سأله السيد شامبر: ألم يخطر لي احتمال في أن لا يكون هو القاتل؟

- أبداً. لقد كذب كثيراً وهو في قفص الاتهام، وكان من الأفضل لمحاميه أن لا يتركه يدلي بشهادته. وقد شهد الكثير من أصدقائه بأنه كان معهم وقت وقوع الجريمة لكنها شهادات لم تصمد كثيراً، فقد بدا أن جميع أصدقائه كذابون محترفون.

- وما هو رأيك أنت في هذه القضية يا بروديريب؟

- لم أكوّن رأياً خاصاً. كنت فقط المساعد إن كان لوفاة هذه المرأة أي علاقة بالأمر.

- وكيف؟

- حسناً، لعلك تعلم... تلك العصور التي تهوى من المخدرات العصبية تقع على رؤوس الناس... إن ذلك ليس دائماً أمراً طبيعياً. إن العصفور -حسب عبرتي- عادة ما تبقى في مكانها لا تتزحزح.

* * *

الفصل الخامس عشر

قبريتي

قالت الآنسة ماربل: قبريتي.

كانت إليزابيث تعتقد أنها توقعت مساء اليوم السابق، وكانت وفاة عادلة. وكانت الآنسة ماربل تجلس مرة أخرى في غرفة الاستقبال في بيت العزبة القديمة ذات السقائر البارعة وقد وضعت جانباً معطف الأطفال الصوفي الذي كانت مشغولة بحياكة فيه مقبي واستبدلت به منديلاً أرجوانياً اللون راحت تشتغل في حياكته.

كانت جلسة التحقيق ستعقد في اليوم التالي، وقد تم الاتصال بالكاهن ووافق على عمل قداس مختصر في الكنيسة عالماً بتم عمل الترتيبات. كما تولى جيمهاوز دفن الموتى وتم التوقيت بالتنسيق مع الشرطة. كانت جلسة التحقيق ستعقد في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي، وقد وافق المشاركون في الرحلة على حضور التحقيق واختار الكابتن وايت منهم الثلاثة الذين يحضروا القداس الجنائزي في الكنيسة.

وكانت السيدة هلين قد عادت إلى فندق فولدنج بن وحلت

الآنسة ماربل على العودة إلى بيت العزبة القديمة على موعد استئناف الرحلة، وقالت أنها ستقرر من الصباح.

وقالت الآنسة ماربل قد شكرت الآخرين الثلاث بحرارة ووافقت. كان مقرراً أن تستأنف رحلة القافلة بعد مراسم الدفن فتنطلق أولاً إلى ستاوت بيدستون التي تبعد خمسة وثلاثين ميلاً، حيث يوجد فندق جيد تم اختياره ليكون نقطة توقف. وبعد ذلك ستواصل الرحلة برنامجها كالمعتاد.

ولكن ولما خشيت الآنسة ماربل كان بعض الأشخاص يعتزمون الانفصال عن الرحلة والعودة من حيث أتوا، أو الذهاب إلى أماكن أخرى. وكان لكلا الجارين محاسن وسماوين: أن يترك المرء رحلة من شأنها أن تصبح مدار ذكريات مؤلمة، أو أن يستمر في رحلة مشاعرات تأفف تكاليفها مقدماً. رغم ما قطع سيلها من حادث من تلك الحوادث المؤلمة التي قد تحدث في أية رحلة أخرى... وفكرت الآنسة ماربل أن الأمر يعتمد على نتيجة التحقيق في جزء كبير منه.

بعد أن تبادلت الآنسة ماربل الكثير من عبارات المجاملة التقليدية مع مضيفاتها الثلاث مما كانت تقتضيه المناسبة، عادت إلى صوفيا وجلست تفكر في خط التحقيق التالي الذي ستسلكه. وهكذا التقطت بالكلمة الوحيدة «فيرني» وأصابعها مشغولة في حك الصفارة، أنفها كما يلقي المرء حصاة في بركة ماء، فقط من أجل ملاحظة وقع هذه الكلمة على الآخرات. هل ستعني أي شيء لمضيفاتها؟ ربما نعم وربما لا. وإلا فإنها ستحاول ملاحظة تأثير هذه الكلمة على المشاركين في الرحلة عندما ستنضم إليهم لتناول وجبة العشاء معهم في الفندق. فكرت أن تلك كانت آخر كلمة قالتها

إلـ... ت نيميل، وفكرت أن تلتقط بها لذلك السبب. كانت أصابع الآنسة ماربل مشغولة، ولم تكن بها حاجة لأن تنظر إلى ما تصنعه لأنها كانت تستطيع قراءة كتاب أو الانخراط في حديث بينما تمضي أصابعها في حركاتها المقدرة بشكل صحيح.

كالعصير عندما يُلقى في بركة محدثاً فقاعات وزبداً أو شيئاً ما، أو لا شيء أبداً. لا بد أن يظهر رد فعل ما. نعم، إنها لم تخطئ الظن. ثم إن وجهها لم يُظهر شيئاً إلاّ أن عينيها الحادتين وراء النظارات ... كانتا كالات سيدات في وقت واحد. وهو ما دربت نفسها عليه منذ ... ات طويلة عندما كانت تريد مراقبة جيرانها في اجتماع أنهات أو في احتفال عامة في سينت ميري مید سعياً وراء خبر ما أو إشاعة.

استطعت السيدة فليتن الكتاب الذي كانت تحمله ونظرت إلى الآنسة ماربل بدهشة خفيفة، بدت مدهوشة لأن الكلمة خرجت من فم الآنسة ماربل تحديداً، لا لمجرد سماع الكلمة.

أما كلوتيلد فكان رد فعلها مختلفاً، فقد رفعت رأسها فجأة ومالت قليلاً إلى الأمام، ثم لم تنظر إلى الآنسة ماربل ولكن باتجاه النافذة، وتشابكت يداها معاً وظلت ساكنة. ورغم أن الآنسة ماربل قد خفضت رأسها قليلاً وكأنها لم تكن تنظر إليهن إلاّ أنها لاحظت أن مريي كلوتيلد الفروزنا بالدموع! جلست صامتة هادئة وتركت الدموع تنحدر من عينيها على خديها، ولم تحاول إخراج منديل ولم تمسح بيدها شفة. وتأثرت الآنسة ماربل بحالة الحزن التي انتابتها.

وكان رد فعل آنيا مختلفاً أيضاً. كان سريعاً متقطعاً يكاد يكون ذعراً، قالت: فيرني؟ هل قلت فيرني؟ هل كنت تعرفينها؟ لم أعرف ذلك. هل تقصدين فيرني هانت؟

قالت لانيتا علين: أتقصدين اسم فريتي؟

قالت الآنسة ماربل: لم أعرف واحدة بهذا الاسم أبداً، ولكني تصيدت اسم فريتي بالفعل. نعم، أظن أنه اسم غريب.

ثم كررت الكلمة متأملة: «فريتي»... وتركت كرة الصوف تسقط ونظرت حولها مرتبكة معتذرة وكأنها أدركت أنها ارتكبت زلة، لكنها لم تكن متأكدة من السبب. قالت: أنا... أنا آسفة جداً. هل قلت شيئاً ما كان ينبغي أن أقوله؟ لقد قلتها فقط الآن...

قالت السيدة علين: لا، بالطبع لا. إنه فقط، إنه فقط اسم لم نعرفه، اسم كانت لنا علاقة به.

قالت الآنسة ماربل وهي ما تزال تعتذر: لم يخطر في هذا الاسم إلا لأن الآنسة تيريل المسكينة ذكرته أمامي. لقد ذهبتُ لزيارتها بعد ظهر الأمس، أعطتني البروفسور والسيد إلى المستشفى وكان يعتقد أني ربما كنت أستطيع أن... أن أثيرها بطريقة ما إن صح التعبير. كانت في غيبوبة وظنوا... في الواقع لم أكن صديقة لها من قبل لكنا تحدثنا معاً في الرحلة وكنا كثيراً ما نجلس معاً ونتحدث، وقد ظن البروفسور واستيد أني ربما استطعت المساعدة. مع أني لم أكن كذلك أبداً، فقد جلست هناك فقط ونظرت، ثم قالت كلمة واحدة أو اثنين غير أنها لم تكن تعني شيئاً كما تبدو. ولكن عندما كنت على وشك الذهاب فتحت عينيها ونظرت إليّ... لا أعرف إن كانت قد أعطتني في معرفتي أم لا، لكنها قالت تلك الكلمة: فريتي! وقد قالت هذه الكلمة عالية في ذهني بالطبع وخصوصاً أنها توفيت مساء الأمس فقط. لا بد أن تلك الكلمة كانت تعني شخصاً أو شيئاً في ذهنها.

ظلت بصرها بين كاوليلد و لانيتا وأدنا. قالت لانيتا علين: إن ذلك اسم قالة تعرفها، هذا هو السبب الذي جعلنا نجعل هذا...

قالت آديا: ولا سيما بسبب الطريقة البشعة التي توفيت بها.

قالت كاوليلد بصوتها الجهوري: آديا! لا حاجة للخوض بهذه التفاصيل.

قالت آديا: إن الجميع يعرفون ما جرى لها.

نظرت إلى الآنسة ماربل وقالت: قلت أنك كنت تعرفين عنها لأنك تعرفين السيد رافائيل، أليس كذلك؟ أقصد أنه كتب لنا عنك ولذلك لا بد أنك كنت تعرفينه، وربما... وربما ذكر ذلك الأمر كله.

قالت الآنسة ماربل: أنا شديدة الأسف، أخشى أني لا أفهم تماماً ما تتحدثين عنه.

قالت آديا: لقد وجدوا جثتها في حفرة.

رأت الآنسة ماربل أنه لا شيء يوقف آديا عندما تشرع في الكلام، لكنها شعرت أن جديث آديا الصاخب كان يزيد من توتر كاوليلد، فقد أخرجت مناديلاً بطريقة عادية لا تشي بموقف محدد فمسحت دموعها عن عينيها وانحنت في جلستها وهي تنظر نظرات حنية وحزينة. قالت: لقد أحببنا فريتي كثيراً. لقد عاشت هنا فترة من الزمن، وكنت أحبها كثيراً...

قالت لانيتا: وهي أيضاً أحبتك كثيراً.

قالت كلوديلد: كان والداها صديقين لي، وقد قُتلا في حادث طائرة.

أوضحت لابيبة: كانت في مدرسة فالوفيلد، أظن أن هذا ما جعل الآنسة تبجيل تذكرها.

قالت الآنسة ماريل: آه، فهمت. حيث كانت الآنسة تبجيل مديرة المدرسة، أليس كذلك؟ لقد سمعت عن فالوفيلد كثيراً بالطبع، إنها مدرسة رائعة جداً. أليس كذلك؟

قالت كلوديلد: بلى، وكانت فريدي تلميذة هناك. وبعد وفاة أبويها جاءت لتعيش معنا لفترة من الزمن حتى تقرر ما ستفعله في مستقبلها، وكانت في الثامنة عشرة أو في التاسعة عشرة، فتاة حلوة جداً وودودة ومحبوبة. ربما فكرت في التدرب على عمل التمريض، لكنها كانت ذكية جداً وأصرت الآنسة تبجيل عليها لكي تذهب إلى الجامعة. وهكذا كانت تدرس وتتدرب جاداً... عندما حدث ذلك الأمر الرهيب.

أحدث وجهها وقالت إنني... هل تمانعين بوقف الحديث في هذا الموضوع الآن؟

قالت الآنسة ماريل: آه، بالطبع. أنا آسفة جداً لأنني أثرت موضوع الحادث هذا، لم أكن أعرف. إنني... إنني لم أسمع... أقصد...

* * *

في ذلك المساء سمعت المزيد من المعلومات. جاءت السيدة

مارتن إلى غرفتها عندما كانت تغير ملابسها للعشاء وتلمح بالآخرين من الصدق، وقالت لها: لقد رأيت أن علي القدوم لأشرح لك بعض الأمور بخصوص... بخصوص الفتاة فريدي هنت. أنت لا تعرفين الطبع - أن أختا كلوديلد كانت تحبها كثيراً وأن موتها بتلك الطريقة المفجعة قد سبب لها صدمة كبيرة. إننا لا نذكر اسمها أمامها إن استطعنا، لكني... أعتقد أن من الأسهل أن أخبرك بالحقائق كاملة التي تفهمي الموقف الذي هي فيه. يبدو أن فريدي كان لها «دون دانسا» علاقة مع شاب كريه، بل أكثر من كريه... وقد ظهر فيما بعد أنه شخص خطير ذو سجل جنائي وصاحب سوابق. وقد جاء إلى هنا مرة لزيارتنا عندما كان فريدياً من المكان، فقد كنا نعرف والده جيداً.

سكتت ثم قالت: أظن أن من الأفضل أن أخبرك بالحقيقة كاملة إذ كنت لا تعرفينها، ولا يبدو أنك تعرفينها. الواقع أنه كان ابن السيد (فاتل) مايكل...

حدقت الآنسة ماريل: يا إلهي! ليس... ليس... لا أتذكر اسمه لكني أتذكر أنني سمعت بأن له ولداً وأنه كان ولداً غير شرعي.

قالت السيدة مارتن: كان أكثر من ذلك قليلاً! كان يسبب المتاعب دائماً، وقد مثل أمام المحكمة بتهم مختلفة، منها أنه اعتدى على فتاة مراهقة ذات مرة. إنني أعتبر أن الفتاة متساهلون جداً مع مثل هذه الأشياء، ولم يريدوا إفساد الدراسة الجامعية للشاب، ولذلك تركوه يخرج بحكم لا أذكر ماذا يسمونه... مع وقف التنفيذ. لو أُرسل هذا الولد وأمثاله إلى السجن على الفور فإنه سيكون رادعاً لهم. وقد كان أيضاً أيضاً، فقد زوّر شيكات وسرق الشباب... كان شاباً سيئاً جداً، وكنا صديقات لأمه، ومن حسن حظها أنها ماتت صغيرة قبل أن ترى

إنها في هذه الشقة وهذا السلوك. أظن أن السيد رافائيل فعل كل ما بوسعه، فحاول أن يجد وظائف مناسبة للولد ودفع عنه الكفالات، لكني أعتقد أن مالك كان ضربة البداية له رغم أنه حاول الظاهر بأنه غير مبالٍ وحاول تناسي الأمر.

لقد حدثت عدة أمور أخرى أهل القرية هذا سلسلة من جرائم القتل والعنف في هذه المقاطعة. ليس هذا فقط، لقد وقعت في مناطق مختلفة من الريف على بعد عشرين ميلاً من هنا وأحياناً على بعد خمسين ميلاً، وحادثة واحدة أو اثنتان وقعتا حسب قول الشرطة على بعد مئة ميل تقريباً. ولكن يبدو أنها تمركزت في هذه المنطقة من البلاد. على أية حال، فقد عرضت فيرجي ذات يوم لزيارة صديقة لها... ولم تعد. ذهبوا إلى الشرطة وأخبروهم بالأمر، وبحثت الشرطة عنها ومسحوا الريف كله بحثاً عنها لكنهم لم يعثروا لها على أثر. تم إغلاق ملفها في الصحف وأعلن الشرطة عنها أيضاً وقالوا إنها ربما هربت مع صديق لها.

ثم بدأت الإشاعات تدور وقيل إنها قد شوهدت مع مايكل رافائيل، وفي تلك الفترة بدأ الشرطة بمراقبة مايكل والاشتباه في ارتكابه جرائم معينة وقعت برغم أنهم فشلوا في العثور على دليل مباشر يدينه. وقد قيل إن فيرجي شوهدت لآخر مرة وصف ملابسها؛ مع شاب يشبه مايكل وفي سيارة تطابق أوصافها أوصاف سيارته، ولكن لم يوجد أي دليل آخر إلى أن اكتشفت جثتها بعد ستة أشهر على بعد ثلاثين ميلاً من هنا في منطقة غابات ريفية وفي حفرة مغطاة بالحجارة والتراب. وقد تعرفت الكونتيلد للتعرف على جثتها... كانت فيرجي بلا شك، وكانت قد اغتصبت وقُتلت وأسيء معاملتها. ومنذ ذلك الوقت والكونتيلد تعاني من آثار الصدمة. كانت في جسدها علامات مميزة، وشمة وآثار

ع عظم، وملابسها بالطبع ومجوهرات عليها البدوية... وكانت الأسرة ترسل تحب القتلة كثيراً ولا بد أنها فكرت فيها قبل وفاتها.

قالت الآنسة ماربل: أنا آسفة، آسفة جداً. أرجو أن تخبري السيدة بأنني لم أكن أعرف.

* * *

الفصل السادس عشر

التحقيق

سارعت الآنسة ماربل بخطى في شارع القرية في طريقها إلى المركز التجاري، حيث ستُعقد جلسة التحقيق في بداية الساعة من العهد الجورجي. كانت تعرف منذ مدة ليست باليسيرة أن الوقت أزف، وتحركت إلى سماعها، ما زال أمامها عشرون دقيقة قبل أن يحين موعد الجلسة. نظرت إلى المحلات، وتوقفت عند محل بيع الصوف وسيارات الأطفال واطلّت برأسها إلى الداخل ليضع توأمان كانا في المحل قيد تقدم الزبائن، ومعاطف صوف صغيرة كان يلبسها كلاهما من الأطفال على سبيل التجربة، وهذا خلف الجهة البعيدة من عربة التوأم امرأة مجهول.

دخلت الآنسة ماربل إلى المتجر وذهبت إلى حيث يوجد مقعد مقابل المرأة المجهول وأمرت عينة من صوف وردي اللون، فأوضحت لها بأن هذا الصوف قد كفّ عنها ولم يبق على السترة التي كانت تحيكها إلا القليل. وسرعان ما أحضروا لها صوفاً من ذات النوع واللون، كما أحضروا لها عينات أخرى من الصوف أثارت إعجاب الآنسة ماربل. وفي الحال دخلت مع المرأة المجهول في حديث، بدا

الحديث حول الحادث المؤسف الذي وقع، وكانت السيدة مريت -صاحبة المتجر مهتمة جداً بالحادث وتحدثت عن الصعوبات في سبل التغلب المحلية على معالجة أخطار طرق الحفاة وتأمين سلوك الناس في الطرقات.

- بعد المطر تنجرف التربة فتحرر الصخور من أماكنها وتسقط من أعلى. أذكر أنه حدثت انهيارات صخرية ثلاث مرات في مدة واحدة... وقعت ثلاث حوادث. في الأول كاد واد أن يُقتل، ثم بعد ذلك وأنا بعد ستة أشهر كُسرت ذراع رجل، وفي المرة الثالثة كانت السيدة السيدة وزوج المجوز المسكينة. كانت عمياء وصماء، ولم تكن تسمع شيئاً ولا لاحظت من الطريق. لقد رأى شخص الصخور وهي تقع وحذرها ليحذرها، ولكنه كان أبعد من أن يصل إليها أو أن يكفي ليسمعها، وهكذا قُتلت.

قالت الآنسة ماربل أمر محزن، ليس من السهل نسيانه.

- نعم، ولكن لا داعي للتحقيق بموضوع ذلك اليوم.

- أظن ذلك. هذا أمر يسبب حديثه عصبياً تماماً رغم عطفه، ورغم أن هناك حوادث يحسبها بعض الناس فيها دفع الصخور من أعلى، يدفعون الصخور لكنها تخرج إلى أسفل.

- أجل، هؤلاء الأولاد يلعبون أي شيء، ولكن لا أظن أنني رأيتهم في أعلى تلك الهضبة بين حين وحين.

انتقلت الآنسة ماربل إلى الحديث عن بضائع الصوف، قالت: إنها ليست لي، بل لواحد من أبناء أخي، إنه يريد سترة ذات ياقة عالية وذات ألوان زاهية جداً.

- نعم، إنهم يحبون الأثواب الزاهية في هذه الأيام. أليس كذلك؟ لكنهم يحبونها في السيارات فقط وليس في باطن الجيز. إنهم يحبون باطن الجيز سوداء اللون أو كحلية، لكنهم يحبون الأثواب الزاهية فوقها.

وصلت الآنسة ماربل سيارة ذات مربعات زاهية الألوان، وقد ظهر أن في المشهد عدداً كبيراً من هذه السيارات. لكن لم يكن بينها سيارات ذات مربعات حمراء وسوداء. كما أنها لم تذكر وجود مثل هذه الألوان في أية بضاعة سابقة. وبعد أن نظرت إلى بعض العينات استعدت الآنسة ماربل للمغادرة، وتحدثت قبل ذلك عن جرائم القتل السابقة التي سمعت بوقوعها في هذه المنطقة.

قالت السيدة ميريديث: لقد أمسكوا المجرم في النهاية. ولقد وسيم، ما كان أحد ليشك به. لقد نشأ نشأة جيدة وذهب إلى الجامعة، وكان أبوه غنياً جداً كما يقولون. أظن أنه كانت لديه ثروة ما، لكن لا يعني أنهم أخذوه إلى مستشفى الأمراض العقلية، لم يفعلوا ذلك، لكني أظن أن حالته كانت نفسية... يقولون إن هناك عيباً ما في جيناته أو شيء ما. وقد اعتقل الشرطة عدداً من الشبان في هذه المنطقة ثم يطلقوا حتى شي؟! اعتقلوا جيوفري فرانسيس، وكانوا في البداية متأكدين تماماً أنه هو. كان غريب الأطوار منذ أن كان صبياً صغيراً، وكان يتحرش بالفتيات الصغيرات. وهن ذاهبات إلى المدرسة فيقدم لهن الحلوى ويطلب منهن الذهاب معه ليريهن نباتات وزهرة الربيع أو غير ذلك... نعم، لقد ارتابوا فيه كثيراً لكنه لم يكن هو القاتل. ثم اعتقلوا شاباً اسمه بيرت وليامز، لكنه في حالتين من تلك الحالات كان مسافراً بعيداً ولذلك لم يكن هو. ثم آخيراً جاء هذا... ما اسمه... لا أتذكر،

الآن. كان فتى وسيماً جداً لكنه كان صاحب سجل جنائي سيء. نعم، سرقات وتزوير شركات وكل هذه الأشياء... وقد اعتدى على فتاتين أيضاً.

- هل قتلت هذه الفتاة حاملاً؟

- نعم، وظننا في البداية عندما اكتشفوا جثتها أنها قد تكون جثة ... ا بيرود، وهي ابنة أخي السيدة بيرود صاحبة المطعم. كانت تخرج مع الأولاد كثيراً، وقد خرجت من بيتها وفُقدت بالطريقة ذاتها ولم نعرف أحداً مكانها، وذلك عندما ظهرت هذه الجثة بعد ستة أشهر أو في البداية أنها جثتها.

- لكنها لم تكن جثتها؟

- نعم، بل جثة فتاة أخرى.

- وهل ظهرت جثتها؟

- لا، وإن كنت أظن أنها ستظهر في يوم من الأيام. إنهم يظنون أنها دُفنت في النهر، لا أحد يعرف الحقيقة. ربما كانت مدفونة تحت التراب في أحد الحقول أو في مكان يشبهه. لقد اعتدوا ذات مرة على فتاة ذلك الكان في أوتون لو... أو اسم يشبهه. كان هناك مكاناً في الخمسينات الشرقية حيث كان كنز جميل مدفوناً في أحد الحقول، سمن من ذهب كسلتي القراصنة وطبق من ذهب، طبق كبير... لا أحد يدري، قد تكتشفين جثة في أحد الأيام أو تكتشفين طبقاً من ذهب! وقد يكون عمر ذلك الطبق مئات السنين أو قد يكون جثة طفل عمره ثلاث سنوات أو أربع. المهم أن الذي قتلت جثتها مضروبة أربع مسامير ثم عثروا عليها في مكان قريب ربيحت. إنها حياة محزنة،

نعم، إنها حياة ممتعة جداً، لا تعرفين ما ينتظرك فيها.

- كانت تعيش هنا فتاة أخرى، أليس كذلك؟ الفتاة التي قُتلت.

- تقصدين صاحبة الجثة التي اعتقدوا في البداية أنها جثة نورا برود؟ نعم، لقد نسيت اسمها الآن، كان اسماً من تلك الأسماء التي لا تُستخدم كثيراً هذه الأيام. عاشت في بيت العزبة القديمة. ظلت هناك فترة من الزمن بعد مقتل والديها.

- مات والداها في حادث، أليس كذلك؟

- هذا صحيح، في حادث طائرة كانت في طريقها إلى إسبانيا أو إيطاليا.

- وهل قلت إنها عاشت للعيش هنا؟ هل هم أقارب لها؟

- لا أعرف إن كانوا أقارب لها أم لا. لكن السيدة غلين كانت صديقة حميمة لأمها أو شيئاً من هذا. وقد تزوجت السيدة غلين بالطبع وسافرت إلى الخارج، لكن الآنسة كلوتيلد... أعني الكبرى، كانت تحب الفتاة كثيراً. أخذتها معها إلى الخارج، إلى إيطاليا وفرنسا وأماكن كثيرة، وعلمتها الطباعة على الآلة الكاتبة والاعتناء مع مرؤوس في الفن... كانت الآنسة كلوتيلد ذات ذوق فني وكانت تحب الفتاة كثيراً، وقد تكسرت قواعدها عندما احتاجت... يعكس الآنسة أكثر.

- الآنسة أكثر من الآنسة الصغرى، أليس كذلك؟

- بلى، وبعض الناس يقولون إن قواعد العقلية ليست على ما يرام. تفكيرها مشوش ومضطرب، وأحياناً تشاهدينها تمشي وهي

...حدث مع نفسها وتحرك رأسها بطريقة غريبة جداً، وأحياناً يتحدث معها الأطفال. يقولون إنها غريبة الأطوار، لا أدري. إن المرء يسمع كل شيء في القرية. عمها الكبير الذي عاش هنا من قبل كان غريب الأطوار هو الآخر، كان يدرب على استخدام المسدس والرماية في الحديقة ولم يوجد أي سبب يدعوه لذلك، وكان يقول إنه معجب ...مهارته في الرماية.

- لكن الآنسة كلوتيلد ليست غريبة الأطوار؟

- آه، بالعكس، إنها ذكية. أظن أنها تعرف اللاتينية والإغريقية، ...كانت تتمنى أن تذهب إلى الجامعة ولكن توجب عليها رعاية أمها المريضة منذ زمن طويل. لكنها كانت تحب الآنسة... لا أتذكر اسمها. كانت تحبها كثيراً وقد عاملتها كابنة لها. ثم جاء هذا الشاب مايكل، أظن أن هذا هو اسمه، ثم خرجت الفتاة ذات يوم دون أن تقول كلمة لأحد. لا أعرف إن كانت الآنسة كلوتيلد تعرف أنها كانت حاملاً.

قالت الآنسة مارپل: لكذلك كنتِ تعرفين؟

- آه، لدي عين جيدة وأعرف في العادة عندما تكون الفتاة حاملاً. إنها مسألة واضحة للعيان، ليس لشكل الجسم فقط وإنما عرفين ذلك من النظر إلى عينيها والطريقة التي تمشي بها وتجلس، ومن نوبات الدوار التي تصيبها والغثيان من وقت لآخر... آه، نعم، لقد فكرت في نفسي أنها واحدة منهن. وقد طلبوا من الآنسة كلوتيلد أن تذهب وتصرف على الجثة، وأصابها ذلك بانهيار عصبي. غربياً، بقيت أسابيع بعدها وهي في حالة نفسية سيئة. لقد كانت تحب تلك الفتاة كثيراً.

- والأخرى... الأنسة آدلي؟

- القريب في آخر أمرنا أنها بدت وكأنها مسرورة. إنه ليس موقفاً لطيفاً، أليس كذلك؟ كانت لها البستاني بالأمر هكذا... كانت دائماً تذهب وتزور أهل الحظائر وتستمع بذلك... أشياء فرنسية تحدث في بعض العائلات!

وذهبت الأنسة ماربل، ورأت أن لديها عشر دقائق أخرى قبل موعد الجلسة فذهبت إلى مكتب البريد. كان مكتب البريد ومخزن جوستين سبنس مبنى في شارع متفرع عن ساحة السوق. وعندما ذهبت الأنسة ماربل مكتب البريد واشترت بعض الطوابع وساعدت بعض بطاقات المعايدة، ثم حولت انتباهها إلى الكتب المعلقة. كانت تقف وراء طاولة الاستقبال امرأة ذات وجه نكد تبدو في أواسط عمرها، وساعدت الأنسة ماربل في إخراج أحد الكتب من الحزام المطاطي الذي يلف الكتب وهي تقول: "أعتقد بصعب إخراج هذه الكتب، الناس لا يعيدونها إلى مكانها الصحيح".

لم يكن في المكتب أحد غيرها في تلك اللحظة، ونظرت الأنسة ماربل إلى غلاف الكتاب باستياء: هالة متكدّسة على وجهها يقع دماء، ويحمل عليها رجل قاتل شرير وبيده سكين ملطخاً بالدماء. قالت: "لا أحب هذه الأشياء السخيفة التي تحدث اليوم".

قالت السيدة: "لقد شاهدوا كثيراً في بعض أنحاء لانهيهم. هذا لا يروق للكثيرين، ولكن كثيراً من الناس يحبونه بشدة في هذه الأيام".

أعادت الأنسة ماربل كتاباً آخر ونظرت عنوانه: "ما حدث لنقطة حبر". قالت: "يا إلهي! إننا نعيش في عالم مريض".

- آه، نعم. أعرف. لقد قرأت في صحيفة الأمس عن امرأة ... تمت خنقها خارج أحد السجلات فجاء شخص واختطفها. هكذا بلا سبب محدد. لكن الشرطة عثروا عليها. يبدو أنهم يقولون الكلام ... ماتياً سواء أكان المسروق غرضاً من السجل أم طفلاً، يقولون أنهم لا يعرفون ما الذي استدّ بهم.

قالت الأنسة ماربل: "ربما كانوا لا يعرفون فعلاً".

بدت السيدة أكثر تكتماً من قبل وقالت: "لا أصدق هذا".

نظرت الأنسة ماربل حولها. ما زال مكتب البريد خالياً، وتقدمت نحو النافذة قائلة: "لا أدري إن كان بوسعك -إن لم تكوني مشغولة- أن تجيبي على سؤال لي. لقد قمت بعمل غبي جداً، لقد ارتكبت الكثير من الأخطاء في السنوات الأخيرة. إنه طرد أرسلته إلى إحدى الجمعيات الخيرية، لقد أرسلت لهم ملابس... سترات وتنورات صوفية للأطفال، وقد وضعتها في طرد وكتبت عليه العنوان وأرسلته... وصباح اليوم فقط تذكرت فجأة أني ارتكبت خطأ وكتبت عنواناً خاطئاً. لا أعتقد أنكم تحتفظون بقائمة بالعناوين التي تُرسل الطرود إليها، لكني افتقدت أني ربما وجدت شخصاً يتذكر العنوان. إن العنوان الذي كنت أنوي أن أرسله إليه هو مؤسسة مواليد وتربص حايد الخيرية".

صارت السيدة لطيفة تماماً وقد أثارت من حجر الأنسة ماربل الواضح وتبحرختها، قالت: "هل أحضر لك الطرد بنفسك؟"

- لا، إني أقيم في بيت العزبة القديمة، وأظن أن السيدة هاتن قالت إنها سترسله بنفسها أو بواسطة أحتها. كان عبئاً ثقيلاً منها...

- دعني أبحث قليلاً. يمكن أن يكون ذلك يوم الثلاثاء. أليس كذلك؟ لم تكن السيدة عطين هي التي أحضرته بل أحدهما الصغرى الآنسة آشا.

- نعم، أظن أن ذلك هو اليوم الذي...

- أتذكره جيداً، في علبة ملابس كبيرة الحجم... وكان وزنه معتدلاً كما أظن. ولكن العنوان لم يكن مؤسسة دوكيارد... لا أتذكر شيئاً كهذا أبداً. كان مرسلاً إلى ريتشارد ماثيوس، جمعية إستهام الخيرية.

قالت الآنسة ماربل وهي تصقل بيديها علامة على ارتياحها: آه، نعم. أنتم أنت ذكياً! عرفت الآن أين أخطأت. لقد أرسلت أغراضاً من قبل إلى جمعية إستهام في عيد الميلاد، استجابة لمناشدتها في دعيها بالمنسوجات الصوفية لتقديمها للمحتاجين، ولذلك لا بد أنني كتبت العنوان خطأ. هل يمكنك أن تعيدي على مسامعي هذا العنوان؟

كتبت العنوان في دفتر صغير.

- أخشى أن يكون الطرد قد أرسل، برغم أن...

- آه، نعم، لكني أستطيع أن أكتب لهم وأشرح الخطأ وأطلب منهم أن يرسلوا الطرد إلى مؤسسة دوكيارد بدلاً من مؤسستهم. أشكرك كثيراً.

* * *

خرجت الآنسة ماربل من المكتب بخطوات متثاقلة. وأخرجت

السيدة طوابع لتعطيها للزبون التالي وهي تقول لزميلة أنها في الداخل: «شكيات هؤلاء العجائز، إنهن مشوشات التفكير! أظن أنها تقع في كل هذه الأخطاء دائماً.

خرجت الآنسة ماربل من مكتب البريد وركبت إلى حيث مقر إيفلين براديس وجوانا كراوفورد. لاحظت أن جوانا كانت ناحية جداً وتبدو مضطربة وقالت: يجب أن ألغي بشهادتي. لا أعرف ماذا سأكون... أنا خائفة، إنني... إنني لا أحب ذلك. لقد أخبرت رقيب الشرطة، أخبرته بما اعتقدت أنا رأيته.

قال إيفلين براديس: لا تقلقي يا جوانا! إنها جلسة تحقيق فقط. إن قاضي التحقيق رجل لطيف وأظن أنه طبيب، سيسألك بضع أسئلة فقط وستخبرين ما رأيته.

قالت جوانا: أنت رأيت ذلك أيضاً.

- نعم، رأيته، على الأقل شاهدت شخصاً في أعلى الهضبة قرب الصخور. هوّني عليك يا جوانا.

قال جوانا: لقد جاؤوا وفتشوا غرفنا في الفندق، ظنوا منا الأول، ولكنهم كانوا يحملون معهم إذناً بالتفتيش. لقد فتشوا غرفنا وأمتعتنا.

قالت الآنسة ماربل: أظن أنهم كانوا يبحثون عن تلك السترة التي وصفتها لهم. على أية حال لا يوجد ما تقلقين بشأنه، فلو كانت لديك أنت تلك سترة سوداء وقرمزية أنا تحدثت عنها. كانت سوداء وقرمزية، أليس كذلك؟

قال إيمانين برايس: لا أعرف، حقيقة لا أعرف. الوان الأشياء جيدة. أظن أنها كانت ذات لون زاه. هذا كل ما أعرفه.

قالت جوانا: لم يحاولوا على أي واحدة، لا أحد منّا يحصل معه شيء كثير، لا أحد يفعل ذلك في مثل هذه الرحلات. لم يحدثوا سترة بهذا اللون بين أغراض أي واحد منّا، كما أني لم أشاهد أي واحد من أفراد المجموعة التي معنا وهو يلبس ملابسها حتى هذه اللحظة. هل رأيت أنت؟

قال إيمانين برايس: لا، لم أر، لكني أعتقد... لا أعرف. إن كنت سألته لو رأيت مثل تلك السترة أصلاً، فأنا لا أميز الأحمر من الأخضر دائماً.

- ألن يصاب بشيء من جنى الألوان، لقد لاحظت ذلك عليك بالأمس.

- ماذا تعنين بقولك إنك لاحظت ذلك؟

- لتعني الحمراء. سألتك إن كنت قد رأيتها فقلت إنك رأيت لمحة خضراء في مكان ما، ثم أحضرت لي القبعة الحمراء. لقد نسيتها في قاعة الطعام. لكنك لم تعرف حقاً أنها كانت حمراء.

- حسناً، لا تنسي أنني أعاني من عمى الألوان. لا أحب ذلك، فهو قد يأتي الناس مني بطريقة ما.

قالت جوانا: الرجال يعانون بعمى الألوان أكثر من النساء، إنه أحد الأمراض التي ترتبط بجنس الإنسان. إن الإناث يحملنه ويظهر في الذكور.

قال إيمانين برايس: أنت تحملينه يبدو وكأنه مرض معدية، حسناً، ها قد وصلنا.

قالت جوانا وهم يصعدون الدرج: يبدو عليك الاهتمام؟

- أنا لم أحضر جلسة تحقيق من قبل، الأشياء تبدو مثيرة عندما يحللها المرء للمرة الأولى.

* * *

كان الدكتور ستوكس في وسط العمر يضع نظارات وقد وخطه الشيب. تم تقديم شهادة الشرطة في البداية ثم شهادة الطبيب الشرعي مع التفصيلات الفنية المتعلقة بإصابات الجمجمة والارتجاج التي سببت الوفاة. وقدمت السيدة ساندبورن تفصيلات عن رحلة الحافلة والرحلة التي تم التخطيط لها بعد ظهر ذلك اليوم، وتفصيلات عن أولية وقوع الحادث. قالت إن الآنسة ليسل رغم أنها ليست صغيرة في السن إلا أنها كانت سريعة المشي، وكانت المجموعة تسير على طريق المشاة معروف كان يدور حول هضبة ويرتفع ببطء حتى يصل إلى أنيسة مورلاند التي أُنيت أصلاً في العصر الأدواري رغم إصلاحها والإضافة عليها بعد ذلك. ويوجد على قمة قرية منها ما يسمى برج برايتنتر الدفاعي، وهو على أرض منحدرة يشقها الناس بصعوبة ويقاومون في السرعة، فالشباب يصعدونها ركضاً -في العادة- أو يسقون الآخرين ويصلون إلى وجهتهم بشكل أسرع، أما كبار السن فيصعدون ببطء شديد. وكانت هي تظل في المؤخرة حتى تشير إن لزم الأمر على من يذهب بالمقدمة إن شاء. وقالت إن الآنسة ليسل كانت تتحدث مع السيد باتلر وزوجته، ورغم أن الآنسة ليسل كانت

تجاوز السيارتين من الممر إلا أن صريرها قد تلاشى بسبب مشيهما البطيء فسبقتهما واستدارت عند زاوية وقذفت إلى الأمام بسرعة، وهو ما كانت تفعله من قبل كثيراً. كانت تميل لأن تقذف صريرها من انتظار الناس الذين يمشون وراءها حتى يلحقوا بها، وكانت تفضل السير بمشيتها السريعة الخاصة. وقد سمعوا صريرها في الأمام فأسرعت في الأخير الشاحنة؛ والآخرون وصلوا إلى المنعطف فوجدوا الأسة تميل ممددة على الأرض، وكان هناك صخرة كبيرة هوت من جانب الهضبة التي كانت أعلى الطريق حيث كانت توجد عدة صخور غيرها من نفس النوع. وتوقعوا أن تكون قد تدحرجت من جانب الهضبة وأصابت الأسة تميل بينما كانت تسير على الطريق أسفل الهضبة. كان حادثاً مأساوياً ومحزناً.

سألها قاضي التحقيق: ألم يخطر لك عندها أي شيء يشير إلى أن الحادث قد لا يكون عرضياً؟

- لا أستطيع تخيل أي احتمال آخر غير الحادث العرضي.

- ألم تشاهدي أحداً فوقكم على جانب التلة؟

- أبداً. هذا هو الطريق الرئيسي الذي يدور حول الهضبة، وتكثر هناك أناس يتجولون عثياً على قدميها. ولكني لم أر أحداً في تلك الساعة بالتحديد.

ثم استدعيت جوزفا كراوفورد، وبعد أن أعطت معلومات كاملة عن اسمها وعنوانها سألها الدكتور ستوكس: أكنت تسيرين مع بقية المجموعة؟

- لا، لقد خرجنا من الطريق فالتففنا حول الهضبة في مكان ودي المنحدر بقليل.

- هل كنت لمشين مع رفيق؟

- نعم، مع السيد إيفانز براينس.

- أكان أحد آخر يسير بمكانكما؟

- لا، كما تكلم وتنظر إلى الأرض، فقد بدت لنا من نوع غير معروف لدينا. إن إيفانز مهتم بالنباتات.

- هل ابتعدتما عن أنظار بقية المجموعة؟

- ليس طوال الوقت، كانوا يسيرون على الطريق الرئيسي أسفل منا.

- هل رأيت الأسة تميل؟

- أظن ذلك، كانت تسير أمام الآخرين وأظن أني رأيتها وهي تلتف عند إحدى الزوايا على الطريق أمامهم، حيث لم نرها بعد ذلك لأن محيط الهضبة كان يحجبها عنا.

- هل شاهدت أحداً يسير فوقكم على جانب الهضبة؟

- نعم، أعلى منا بين عدد كبير من الصخور. كانت هناك مجموعة كبيرة من الصخور على جانب الهضبة.

- نعم، أعرف المكان الذي تتحدثين عنه بالضبط، صخور غرانيتية كبيرة.

- أظن أنها قد تبدو مثل الأقدام من بعد لكننا لم نكن بعيدين جداً منها.

- وقد رأيت أحداً هناك؟

- نعم، رأيت شخصاً كان في وسط الصخور تقريباً، يتكئ عليها.

- أتظنين أنه كان يدفعها؟

- نعم، لقد اعتقدت ذلك وتساءلت عن السبب. كان يبدو وكأنه يدفع صخرة قريبة من الحافة، وكانت صخوراً كبيرة جداً وثقيلة جداً وتوقعت أن من المستحيل دفعها وتحريكها، لكن الصخرة التي كان يدفعها الآن كانت تدفعها! بدت في وضع متأرجح يسهل معه تحريكها.

- كنت في البداية تتكلمين عن رجل أما الآن فتقولين كان أو كانت. برأيك هل هو رجل أو امرأة؟

- أظن... أظنني رأيته رجلاً، والواقع أنني لم أكن أفكر في ذلك عندئذ. كان أو كانت تلبس بنطالاً وسترة، سترة رجل ذات ياقة مرتفعة.

- وبماذا كان لون السترة؟

- كان أحمر زاهياً وأسود على شكل مربعات، وكان يتدلى شعر طويل نسبياً من تحت شيء يشبه البريد... بدا وكأنه شعر امرأة، لكنه قد يكون شعر رجل أيضاً.

قال الدكتور سيوارتس بشيء من الجفاف: قد يكون بالتأكيد، إذ

سيرِ الرجل عن المرأة من الشعر ثم يعد أمراً سهلاً في هذه الأيام نسبياً، وبماذا حدث بعد ذلك؟

- بدأ الصخر يتدحرج، بدأ يسقط ببطء ثم ازدادت سرعته تدريجياً، وقلت لإيفلين: إنه سيسقط أسفل الهضبة". ثم سمعنا صوت تحطم عندما وصل إلى الأرض، وأظن أنني سمعت صرخة من أسفل «لكني ربما تخيلت ذلك.

- وبعد ذلك؟

- ركضنا إلى أعلى التلة واستدرنا عند إحدى زوايا الهضبة لرؤية ما حدث للصخرة.

- وماذا رأيتما؟

- رأينا الصخرة على الممر وتحتها جسد شخص... ورأينا أقدام ممرضين من عند الزاوية.

- هل كانت الآنسة تيسل هي التي صرخت؟

- أظن أنها هي، وقد يكون واحداً من الذين كانوا يركضون. إذا فقد كان... لقد كان منظراً مرعباً.

- نعم، إنه كذلك بالتأكيد. وماذا حدث للشخص الذي شاهدتماه في أعلى الهضبة؟ الرجل أو المرأة صاحب السترة الحمراء والسوداء؟ هل بقي هناك بين الصخور؟

- لا أدري، فلم أرفع بصري لأنظر. كنت... كنت مشغولة بالنظر إلى الممرضات وبالركض إلى أسفل الهضبة لرؤية ما يمكنني فعله. أظن أنني رفعت بصري لحظة لكني لم أر أحداً هناك... الصخور

فقط. كان هناك الكثير من التوقعات الصغيرة بحيث لا يمكن أن تقع بقرارك أي تناقض هناك.

– أيمكن أن يكون ذلك الشخص واحداً من الذين معك في الرحلة؟

– أنا لا أدري. أنا واثقة من أنه ليس واحداً منا. كنت سأعرف ذلك، أقصد من ملابسه. أنا واثقة من أن أحداً لم يكن يلبس ثياب فرنية وسوداء.

– شكراً لك، آنسة كراوفورد.

ثم توجه لمحققين براين بعطفه، وكانت روايته نسخة طبق الأصل من رواية جوناد. وقد تم الإدلاء بشهادات أخرى قليلة لكنها لم تكن ذات أهمية. وتوصل قاضي التحقيق إلى حتم وجود دليل كاف يوقع كيفية وفاة إليزابيث تيمبل وأقفل التحقيق لمدة أسبوعين.

* * *

الفصل السابع عشر

الآنسة ماربل تقوم بزيارة

لم يتكلم أحد من المجموعة وهي في طريق عودتها من جلسة التحقيق إلى منطقر فوالدن بون. كان البروفسور والسيد بيبر يجالبان الآنسة ماربل، ربما لأنها لم تكن تمشي بخطوات سريعة فقد تخلفا عن أفراد المجموعة الآخرين.

سألته الآنسة ماربل أخيراً: ماذا سيحدث بعد ذلك؟

– هل تقصدين من الناحية القانونية أم ماذا سيحدث لنا؟

– كلاهما، لأن الواحد يؤثر على الآخر بالتأكيد.

– يجب أن تكون فرقة تحقيق من الشرطة القيام بالتحقيق فيها استناداً على ما أدلى به هذان الشابان.

– نعم.

– سيكون من الضروري إجراء المزيد من التحقيق. كان تأجيل جلسة التحقيق أمراً لا بد منه. فلا أحد يمكن أن يتوقع من قاضي

التحقيق إصدار حكم يقضي باعتبار الوفاة مجرد حادث عرضي.

- نعم، لا أظن ذلك. ما رأيك بشهادتها؟

نظر البروفيسور والستيد إليها نظرات حادة وقال شيئاً موحياً: هل لديك أية أفكار حول هذا الموضوع يا آنسة ماربل؟ إنها تعرف مسبقاً ما كانا سيقولانه بالطبع.

- نعم.

- إن ما نقصده هو أننا نسألين عن رأيي بالشابين نفسيهما، من شعور معما حول الحادث؟

- كان شيئاً، شيئاً جداً... السترة ذات المربعات الحمراء والسوداء. أظنها مهمة جداً، أليس كذلك؟ ملفتة للنظر.

- نعم، هكذا تماماً.

نظر إليها مرة أخرى بالنظرات الحادة نفسها وقال: ماذا ترمي لذلك بالضبط؟

قالت الآنسة ماربل: أظن... أظن أن وصف تلك السترة قد يعطينا دليلاً قيماً.

وصل الجميع إلى الفندق. كانت الساعة الثانية عشرة والنصف فقط وقررت السيدة ساندبورن تناول بعض المرطبات قبل الذهاب إلى الغداء، وفيما بدأ تقديم المرطبات قررت السيدة ساندبورن في إعلان بعض الأمور: لقد تصحتي كل من قاضي التحقيق والشرطي «وفلاس» بما أن شهادة الطبيب الشرعي قد أُخذت بشكل كامل فسوف تقام في الكنيسة غداً الساعة الحادية عشرة مراسم الدفن،

وسأقوم بترتيب الأمر مع السيد كوزاني القاضي المحلي. وأظن أنه من الأفضل لنا أن نسافر الرحلة في اليوم التالي. سيتعبر البرنامج قليلاً ... من هنا ثلاثة أيام، لكني أعتقد بإمكانية إعادة تنظيم برنامج الرحلة ... قليلاً أيضاً ببساطة. لقد سمعت من بعض الزملاء، منهم بالمهم يفضلون العودة إلى لندن بالقطار، وأنا أتفهم تماماً المشاعر التي دفعتهم لذلك ... لا أريد أن أحاول التأثير عليكم بأية طريقة. لقد كان هذا الحادث مؤسفاً جداً، وما زلت أشعر تماماً أن ما جرى للآنسة تيمبل كان حادثاً عرضياً، ومثل هذا الحادث وقع من قبل على نفس ذلك المنحدر رغم أنه لا يوجد في هذه الحالة أي ظرف جيولوجي أو مناخي أعتقد. أظن أنه يترتب عليهم القيام بمزيد من التحقيق. وبالطبع قد يكون أحد المسافرين هو من دفع هذه الصخور بحسن نية دون أن يدرك خطر وجود شخص يسير أسفل منه، وإذا كان هذا ما حدث وتقدم هذا الشخص وأدلى باعترافاته، فإن التحقيقات كلها ستنتهي تماماً بسرعة، لكني لا أستطيع التسليم بهذه الحقيقة في الوقت الحاضر، ويبدو أن من غير المحتمل أن يكون للآنسة تيمبل أعداء أو أي شخص يرغب بإيذاء الآخرين بها. إن ما أراه هو أن لا نناقش موضوع هذا الحادث بعد الآن، ستقوم السلطات المحلية بإجراء التحقيقات وهي المختصة بهذا العمل. أعتقد أنا جميعاً نود حضور الجنازة في الكنيسة غداً، وبعد ذلك عندما نستأنف الرحلة فإني أميل أن نتسلى أصدقاؤها بمرارة الصدمة التي عشناها. ما زال هناك بعض البيوت الشهيرة والمثيرة لكي نزورها إضافة إلى بعض المناظر الطبيعية الخلابة أيضاً.

أعلن عن الغداء بعد ذلك بوقت قصير، ولم يعد أحدٌ يتناول الموضوع... جداً على الأقل. وبعد الغداء تناول الجميع القهوة في

الرحلة وانطلقوا في مجموعات صغيرة يتفقدون ترتيباتهم وتنظيم الأمتعة.

سأل البروفسور وانستيد الآنسة ماربل: هل ستواصلين الرحلة؟

ردت عليه الآنسة ماربل متأملة: لا، لا. أظن أن ما حدث يجعلني أميل لأن أبقى هنا بعض الوقت.

- في هذا الفندق أم في بيت العزبة القديمة؟

- الواقع أن هذا يعتمد على ما إذا كنت سأتلقى دعوة أخرى للعودة إلى بيت العزبة القديمة أو لا. لا أريد أن أفرض عليهن فالقلق يقضي الآن دعواي الأصلية كانت للقضاء ليلتين فقط، وهي المدة التي كانت ستستغرقها الرحلة هنا أصلاً. أظن أنه من الأفضل لي أن أبقى في الفندق.

- ألا تشعرين بالحنين إلى سيدت مبري سيد؟

- ليس بعد. أظن أن بإمكاني عمل بعض الأشياء هنا. لقد عملت شيئاً واحداً منها. إذا كنت ستواصل رحلتك مع المجموعة فسوف أخبرك بما أركز اهتمامي عليه وأقترح إجراء تحقيق بعض صغير قد يكون مساعداً. السبب الآخر الذي يجعلني أبقى هنا سأخبرك به فيما بعد. هناك تحقيقات معينة، تحقيقات محلية أريد القيام بها وقد لا تؤدي إلى أية نتيجة ولذلك أفضل عدم ذكرها الآن. وأنت؟

- أرغب بالعودة إلى لندن. لدي هناك عمل ينتظرني، إلا إذا كان بإمكاني مساعدتك؟

قالت الآنسة ماربل: لا، لا أظن ذلك في الوقت الحالي. أظن أن لديك بعض تحقيقات تريد القيام بها بنفسك.

- لقد جئت إلى هذه الرحلة لمقابلتك يا آنسة ماربل.

- وقد قابلتني الآن، وأنت تعرف ما أعرفه. ولكن لديك بالتأكيد الخاصة الأخرى التي تريد الإعداد لها. إنني أفهم هذا، وأظن قبل أن تغادر المكان هناك بعض الأمور قد تكون مساعدة وقد تعني شيئاً.

- فهمت، لديك أفكار.

- إنني أتذكر ما قلته.

- ربما اتضحت واتجهة النظر؟

- من الصعب معرفة معنى وجود شيء غير طبيعي في البحر.

- لكن تشعرين بالفعل أن في البحر شيئاً غير طبيعي؟

- آه، نعم. هذا واضح جداً.

- وخصوصاً بعد وفاة الآنسة تيمبل التي لم تكن حادثاً بالطبع بغض النظر عن آراء السيدة ساندورث؟

قالت الآنسة ماربل: بالطبع لم تكن حادثاً. إن ما لم أخبرك به بعد أظن - هو أن الآنسة تيمبل قالت لي ذات مرة إنها جاءت في رحلة صيد.

قال البروفسور: هذا مثير. نعم، إنه مثير. ألم تخبرك ما هي رحلة الصيد هذه، إلى أين أو إلى من؟

– لم تفعل، ولو عاشت بعض الوقت ولم تكن بهذا الضعف لأعجزتني. ولكان لسوء الحظ، حادثها البيئة بسرعة.

– إذن ليست لديك أية أفكار أخرى حول هذا الموضوع؟

– لا، مجرد إحساس بالكآبة من أن رحلة المسيح التي كانت بها قد انتهت بواسطة خطة ماكرة خبيثة. يوجد شخص أراد أن يمنعها من الذهاب إلى حيث كانت ذاهبة أو يمنعها من الذهاب إلى شخص كانت تريد الذهاب إليه. لا يملك المرء إلا أن يتمنى أن يتبع له القدر معرفة هذا الأمر.

– وهل هذا هو السبب الذي ستبقين من أجله هنا؟

– ليس هو السبب الوحيد، فأنا أريد أيضاً معرفة المزيد عن فتاة تدعى نورا بروه.

بدا متحيراً بعض الشيء وهو يقول: نورا بروه؟

– الفتاة الأخرى التي اختفت في نفس الوقت تقريباً الذي اختفت فيه فيرجيني هنت. أنت تذكر أنك ذكرتها لي، الفتاة التي كان لها أصدقاء كثيرون من الشباب وكانت مستعدة جداً لمصادقة الكثيرين غيرهم. فتاة حمقاء ولكن من الواضح أنها كانت جذابة بالنسبة للشباب. أظن أنني لو عرفت بعض الأشياء عنها فإن ذلك قد يساعدني في تحقيقاتي.

قال البروفيسور والسنيد: اعملي ما شئت أيتها السكرتيرة ماريل.

* * *

جرت مراسم الجنازة في صباح اليوم التالي، وحضرها جميع أفراد الرحلة. نظرت الآنسة ماريل حولها في الكنيسة، فقد حضرها أيضاً العديد من سكان القرية. كانت هناك السيدة فايرز وأختها الزوجة، آنا الصغرى كما تلقب بحضرة. وكان هناك بعض أهل الدير أيضاً، ربما لم يكونوا يعرفون الآنسة ليجعل تكتلهم جاورا بدافع الفضول. وكان من بين الحاضرين رجل ذو عجوز يزيد عمره على السبعين، وكان رجلاً غريب المتكبرين أيضاً الشعر. كان لديه مقعد بعيد صغيرة في الوقوف، وأحست الآنسة ماريل أنه صاحب وجه حسن وتساءلت عما عن يكون. رأت أنه ربما كان واحداً من أصدقاء الزوجة ليجعل القدامى جاء من مسافة بعيدة لحضور جنازتها.

وبينما كانوا خارجين من الكنيسة تبادلت الآنسة ماريل بضع كلمات مع زملاء رحلتها. لقد عرفت الآن جيداً ماذا سيفعل كل واحد، فهما بأكثر وزوجته سيعودان إلى لندن.

قالت الزوجة: لقد أخبرت هنري بأنني لا أستطيع مواصلة الرحلة. أعتقد أنني في أية لحظة أمامي فيها عند زاوية معينة قد يلقي شخص عليا سحراً أو يخدعا بالرصاص... شخص يكن حقداً على مكتب السفريات المسؤول عن رحلتنا.

قال السيد بالكر: ما بك يا مامي؟ لا تدعي بخيالك إلى هذا الحد.

– آسف لا تعرف ما يحدث في هذه الأيام. خاطفو الطائرات، وخاطفو الناس ومثل هذه الأشياء... في الحقيقة أحاد لا أشعر بالأمان في أي مكان.

أما العجوز الأنسة لوملي والآنسة بنهام فسوف تواصلان الرحلة، فقد تلاقت مخاوفهما: لقد دفعنا مبلغاً كبيراً للمشاركة في هذه الرحلة ويبدو مؤسفاً أن يفوتنا شيء بسبب هذا الحادث المحزن فقط. لقد فصلنا بحيراتنا الطيبين الليلة الماضية وسوف يهتمون بأمر القطط، لذلك لا حاجة للقلق.

سيبقى الأمر في نظر الآنسة لوملي والآنسة بنهام مجرد حادث، فقد قررنا أن اختباء حادثاً يجلب لهن الراحة أكثر. وكانت السيدة رابسلي بورتر قد قررت الاستمرار في الرحلة أيضاً. والكولونيل وولكر وزوجته قررا أنه لا يوجد شيء يمكن أن يثنيهما عن متابعة الرحلة ورؤية الحديقة الجميلة التي سيذهبون إليها في اليوم التالي. كما أن المحضري جيبسون كان متلهفاً وراء رغبته في رؤية المباني المحافظة ذات الأهمية الخاصة بالنسبة له. أما السيد كاسبر فقد قال إنه سيغادر بالقطار. ولم تقرر الآنسة كوك والآنسة بارو ما ستفعلان بعد.

قالت الآنسة كوك: المشي هنا جميل جداً، وأظن أنا سنبقى في فندق فولدن بير لبعض الوقت. هذا ما ستفعلينه أنت يا آنسة مارپل، أليس كذلك؟

– إني أفكر بذلك فعلاً. لا أشعر بالقدرة على الاستمرار في هذه الرحلة، إذ يوماً من الراحة أو يومين قد يساعدني بعد الذي حدث.

وعندما افترق الجمع الصغير سارت الآنسة مارپل في طريق خاص بها. أخرجت من حقيبتها ورقة من أوراق دفتر ملاحظاتها كانت قد دونت فيها عنوانين، الأول عنوان امرأة تدعى السيدة بلاكيت

كانت تعيش في بيت صغير جميل له حديقة ويقع عند طرف الطريق الذي يصعد من هناك باتجاه الوادي. وصفت الدليل امرأة صغيرة الجسم أبيضة الشعر.

– السيدة بلاكيت؟

– نعم، هذا هو اسمي.

– هل يمكنني الدخول للحديث معك لبعض الوقت؟ لقد جئت من الجزيرة وأشعر ببعض الدوار. هل لي بالجلوس عندك لبعض الوقت؟

– يا إلهي، آه، أنا آسفة لهذا. ادخلي بسرعة يا سيدتي، ادخلي هنا. هذا صحيح، اجلسي هنا. سأحضر لك كأساً من الماء... أم تريدين كوباً من الشاي؟

قالت الآنسة مارپل: أعتقد أن كأس من الماء سينعشني أكثر.

عادت السيدة بلاكيت ومعها كأس من الماء، واستعدت راغبة للثرثرة في أحاديث الأمراض والدوار والأشياء الأخرى. قالت: لدي ابن أخ مثلك. إنه لا يزيد عن الخامسين عاماً بكثير لكنه يدوخ من وقت لآخر فجأة، وما لم يجلس على الفور فإنه يقع على الأرض متعباً عليه. حالته فظيعة، فظيعة، ويبدو أن الأطباء غير قادرين على عمل أي شيء له. ها هو كأس الماء، تفضلي.

قالت الآنسة مارپل وهي ترتشف الماء: آه، أشعر الآن بتحسن كبير.

– هل أنت في جزيرة السيدة المسكينة التي يقول البعض إنها

قالت فيما يقول آخرون إنه مجرد حادث؟ أنا أعتقد أنه حادث، لكن هذه التحقيقات وهؤلاء الفضاة يريدون جعل الأمور تبدو جنائية دائماً.

- آه، نعم. كانت أشعر بالأسف الشديد على سماع هذه الأشياء في الماضي. لقد سمعت الكثير عن قصة تدعى نورا... أظن أن اسمها نورا بيرد.

- آه، نوراه نعم. كانت زوجة ابن عمي. نعم، لقد حدث ذلك منذ وقت طويل، حرصت ولم تعد بعدها أبداً. هؤلاء الفتيات لا تأتي بنتائج... لقد قالت مراراً لتاسي بيرد أدعي أنها وزوجة ابن عمي! قلت لها: "إنك تخرجين للعمل طوال النهار، فمتى تفعل نورا في غيابك؟ تعرفين أنها تميل إلى مصاحبة الأولاد. ستحدث مشكلات، سوف ترين كيف ستقع المشكلات"... وقد حدث ما قلت بالضبط.

- تقصدين...؟

- المشكلة المعتادة. نعم، حملت. ولكن لا أظن أن زوجة ابن عمي كانت تعرف بالأمر. لكني في الخامسة والستين من عمري وأعرف -طبعاً- حقيقة الأمور وكيف تبدو الفتاة عندما تكون حاملاً، وأظن أني أعرف من هو صديقها الذي حملت منه لكني لست واثقة، قد أكون مخطئة، لأنه لم يعيش في المنطقة وقد حزن كثيراً عندما فُقدت نورا.

- تقولين إنها رحلت؟

- قيلت أن يحملها شخص بسيارته... شخص غريب، وكانت تلك آخر مرة شوهدت فيها. لقد نسيت نوع السيارة الآن، كان اسمها

نوعاً... سيارة أودوبت أو شيئاً كهذا. على أية حال فقد شوهدت قبلها من تلك السيارة مرة أو مرتين، ثم رحلت فيها. وقيل إنها السيارة نفسها التي كانت تركبها تلك الفتاة السكانية التي قُتلت، لكني لا أظن أن ذلك ما حدث نورا أيضاً. لو أن نورا قُتلت لكانت جثتها قد ظهرت خلال هذه المدة، ألا ترين ذلك؟

- يبدو ذلك مرجحاً بالتأكيد. هل كانت فتاة ذكية ومجتهدة في دروسها؟

- آه، لا، لم تكن كذلك. كانت كسولة ولم تكن ذكية في دروسها. لا، كانت تهتم فقط بمصاحبة الأولاد منذ أن كانت في الثانية عشرة من عمرها. أظن أنها رحلت في النهاية مع واحد منهم إلى الأبد، لأنها لم تخبر أحداً ولم ترسل حتى بطاقة معايدة. أظن أنها رحلت مع شخص وعدها بأشياء ومشتريات، وأنت تعرفين كيف ترتفع الفتيات وراء سراب الرجال. حدث ذلك منذ سبع سنوات تقريباً، لكني أظن أنها سيعود يوماً ما بعد أن تعلم من دروسها وتكتشف أن كل هذه الوعود المعسولة لا تتحقق قط.

سألتها الآنسة ماربل: هل كانت تعرف أي شخص تذهب إليه عدا ما عدا... ما عدا أنهاء أقصد زوجة ابن عمك... أي واحد؟

- الكثيرون كانوا يكرمونها. مثلاً السيدات اللاتي يعشن في بيت العزبة القديمة، لم تكن السيدة طيبين تعيش هناك وقتها ولكن الآنسة كاثوبلد كانت تحسن الفتيات المدرسة دائماً. تعم، لقد أهدت نورا الكثير من الهدايا الجميلة، أهدتها قبعة جميلة جداً وثوباً جميلاً أيضاً. كان ثوباً جميلاً جداً، ثوباً صيفياً من حرير الشوالك. كانت لديها الآنسة كاثوبلد هذه، وكانت تحاول حمل نورا على الاهتمام

بدروسها أكثر، وقد نصحتها بعدم الاستمرار في الطريق الذي كانت تسلكه لأن سلوكها وخروجها مع الشباب فعل مخجل ورهيب. ما كان ينبغي أن أقول هذا عنها وهي ابنة لابن عمي، لكن كان أي شاب يستطيع أخذها... أمر محزن جداً. كنت أقول إنها ستخرج إلى الشوارع في النهاية، ولا أعتقد أن لها مستقبلاً غير هذا. لا أحب أن أقول هذه الأشياء، لكنها الحقيقة.

سكتت قليلاً ثم قالت: على أية حال ربما كان ذلك أفضل من أن تتزوج كما أرادت الأسرة هدى التي كانت تعيش في بيت العزبة القديمة. كانت جريمة وحشية، اعتقدوا أنها رحلت مع شاب وانشغل الشرطة بالبحث عنها. كانوا يسألون عنها ويطلبون من الشباك الذين كانوا مع الفتاة مساعدتهم في التحقيق والبحث عنها، واعتقدوا جيوفري فرانت وبيلي توسمود وهاري لاندغرين، وكلهم عاطلون عن العمل... مع وجوه كثير من الوظائف المتاحة لهم لو كانوا يريدون العمل فعلاً. لم تكن الأمور هكذا عندما كنت صغيرة. كانت الفتيات يتصرفن بطريقة لائقة ومحترمة وكان الأولاد يعرفون أن عليهم أن يعملوا ويجتهدوا إذا كانوا يريدون تحقيق أي هدف في الحياة.

تحدثت الآنسة ماربل قليلاً وقالت إنها قد استعادت الآن قوتها، وتذكرت السيدة بلاكيت وخرجت. كانت زيارتها التالية لفتاة كانت تزرع الخس في حديقة بيتها.

- نورا بروك؟ إنها خارج القرية منذ سنوات. لقد رحلت مع شاب، كانت تصاحب كثيراً من الأولاد وكنت أتساءل دائماً أين سينتهي بها المطاف. هل كنت تريدينها لسبب معين؟

قالت الآنسة ماربل غير صادقة: لدي رسالة من صديقة في الخارج. إنها من عائلة لطيفة جداً، وكانت تفكر في تشغيل الآنسة نورا بروك. أظن أنها كانت في ورطة، تزوجت شخصاً سيء السلوك ثم تركها ورحل مع امرأة أخرى فأرادت أن تعمل في مجال رعاية الأطفال. لم تكن صديقتي تعرف عنها شيئاً، لكني أظن أنها من هذه القرية، لذلك تساءلت عمّن يمكن أن يخبرني عنها بشيء. أظن أنك كنت معها في المدرسة؟

- آه، نعم، وكنا في الفصل ذاته أيضاً، لكن لم أكن راغبة في مصرفات نورا آنذاك، فقد كانت مجنونة بالشباب. كان لي صديق لطيف أخرج معه باستمرار في ذلك الوقت ولا أخرج مع غيره، وأعترف ذات مرة بأنها نظرت نفسها عندما تخرج مع أي شاب يعرض عليها برعيبة بسيارته أو يأخذها إلى إحدى الحفلات حيث كانت تكذب عليهم بخصوص عمرها. كانت تبدو أكبر من سنها الحقيقي.

- هل كانت سمراء أم شقراء؟

كانت سوداء الشعر. كان شعرها جميلاً وكانت تتركه طليقاً دوماً.

- وهل بحثت الشرطة عنها بعد اختفائها؟

- نعم، فهي لم تترك أي رسالة وراءها أو تخبر أحداً. غريبة ذات ليلة هكذا ولم تعد، وقد تبرهدت وهي تركب سيارة، لكن لم يز أحدٌ السيارة بعد ذلك ولم يرها أحد هي أيضاً. وفي ذلك الوقت وقعت عدة جرائم قتل، ليس في هذه المنطقة على وجه الخصوص ولكن في جميع أنحاء الريف. كان الشرطة يستجوبون الكثير من الشباب والأولاد، واعتقدنا بأن إحدى الجثث في حالة نورا لكنها لم

تكرر هي. كانت بأتم حال ولا أرى إلاّ أنها موجودة في لندن تكوّن ثروة كبيرة هناك أو في إحدى المدن الكبيرة ترقص في الملاهي الليلية. عندما كانت ستؤول إليه.

قالت الآنسة ماربل: إن كانت كما تقولين فلا أظن أنها تناسب صديقي.

قالت الفتاة: إذا أردت أن تكوني مناسبة فيجب أن تغيّر سلوكها تماماً.

• • •

الفصل الثامن عشر

رئيس القساوسة برابازون

عندما عادت الآنسة ماربل إلى المنزل مجهدة لأنها بحثت طوال اليوم، جاءت مونيكا الاستقبالها وقبل أن تخبرها: الآنسة ماربل، يوجد هنا شخص يريد أن يتكلم معك، إنه رئيس القساوسة برابازون.

ردت الآنسة ماربل متعجبة وهي تقول: رئيس القساوسة برابازون؟

نعم، كان يحاول العثور عليك لقد سمع عن وجودك في هذه الرحلة وأراد أن يتحدث معك قبل أن تغادري إلى لندن. وأخبرته بأن بعض المشتركين في الرحلة سيعودون إلى لندن في قطار بعد ظهر اليوم لكنه مهتم جداً جداً بالتحدث معك قبل ذهابك. لقد طلب منه الانتظار في قاعة التلفزيون لأنك هناك أكثر خصوصاً، أما القاعة الأخرى فهي مزدحمة في هذه اللحظة.

ذهبت الآنسة ماربل إلى تلك القاعة وقد بدأت تشعر بعض علامات الدهشة. فلم أن رئيس القساوسة برابازون هو رجل الدين المحبوب الذي رأته في الكنيسة في أثناء مراسيم الجنازة، وقد تهيأ من

مجيبة وجاء إليها قائلاً: الآنسة ماريل، حين ماريل؟

- نعم أنا.

- أنا رئيس المساعدة برايزون. لقد جئت إلى هنا هذا الصباح لحضور جنازة صديقة قديمة لي هي الآنسة إليزابيث تيمبل.

- آه، نعم. اجلس من فضلك.

- أشكرك، سأجلس، ظهر أحد قوياً كما كنت.

ثم جلس على كرسي بعيد وقال: وأنت...

جلست الآنسة ماريل بجانبه. قالت: نعم، هل أردت رؤيتي؟

- يجب أن أوضح لك كيف حدث ذلك. أعرف تماماً أني غريب بالنسبة لك. والواقع أني قمت بزيارة قصيرة إلى المستشفى في تاريسداون وتحدثت مع مديرة المستشفى قبل أن أذهب إلى الكنيسة هناء وهي التي أخبرتني بأن إليزابيث طلبت قبل وفاتها رؤية زميلة لها في الرحلة، الآنسة جين ماريل، وأن الآنسة جين ماريل قد زارتها وجلست معها لوقت قصير جداً... قبل أن تموت إليزابيث.

نظر إليها بلهفة، فقالت: نعم، هذا ما حصل. لقد ارتحتني أن تطلب مني الحضور.

- وهل أنت صديقة قديمة لها؟

- لا، لقد التقيت بها في هذه الرحلة فقط. وهذا ما أدهشني. لقد تبادلنا بعض الأفكار معاً وكنا نجلس أحياناً معاً في الحافلة وتعارفنا لكني دهشت لأنها طلبت رؤيتي وهي تحتضر.

- نعم، نعم، أتخيل هذا. كانت - كما قلت لك - صديقة لي حقاً وحدث طويل، والواقع أنها كانت قادمة لرؤيتي وتذكرني. إنني أعيش في ملبستر حيث ستتوقف حافلاتكم بعد غد، وقد اتفقنا على أن تقوم بزيارتي هناك حيث أرادت أن تتحدث معي بخصوص عدة أمور كانت ترى أن بإمكاني مساعدتها فيها.

- فهمت، وهل لي أن أسألك سؤالاً؟ أرجو أن لا يكون سؤالاً شخصياً.

- بالطبع يا آنسة ماريل، سليني ما بدا لك.

- إن أحد الأشياء التي قالتها الآنسة تيمبل لي هو أن وجودها في الرحلة لم يكن فقط بسبب رغبتها في زيارة البيوت التاريخية والحدائق. لقد وصفت السبب بكلمة من الغريب استعمالها، حيث قالت إنها الرحلة صح؟

- أحقاً قالت ذلك؟ نعم، هذا حق، وربما كانت له دلالة معينة.

- لذلك فإن سؤالي هو: هل تظن أن رحلة الصيح التي تكلمت عنها هي زيارتها لك؟

- لا بد أن تكون كذلك. نعم، أظن هذا.

قالت الآنسة ماريل: كنا نتحدث عن فتاة صغيرة، فتاة تدعى فيرجي.

- آه، نعم، فيرجي هدت.

- لم أكن أعرف اسم عائلتها. أظن أن الأنسة إيميل أشارت إليها باسم فيرجني فقط.

- فيرجني جنت مالت؟ ماتت قبل سنوات عديدة. هل كنت تعرفين هذا؟

- نعم، عرفت. كنت أتحدث مع الأنسة إيميل عنها وأخبرتني الأنسة إيميل بذلك، لم أكن أعرف، قالت إنها كانت مخطوبة لابن السيد رافائيل وتريد الزواج به. وكان السيد رافائيل صديقاً لي، وهو الذي دفع تكاليف هذه الرحلة كرماً منه. وأظن أنه كان يريد أن كان يريدني، فعمي إلى مقابلة الأنسة إيميل في هذه الرحلة. أعتقد رأى أنها قد تستطيع إعطائي معلومات محددة.

- معلومات محددة عن فيرجني؟

- نعم.

- كانت قادمة لزيارتي من أجل هذا السبب، كانت تريد معرفة حقائق معينة.

- ربما أراهنك أن تعرف سبب فسخ فيرجني خطوبتها بابن رافائيل؟

- لكن فيرجني لم تفسخ خطوبتها، أنا متأكد من هذا تماماً.

- هل كانت الأنسة إيميل تعرف هذا؟

- لا، أظن أنها كانت محتارة وحزينة لما حدث وكانت قادمة إليّ لتسألني لماذا لم يقع الزواج بينهما.

- ولماذا لم يقع؟ أرجو أن لا تعتقد بأن هذا مجرد فضول من طرفي، إن ما يدفعني لسؤالك ليس مجرد الفضول، بل الأخرى مسألة... لن أقول في رحلة حج، ولكن في مهمة. أنا أيضاً أريد معرفة السبب في عدم زواج مايكل رافائيل وفيرجني هنت.

نظر رجل الدين إليها نظرات متفحصة لبعض الوقت ثم قال: أرى أنك ذات صلة بالأمر.

- إني مشاركة في هذا الأمر بموجب وصية والد مايكل رافائيل، لقد طلب مني أن أقوم له بهذا العمل.

- لا أرى سبباً يدعوني من إخبارك بكل ما أعرف. إنك تسألينني ما كانت مسألتي إليزابيث إيميل عنه، تسألينني عن شيء لا أعرفه. كان هذا الشابان يتهيأن الزواج يا آنسة مارييل، لقد قاما بعمل الترتيبات الخاصة بالزواج وكانت ستأتي وجهها. كان زواجاً أراد له أن يبقى سرياً، وكانت أعرف هذين الشابين، كنت أعرف الفتاة الصغيرة فيرجني منذ زمن بعيد. كنت أقوم بالمواظبة في البيت في عيد الفصح وفي مناسبات أخرى في مدرسة إليزابيث إيميل، وكانت مدرسة جميلة جداً وراقية وكانت هي امرأة رائعة، كانت معلمة عظيمة تدرك إدراكاً عظيماً قدرات كل فتاة عندها وما يناسبها من الاختصاصات. كانت توجه الطالبات إلى المهن والأنشطة التي تناسبهن وتُبرع في ذلك، ولم تكن تجبر الفتيات على أنشطة كانت تشعر أنها لا تناسبهن. كانت امرأة عظيمة وصديقة عزيزة. وكانت فيرجني من أجمل الفتيات اللاتي رأيتهن، كانت جميلة في خلقها وفي وجهها إضافة إلى جمال شكلها، وقد سألها القدر إلى أن تفقد أبويها قبل بلوغها. لقد حلّ مأساة في حادث تحطم طائرة كانت في رحلة إلى إيطاليا لقضاء عطلة، وعندما

غادرت فيرجي المدرسة ذهبت لتعيش مع امرأة تدعى الآنسة كلوتيلد سكوت، وكانت صديقة مقربة لوالدة فيرجي.

سكنت هنيبعل ثم قال: وهناك في ذلك البيت كانت أخوات رقم أن الوسطى كانت متزوجة وتعيش خارج البلاد، وتلك كانت الثلاث منهن تعيشان هنا. وقد تعلقت الأخت الكبرى كلوتيلد بالفتاة تعلقاً شديداً. لقد بذلت كل ما تستطيع لتجعل فيرجي تعيش حياة سعيدة فأخذتها معها إلى الخارج أكثر من مرة وأعطتها دروساً في الفن في إيطاليا، لقد أحبتها وكانت تهتم بها في كل شيء. وقد أحبتها فيرجي من ناحيتها، ربما بمقدار ما أحبت أمها. كانت تعتمد على كلوتيلد، وكانت كلوتيلد امرأة متعلمة ومثقفة فلم تتخ على فيرجي للدراسة في الجامعة لأن فيرجي لم تكن ترغب بذلك حقيقة. لقد فضلت أن تدرس الفن والموسيقى وجلست هنا في بيت العربة القديمة حياة أظنها كانت سعيدة جداً. وكان طبيعياً أن لا أراها بعد سجنها إلى هنا حيث إن فيليمستر أوفي مكان عملي أمضى نحو سنتين مثلاً. كنت أكتب لها في الأعياد وكانت تذكرني دائماً بطاقة معايدة في عيد الميلاد، لكني لم أرها منذ ذلك الوقت، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي حادثتني فيه فجأة وقد عذبت فتاة حسيلة ناضجة مع شاب وسيم كانت أعرفه هو الآخر من قبل معرفة بسيطة، مايكل بن رافائيل. جاء الاثنان إليّ لأنهما كانا متحابين وأرادا الزواج.

- ورحل وقالت على تزويجهما؟

- نعم وافقت. ربما ترين ما أنسة مارديل - أنه ما كان عليّ أن أفعل ذلك. لقد جاءا إليّ سراً وكان ذلك واضحاً. وأظن أن كلوتيلد سكوت قد حاولت تثبيط علاقة الحب بينهما. كان لها الحق في ذلك. فمايكل رافائيل لم يكن الزوج الذي يطيقه المرء لابنة أو قريبة. وقد كانت في الواقع أصغر من أن تتخذ قراراً بمفردها. وكان مايكل مصدر متاعب حاد أيام صباه؛ لقد نشأ أمام متحاكم الأحداث الجانحين، وكان له أصدقاء سوء، وانحدر وراء قطاع الطرق، وبعض عوالف صعوبة، وكانت له علاقات غرامية مع فتيات كثيرات... نعم، كان فتى بشعاً مع الفتيات وسيئاً في مجالات أخرى أيضاً، وأظنه كان وسيماً إلى أبعد حد وكل يلتفت في حبه ويفقد عقولهن تماماً. كان قد أمضى ستة سنين بالسجن لمدة قصيرة، وبصراحة كان له سجل جنائي. كنت أعرف والدة رقم أني لم أعرفه جيداً، وأظن أنه بذل كل ما بوسعه لمساعدته أيضاً. حبّ الإنقاذ، وأوجد له أعمالاً من شأنه أن ينجح فيها ويدفع عنه ديونه ويعرّفه الشخصيات التي أعدلها له... فعل كل هذا، ولا أعرف...

- لكنك ترى أنه كان بوسعه فعل المزيد، أليس كذلك؟

- أيمي تماماً. لقد وصلت إلى سن أعرف فيه أن المرء يجب أن يقبل غيره من البشر كما هم عليه ويقبل صفاتهم الخطأة والسلوكية التي يأتون بها. لا أظن أن السيد رافائيل كان يشعر بأي عاطفة نحوه، أقصد عاطفة حقيقية. إن أكثر ما يمكن قوله عن أنه كان يحبه حباً معقولاً، لم يعطه الحب والحنان، ولا أعرف إن كان مايكل سيصبح أفضل لو كان الحب من والده. ربما لم يكن ذلك ليغير شيئاً. كان المرء محروماً. لم يكن الولد غبياً، بل كان ذكياً وموهوباً وكان بوسعه أن ينجح في حياته لو رغب بذلك وبذل الجهد المطلوب. ولكن لتعرف بصراحة أنه كان جاذباً بنظرة. كان يمتلك صفات تثير الإعجاب، وكان صاحب دعابة وبكاءة وكان شهماً ولطيفاً في أمور كثيرة. كان من شأنه دائماً أن يلفت إليّ جانب صديق ويساعده في الخروج من

الأزمات، لكنه كان يعامل صاحباته من الفتيات معاملة سيئة ويوقعهن في المشكلات ثم يتخلى عنهن ويذهب إلى واحدة أخرى.

توقف قليلاً وكأنه يتذكر ثم قال: وهكذا واجهت مايك الشابين و... نعم، قالت تزوجهما. أخبرت فيرني، أخبرتها صراحة عن نواياه التي كانت تريد الزواج به، ووجدت أنه لم يحاول خداعها في أي شيء. فقد أخبرها بأنه كان واقع الوقوع في مشكلات مع الشرطة، وقد أخبرها بأنه سيبدأ حياة جديدة عندما يتزوجها وأي شيء سيتغير. حذرتها من أن ذلك لن يحدث وأنه لن يتغير، فالناس لا يتغيرون. ربما كان يحتاج لتغيير حياته. وأظن أن فيرني كانت مثلي تعلم ذلك، واعترفت بأنها تعرف ذلك، قالت: "أعرف طبيعة مايك، أعرف أنه ربما يأتي اليوم الذي أتركه فيه. قد أستطيع مساعدته وقد لا أستطيع، ولكني سأخوض تلك المجازفة". وسوف أخبرك يا آنسة ماربل: إني أعرف الكثير، فقد عاشرت الكثير من الشباب وزوجت الكثير منهم ورأيت كيف كانوا فاشلين في حياتهم ثم تحولوا فجأة إلى الأحسن... إني أعرف ذلك وأدركه، وأعرف من يكون الذي متحالفين حقاً. إن الحب يعني الارتباط معاً في السراء والضراء وفي الغنى والفقر وفي المرض والصحة... هذا ما يعنيه الحب والرغبة في الزواج. لقد أحب هذان الاثنان كلٌ الآخر، وتعاهدا على الحب وعدم الافتراق إلا بالموت.

سكتت مليّاً ثم قال: وهنا تنتهي روايتي. لا أستطيع مواصلتها لأني لا أعرف عما حدث. كل ما أعرفه هو أني وافقت على طلبهما وقمت بعمل الترتيبات اللازمة وحددت يوماً وساعة ومكاناً. وأظن أني أتحمل اللوم في موافقتي على سرية الزواج.

قالت الآنسة ماربل: لم يريدا أن يعرف أحدٌ بالأمر؟

- نعم، فيرني لم ترد أن يعرف أحدٌ بالزواج وأظن أن مايك كان هو الآخر لا يريد أن يعلم به أحد. كانا خائفين من أن يمنعهما أحد من إتمام الزواج. وبالنسبة لفيرني فأظن أنه إلى جانب الحب كان هناك أيضاً إحساس بالهروب، وهو أمر طبيعي بسبب الظروف حولها، فقد فقدت أبويها الحقيقيين ودخلت في حياتها الجديدة بعد وفاتهما وهي الفتاة في المدرسة في سنّ وصلت فيه إلى مرحلة التعلق بشخص ما، معلمة جذابة، أي معلمة، أو بفتاة مثالية أو فتاة أكبر منها سناً... وهي حالة لا تستمر طويلاً وإنما فترة من الحياة، ثم بعد ذلك تدخل في المرحلة التالية عندما تدرك أن ما تريده في حياتك هو ما يكمل ذاتك، علاقة بين رجل وامرأة، عندها تبدأين في البحث عن شريك حياة. وإذا كنت حكيمة فإنك ستجدين، فإن لديك أصدقاء لكنك تدركين كل واحد منهم بمعزل عن الزوج المثالي. قالت الكولونيل ستاربت طيبة جداً مع فيرني وأظن أن فيرني كانت معلقة بها تعلقاً أشبه بما يسمى «عبادة البطل». فقد كانت لديها الشخصية والأبهة والمسألة، وأظن أن فيرني أحبتها كما لو كانت أمها واعتقد أن كولونيل أحبتها كما لو أنها ابنتها. وهكذا كبرت فيرني ونضجت في جو من الحب، وعاشت حياة سعيدة وكانت مرغوبة جداً، سيطر تحضر فترتها العقلية. كانت حياة سعيدة، لكني أظن أنها أدركت تدريجاً قليلاً وبدون شعور منها وجود رغبة لديها بالهروب، الهروب من حب تلك المرأة لها، الهروب إلى شيء أو مكان لا تعرفه. وعرفت ذلك بعد لقائها بمايكل، لكنها كانت تعلم أن من المستحيل بعمل كولونيل تفهم مشاعرها. قالت تعلم أن كولونيل ستعارض بقوة تلك الهدية التي تأخذ بها حبها لمايكل، وأعتقد أن كولونيل كانت على صواب في اعتقادها... أعرف هذا

الأب. لم يكن زواجاً يليق بفيربي، فالطريق الذي سارت فيه لم يكن ليؤدي بها إلى السعادة ولا إلى استمرار السعادة، بل كان يؤدي إلى صدمة وألم وموت! إنني أتحدث بالغيب الكبير يا آنسة ماربل، كانت «واقعي عليه لكني لم أعرف ما كان علي أن أعرف. لقد عرفت فيربي لكني لم أعرف مايكل. لقد انتهيت رغبة فيربي في سرية الزواج لأني عرفت قوة شخصية كاثرينا سكودر، فربما مارست نفوذاً قوياً على فيربي لإقناعها بالتخلي عن فكرة الزواج.

- هل ترى إذن أن ذلك ما فعلته حقاً؟ هل ترى أن كاثرينا أخبرتها عن مايكل بما يكفي لإقناعها بالتخلي عن فكرة الزواج به؟

- لا، لا أظن ذلك، وإلا لأخبرني فيربي به... كانت متحيرة.

- وما الذي حدث في ذلك اليوم بالفعل؟

- لم أخبرك بذلك بعد. لم تثبت موعد الزواج باليوم والساعة والمكان، وانتظرتهما. انتظرت عروسين لم يأتيا ولم يرسلا أية رسالة أو برقية أو عذر، لا شيء. لم أعرف السبب، لم أعرف السبب أبداً ما زلت لا أصدق الأمر، لا أعني أنني لم أصدق عدم حضورهما فهو أمر سهل، لكني لم أصدق أنهما لم يرسلا لي بكلمة واحدة، ولو مجرد قصاصة صغيرة. وهذا ما جعلني أتساءل، وأرجو أن تكون إليزابث تيسل قد أخبرتك بشيء قبل وفاتها، فربما أعطتك رسالة لي... لو كانت تعرف أنها ستموت فلربما أرادت إيصال رسالة لي.

قالت الآنسة ماربل: كانت تريد معلومات منك فقط. أنا متأكدة من أن هذا هو سبب مجيئها إليك.

- نعم، نعم، ربما كان هذا صحيحاً. يبدو لي أن فيربي «١ كانت تكره أبداً الناس الذين كان من شأنهم أن يعرفوا أمثال فيربيلد وشقيقتها أكثر، ولكن لأنها كانت مخلصة كثيراً لإليزابث تيسل... وكانت إليزابث ذات تأثير كبير عليها... يبدو لي أنها كانت ستكتب لها وتعطيها بعض المعلومات.

قالت الآنسة ماربل: أظن أنها فعلت.

- معلومات؟

- إن المعلومات التي أعطتها لإليزابث تيسل كانت كالتالي: قالت لها إنها ستتزوج مايكل رافنسكرو. وكانت الآنسة تيسل تعرف هذا لأن أحد الأشياء التي أخبرتني بها قالت: "كنت أعرف قبل أن تدعى فيربي كانت ستتزوج مايكل رافنسكرو". والشخص الوحيد الذي يمكن أن يخبرها بذلك هي فيربي نفسها. لا بد أن فيربي قد كتبت لها رسالة. وعندما سألتها: لماذا لم تتزوجه؟ قالت: لقد ماتت!

قال رئيس الشماسة برايزوود: إذن تتوقف هنا. أنا وإليزابث لا نعرف أكثر من هاتين الحقيقتين: إليزابث كانت تعرف أن فيربي ستتزوج مايكل، وأنا أعرف أن الاثنين كانا سيتزوجان وأنهما رتبا موضوع الزواج وكانا سيأتيان في يوم ووقت اتفقا عليهما. وقد انتظرتهما وأنا لم يحدث زواج، لا عروس ولا عروس ولا أية كلمة.

- ألا تعرف ما حدث؟

- لا أصدق أبداً أن فيربي أو مايكل قد تغيرا أو غيرا الخطة.

- ولكن لا بد أن شيئاً ما قد حدث بينهما. شيئاً ربما ضع عيني فريدي على حقائق مميزة عن شخصية مايكل وعيناك لم تكن تعرفها أو تدركها من قبل.

- ليس هذا إجابة مقنعة لأنها كانت ستخبرني، لم تكن مستركني أخطر حتى تروبجهما. وإذا استبعدنا الجانب السطحي في الأمر فإنها تبقى فتاة ذات أخلاق رفيعة وتنشئة جيدة. كانت ستوصل ولو كلمة واحدة. لا، أخشى أن شيئاً واحداً فقط قد حدث.

قالت الآنسة ماربل: الموت؟

كانت تتذكر تلك الكلمة التي قالها إلزابيث ليسيل والتي كان لها وقع الجرس القوي.

لهذا الرجل وقالت: نعم، الموت.

قالت الآنسة ماربل متأملة: الموت.

ترده وهو يقول: القصدين بهذا..؟

- إنه ما قاله لي الآنسة ليسيل. قلت لها: ما الذي قتلها؟ فقالت: الحب. وأضافت أن الحب أكثر كلمة تخيف في هذا العالم. أكثر كلمة تخيف.

قال رجل الدين: فهمت، فهمت.. أو أظن أني فهمت.

- ما هو الحل الذي تقدمه؟

- الزواج في الشخصية. حتى، لا يكون قاصراً للآخرين إلا إذا أصبحوا مؤهلين من الناحية الذهنية لملاحظته. لا بد أن مايكل رالفنغ

كان مصاباً بانفصام الشخصية. ليست لدي معرفة بأمور الطب أو خبرة بالتحليل النفسي، ولكن لا بد أن له شخصيتين. الأولى شخصية ولد طيب محبوب، والثانية شخصية ربما كانت مدفوعة بعيداً من الناحية العقلي... يلمح لساعة متأكدين منه، مدفوعاً لكي يقتل، لا ليقتل عدواً بل ليقتل الشخص الذي يحبه... وهكذا قتل فريدي. ربما لم يعرف أبداً ويريد قتلها أو ماذا يعني ذلك. هناك أشياء عجيبة جداً في هذا العالم، صفات عقلية، مرض عقلي أو نشوء في الدماغ... هناك حالة مماثلة وقعت لاثنين من أنواع أرجنتيني، كانا أخوين مسنين يعيشان معاً بمعاش التقاعد وكانا صديقين وصديقان معاً في مكان ما، وكانا سعيدين معاً، ومع ذلك فقد بدأ إحداهما الأخرى ذات يوم. أرسلت أحدهما الآخر لها وهو ثائر وقالت له: "لقد قلت لوزا إنه آخر محزن لكني رأيت الشيطان يطل من عينيها فعرفت أني مأمورة بقتلها". أشياء كهذه تجعل الإنسان يأخر من الحيرة أحياناً. يتساءل المرء: لماذا؟ وكيف؟ ومع ذلك ستظهر الحقيقة في يوم من الأيام. سيكتشف الأطباء يوماً ورماً نشوء صغير في الكروموزوم أو الجينات أو في غدة ما تفرز في عملها أو توقف عن العمل.

قالت الآنسة ماربل: إذن هذا ما ترين أنه حدث؟

- بل هو ما حدث بالفعل. أعرف أنهم لم يكتشفوا الحقيقة إلا بعد وقت طويل. لقد انتهت فريدي، خرجت من بيتها ولم تُشاهد بعدها.

- ولكن لا بد أنها أُخذت في ذلك اليوم بالضبط.

- ولكن في السماكة...

- تقصد بعد انتشار الجثة، عندما اعتقلت الشرطة مايكل في نهاية الأمر؟

- كان أول من استدعاه الشرطة لمساعدتهم. كان قد شوهد مع الفتاة وتوفرت الأدلة في سيارته، وكانوا جاهزين من البداية أن الرجل المطلوب. كان المشتبه الأول بالنسبة لهم ولم يتوقفوا عن الاشتباه فيه، وقد تم استجواب الشبان الآخرين الذين عرفوا ليزلي وكلهم أكدوا مكان وجودهم في ساعة وقوع الجريمة ولم يتوفر أي دليل ضدهم. استمروا في الاشتباه بمايكل وأصراً انتشروا البقعة، وكانت محفوفة وكان الرأس والوجه مشوهين بسبب الضربات القوية. كان مهموساً مصوراً مسعوراً، ولم يكن يكافئ قوة العنف عندما ضربها تلك الضربات بل كانت شخصيته الأخرى هي التي تحكم به.

ارتعشت الآنسة ماربل. وأدركت رجل الذين حدثته بصوت هادئ حزين، ولكن حتى هذه اللحظة فإني أرجو وأتمنى أحياناً أن الذي قتلها رجل آخر، شخص مجهول دون شك، رغم أن أحداً لا يعرف عنه شيئاً، ربما شخص غريب التقت به في منطقة سجاورد، الشخص الذي صدمها وأوقفها سيارته ثم...

هز رأسه أيضاً، فقالت الآنسة ماربل: أظن أن ذلك قد يكون صحيحاً.

قال رجل الدين: لقد ترك مايكل انطباعاً سيئاً في المحكمة. روى أكاذيب سخيفة لا معنى لها، الكذب على المحكمة فيما يتعلق بمكان سيارته وجعل أصدقاءه يشهدون زوراً بشهادات مستحيلة عن أماكن وجوده وقت الجريمة. كان عاطفاً ولم يقل شيئاً عن محطة

الزواج، وأظن أن محاميه كان يرى أن ذلك قد يستخدم ضده، على أساس أنها ربما كانت تجبر على الزواج بها رغم عدم رغبتها. بعد مضي وقت طويل على ذلك إن لذلك، لا أدري التفاصيل، لكن الدليل كان ثابتاً ضده، كان بريئاً... وكان يدرو بذلك. ذلك وذلك أيضاً - يا آنسة ماربل - لم أدرس وأتمن على ما حدث. كان عليّ عاطفاً لأني شعرت في جمجمة طيبة بدأ الذهاب إلى سجنها لأني لم أعرف عن الطريقة الرئيسية ما فيه الكفاية. كنت أجهل الخطر الذي كانت تمشي إليه وكنت أرى أنها لو أدركت أية مخاوف ما وعرفت عنه فجأة شيئاً سيئاً فإنها ستضع يدها على عينيها وتصرخ. إني وأخبرني بمخاوفها ومعلوماتها عن، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث. لماذا قتلها؟ هل قتلها لأنه عرف أنها ستضع مولودها؟ ولأنه في ذلك الوقت ربما ارتبط بعلاقة مع فتاة أخرى ولم يرد أن يجبره أحد على الزواج بليزلي؟ لا أصدق ذلك. أريد أن يوجد سبب مختلف لماذا؟ لأنها أصبحت فجأة بالخوف منه أو عرفت عنه شيئاً مخيفاً فضحت عليها؟ هل أثار ذلك غضبه ودفعه إلى قتلها؟ لا أدري.

قالت الآنسة ماربل: أنت لا تعرفه، لكنك يا والدي تعرف شخصاً واحداً، أليس كذلك؟

- ماذا تقصدين بهذا القول البسيط؟

- أريد أن أقول إنه يوجد فرق كبير بين شخص ما تعرفه معرفة قوية جداً بأن هذين الشابين قد تحابا وكانا يحترقان الزواج، ولكن شيئاً ما حدث وجعلهما، شيئاً أنهى بميولها، لكنك ما زلت تعتقد بحقيقة أنهما كانا فاضلين إليك لكي يتزوجا في ذلك اليوم؟

- أنت على حق تماماً يا عزيزتي. نعم، لا يمكنني إلا أن أعتقد

أيهما كان الذين متحابين وكانا يرغبان في الزواج، الذين مستعدين للارتباط معاً في الفقر والغنى، وفي الغنى والفقر، وفي الصحة والمرض، فقد أحبه، وكانت على استعداد للزواج به مهما كانت الظروف. وبسبب ما حدث فقد صارت ظروفهما إلى الأسوأ لأنها أدت بها إلى الفقر.

– يجب أن تستمر في الحياة، أعلن أن هذا من اعتقادي أيضاً.

– ولكن لماذا يا؟

– لم أعرف بعد. لست متأكدة، لكني أعتقد أن إحدى أسباب أنني كانت تعرف أن أبي يدرك ما حدث. قالت إن قلب كاسا مجروح، وقد فقدته عندما قالت ذلك أن ما كانت تحب هو أن تعيش الحرب بسبب علاقة الحب لأنها اكتشفت شيئاً بخصوصي وبكلي أو لأن شيئاً أزعجها فجأة وجعلها تثور، ولكن لا يمكن أن يكون الأمر انتحاراً.

– نعم، لا يمكن أن يكون انتحاراً. فقد تم وصف الإصابات وصفاً تاماً في المحكمة، إن الإنسان لا ينتحر بتهديم رأسه بهذه الطريقة.

قالت الآنسة ماريل: رهيب، رهيب! كما لا يمكن أن تفعل ذلك مع واحدة تحبها، حتى إن كنت تفعل «من أجل الحب». أليس كذلك؟ لو أنه قتلها لما استطاع قتلها بتلك الطريقة. ربما يحقق المرء... ولكنه لا يهشم الرأس والوجه الذي أحبه. الحب، الحب... كلمة مخيفة.

* * *

الفصل التاسع عشر

كلمات وداع

توقفت الحافلة أمام فندق غراند بور في صباح اليوم التالي. كانت الآنسة ماريل قد نزلت وبدأت في وداع زملائها، ووجدت السيدة رابيلي بورتر في حالة من السخط الشديد. قالت: ما الذي جرى لهذين اليوم؟ لا تتحدثان ولا تردان!

اقتربت الآنسة ماريل إليها متسائلة فقالت السيد جيرارد، ابنة أخي.

– هل هي مريضة؟

– تقول إنها مريضة، لكني لا أرى فيها شيئاً. تقول إن صدرها ملتهب وتحسن بأن حرارتها سترتفع. أعلن أن هذا كله هراء.

قالت الآنسة ماريل هذا مؤسف. هل يمكنني أن أفعل شيئاً؟ هل أقوم على رعايتها؟

– لو كانت متأكدة لوافقتها وحيدة. إن سألتني عن رأيي فأعتقد أن هذا مجرد فزيعة.

نظرت الآنسة ماربل إليها نظرة أخرى متسائلة، فقالت: البشير سخيفات جداً، دائماً يلعبن في الحب.

قالت الآنسة ماربل: إيفلين براندر؟

- آه، ما أنت قد لاحظت ذلك أيضاً. نعم، إنهما يتشاجران بعضهما بعضاً. أنا لا أعني به كثيراً، فهو واحد من أولئك الطلبة فوق التعس الطويلة الذين تريهم دوماً في المقاهيات. وإيف، سأرافقها الرحلة؟ لا أحد يعني بي ويجمع لي حقائبي ويدخلها ويخرجها. لقد دفعت ثمن هذه الرحلة كاملة.

قالت الآنسة ماربل: كنت أظنك راضية عنها تماماً.

- أيس في اليومين الأخيرين. الحيات لا يظهرن أي ضرر. بحاجة إلى مساعدة عندما يصل ترانسفر عمر. يبدو أن فكرة سخيفة تراودهما (هي وذلك الشاب براندر) في زيارة جبل أو تسلم ما على بعد نبطة أميال أو نبذة من هذا.

- ولكن إن كانت حشراتها ثوانيها وحرارتها مرتفعة...

قالت السيدة رايسلي بورتر: ستزين أن حشراتها قد تحسنت وحرارتها قد هبطت. حالما تذهب الحافلة. يا إلهي! يجب أن تراقبه الآن. وداعاً يا آنسة ماربل، جميل أن نلتقيك. أما السيدة لايك لن تأتي معنا.

- آه أيضاً آسفة، ولكنك تعرفين أني لست صغيرة أو قوية مثلك يا سيدتي. وأشعر بعد كل ما حدث وبعد العصبية في الأيام الأخيرة الماضية أني بحاجة لأربع وعشرين ساعة كاملة من الراحة.

- حسناً، أمل أن أراك في المستقبل.

فصافحتها، ثم صعدت السيدة رايسلي بورتر إلى الحافلة. وسمعت الآنسة ماربل صوتاً من ورائها يقول: رحلة ممتعة وخلاصاً مريحاً.

التفتت فرأت إيفلين براندر خلفها يبتسم. قائلاً: هل كانت هذه العبارة موجهة للسيدة رايسلي بورتر؟

- نعم، ولمن غيرها؟

- أنا آسفة بسبب مرفين جوانا هذا الصباح.

ابتسم إيفلين براندر للآنسة ماربل ثانية ثم قال: سنكون بخير بالسير بمحاذاة الحافلة.

- أيا على التحديد...؟

- نعم، أقصد ذلك. لقد كانت جوانا من عمتها ما يكفي. كانت تريها طوال الوقت.

- إذن فأنت تذهب مع الحافلة أنت أيضاً؟

- نعم، سأبقى هنا مدة يومين، سأقوم بالتجول هنا قليلاً وبعض الاستعداد. لا تبدي مثل هذا الاستياء يا آنسة ماربل، لا أظنك حقاً مستاءة من حياتنا الصغيرة؟

- أعرف أن هذه الأشياء كانت تحدث أيام شبابي، الأعمار قد تكون متطابقة ولكنها بالتأكيد فرصتنا كانت أقل منكم في الظفر بما نريد.

جاء الكولونيل وركز وزوجته وصافحا الآنسة ماربل بحرارة، قال الكولونيل: فرصة طيبة أن نعرفك عليك ونحدثك كل ماكنا نتحدث عن الحداثق. أظن أنك ستستمتع جداً بعد عد، إذا لم يحدث شيء. لقد كان هذا الحادث السيء سحرياً جداً. أنا شخصياً أعتقد أنه حادث، وأظن أن قاضي التحقيق قد تعادى كثيراً في شكوكه بهذا الخصوص.

قالت الآنسة ماربل: يبدو غريباً جداً أن لا يأتي أحد ليقول إنه كان موجوداً على قمة التلة ودفع بالصخور.

قال الكولونيل: سيعتقد أن المسؤولية تقع عليه بالطبع، ولذلك سيبقى صامتاً ولا يعترف بشيء. حسناً، وداعاً. سأرسل لك شيئاً من تلك البنفسج، ومن الماغنوليا أيضاً، رغم أني لست متأكداً إن كانت متأخرة في المنطقة التي تعيشين فيها.

تم دخلا في الحافلة أيضاً، وانحنت الآنسة ماربل والتقطت أشواك البروفسور والسيد بلاتر لتركب الحافلة مرتفعاً. عرجت السيدة سانغستر لوداع الآنسة ماربل ورئيس الحافلة، ثم أخذت الآنسة ماربل البروفسور والسيد من ذراعه وقالت: أريدك، هل تستطيع أن تذهب إلى مكان تتحدث فيه؟

- نعم، ما رأيك بذلك المكان الذي جلسنا فيه بالأمس؟

- أظن أنه توجد شرفة جميلة هناك عند الزاوية.

سارا إلى زاوية الشارع، وسمعا صوت برق الحافلة التي ما لبثت أن انطلقت. قال البروفسور: كانت أتمنى أن لا يأتي هذا الفتى أو أرى أحداً في الحافلة.

نظر إليها نظرات حادة وقال: لماذا سيسكاين هذا؟ أهو بسبب الاجهاد العصبي أم بسبب لبي، أخر؟

قالت الآنسة ماربل: لبي، أخر. لست متعودة رغم أن هذا قد يكون عذراً ممتازاً لشخص في حال سيء.

- أشعر أني يجب أن أبقى هنا لأحرسك.

- لا، لا حاجة لذلك. ثمة أشياء أخرى كان يجب أن تعملها.

- أية أشياء؟ هل حصلت على معلومات أو أفكار؟

- أظن أني عرفت شيئاً لكن يجب أن أتحقق منه. هناك أشياء عديدة لا أستطيع عملها بنفسي، وأظن أنك ستساعدني في عملها لأنك على اتصال بالسلطات.

- هل تقصدين شرطة سكوتلانديارد ورئيس الشرطة وسكوتلاند يارد؟

- نعم، واحد منهم أو جميعهم. وربما كان لك نفوذ على وزير الداخلية أيضاً.

- إن لديك أفكاراً بالتأكيد! حسناً، ما الذي تريدين مني عمله؟

- في البداية أريد أن أعطيك هذا العنوان.

أخرجت دفتر الملاحظات ومزقت منه صفحة وسلمتها له.

- ما هذا؟ آه، نعم، مؤسسة تجارية معروفة. أليس كذلك؟

– أظن أنها واحدة من أفضل المؤسسات الخيرية. إنها تعمل الكثير من الخير، يرسل لها الناس الملابس، ملابس أطفال وملابس نساء وبطاطين وسترات وكل أنواع الملابس.

– وهل تريدين مني الذهاب لها؟

– لا. إنه طلب مساعدة، إنه أمر يفعل بما تفعله، ما تفعله أنا وأنت.

– كيف؟

– أريد أن تتحقق من طرد أرسل من هنا قبل يومين، من مكتب البريد هنا.

– من الذي أرسله... أنت؟

– لا، لا. لكني تظاهرت بمسؤوليتي عنه.

– ماذا يعني هذا؟

قالت الآنسة ماربل وهي تبتسم: إنه يعني أني ذهبت إلى مكتب البريد هذا وشرحت الموظفة هناك وأنا أتظاهر بالاضطراب في تفكيري الكأني سيدة عجوز) بأنني طلبت من واحدة أن تأخذ هذا الطرد وتضعه في البريد نيابة عني وأني وضعت عليه عنواناً خاطئاً. وقلت لها إنني تصايقت كثيراً من هذا. وقد أثارت موقفة البريد سلوكورة بأنها تذكرت الطرد لكن العنوان الذي عليه لم يكن الذي ذكرته لها. كان هذا العنوان الذي أعطيته لك الآن. قلت لها إنني كنت حمقاء وكتبت العنوان الخاطئ عليه وأشكل علي وقلت أنه عنوان آخر أرسل بعض الحاجيات عليه أحياناً. وقالت لي إن الوقت قد فات ولا تستطيع عمل

أي شيء الآن لأن الطرد قد أرسل. فقلت لها إنني سأبعث برسالة إلى تلك المؤسسة التي استلمت الطرد وأشرح لها بأنني أرسله إليهم عن طريق الخطأ وسأطلب منهم أن يرسلوه إلى المؤسسة التي كنت أعتزم إرساله إليها.

– يبدو أنه طريق سليم.

– لا بد للمرء من أن يخترع شيئاً، ولكنني لن أعمل ذلك طوال الوقت. أنت الذي ستباشر هذه المسألة، فعليك أن تعرف ما بداخل ذلك الطرد! لا شك أن لك أساليبك الخاصة لمعرفة ذلك.

– وهل هذا أي شيء في ذلك الطرد يدل على أن أرسله هيدا؟

– لا أظن ذلك. ربما كان يحتوي على قطعة من الورق تقول: «من الصدفة» أو ربما كانت تحتوي على اسم وعنوان وخمسين – حتى لا يدل على صاحبه الحقيقي.

– آه، وهل لهذا احتمالات أخرى؟

– ربما كان يحتوي على قصاصة من ورق تقول: «من الآنسة ابنا ستكونيه». أقول ربما، ولكنه أمر بعيد الاحتمال تماماً.

– هل هي...؟

– هي التي سلمته لمكتب البريد.

– وهل أسند إليي طلبت منها أن تأخذه إلى هناك؟

– آه، لا! لم أطلب من أحد أن يرسل شيئاً. أول مرة رأيت

فيها الطرد كانت عندما مرت أنيا من أمام محطة الفندق حيث قضيا جالسة هناك لبعض وقت وكانت تحمله.

- لكنك ذهبت إلى مكاتب البريد وقدمت نفسك على أنك صاحبة الطرد.

- نعم، وهو غير صحيح. لكن مكاتب البريد تعتبره بعداً ولا تغيره بأي». وقد أردت أن أعرف إلى أين ذهب الطرد.

- كنت تريدين أن تعرفي إن كان قد أرسل هذا الطرد أم لا؟ أو إذا كان قد أرسل بواسطة واحدة من بائعة سكوت وخصوصاً الآنسة أنيا؟

- كنت أعرف أنها ستكون أنيا، لأنها رأيتها.

- حقاً؟

أخذ الورقة من يدها وقال: نعم، يمكنني عمل هذا. هل تعتقدين أن هذا الطرد سيكون مهماً؟

- أعتقد أن محتوياته قد تكون مهمة جداً.

- أنت تحبين الاحتفاظ بالأسرار لنفسك، أليس كذلك؟

- ليست أسراراً بالضبط، إنها مجرد احتمالات أقوم بالتحقق منها. لا أحب ذكر تأكيدات محددة ما لم يكن لدي المزيد من المعلومات الدقيقة.

- أيوجد شيء آخر؟

- أعتقد... أعتقد أنه إذا كان المسؤول عن هذه الأشياء عليه يجب تحذيره من إمكانية العثور على جثة ثانية.

- هل تقصدين جثة ثانية مرتبطة بهذه الجريمة التي تدرسها؟ جريمة حدثت قبل عشر سنوات؟

- نعم، أنا متأكدة تماماً من هذا في الواقع.

- جثة أخرى؟ جثة من؟

- حسناً، إنها مجرد فكرة حتى الآن.

- هل تعرفين أين هذه الجثة؟

- لا، نعم، أنا متأكدة تماماً من أني أعرف مكانها، لكني أريد مزيداً من الوقت قبل أن أتحدث عن ذلك.

- ما هي هذه الجثة؟ جثة رجل؟ امرأة؟ طفل؟ قطة؟

- قطة أخرى ما زالت مفقودة، قطة تدعى تورا يريده. لقد اختفت من هنا ولم يعرف أحدٌ عنها بعد ذلك، وأظن أن جثتها قد تكون في مكان محدد.

نظر البروفسور وتنهد قبل أن يقول: أتعلمين؟ كلما تكلمت أكثر كلما قلت رغبتي في تركك هنا... مع كل هذه الأفكار التي تمتلكينها وربما يمكن أن تضعي عليه من حماقة. إذاً...

ثم سكت، فقالت الآنسة ماربل: إذاً أن هذا كله هراء...؟

- لا، لا، لم أقصد ذلك. ولكن إذا أنك تعلمين أشياء كثيرة... وقد يكون ذلك خطيراً... أعتقد أني سأتي هنا لأحرسك.

- لا، لن أفعل. يجب أن نذهب إلى الفندق ونحرك بعض الأمور.

- أنت تتكلمين وكأنك تعرفين أشياء كثيرة يا آنسة ماربل.

- الذي أعرف الكثير الآن بالفعل، ولكن يجب أن أتأكد.

- نعم، ولكن إذا كنت تريدين أن تتأكدي فربما كان ذلك آخر شيء تتأكدين منه في حياتك! لا تريد أن ترى جثة ثالثة، جثتك!

- آه، أنا لا أتوقع شيئاً كهذا.

- قد تكونين عرضة للخطر إذا كنت أي فكرة عن الأفكار صحيحة. هل لديك شكوك في أي شخص محدد؟

- أعتقد أن لدي معلومات معينة عن شخص واحد، ولكن علي أن أتحقق... يجب أن أبقى هنا. قد يأتي مرة إن كنت أتمنى بجو من الشر، حسناً، إن هذا البيت موجود هنا دون شك، بجو من الشر، وإذا تمنيت أن تسميه فهو جو من الخطر... من البؤس العظيم، من المعرفة يجب أن أفعل شيئاً حيال ذلك، يجب أن أفعل أفضل ما أستطيعه. لكن امرأة مسنة مثلي لا تستطيع أن تفعل الكثير.

راح البروفسور واسنيد يحدّ بصوت عالٍ: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة...

سألته الآنسة ماربل: ماذا تعدّ؟

- الأشخاص الذين غادروا في الحافلة. من المفترض أنك غير مهتمة بهم حيث تركتهم يرحلون بينما بقيت هنا.

- ولماذا أعتبر مهمّ؟

- لأنك قلت إن السيد والفاتيل أرسلك في الحافلة لسبب معين، وأرسلك في هذه الرحلة لسبب معين، وأرسلك إلى بيت العزبة القديمة لسبب معين... هذا جيد إذاً، إن وكالة إليرايت لديها مراقبة بشخص في الحافلة، وبالتالي هذا يرتبط ببيت العزبة القديمة.

فكرت الآنسة ماربل: السيد مصيباً تماماً. توجد بين الاثنين صلة، وأريد من أحد الأشخاص أن يخبرني بالمزيد.

- هل تعتقدين أنك تستطيعين جعل أحد يخبرك شيئاً؟

- أظني أستطيع ذلك. سيفوتك القطار إذا لم نذهب حالاً.

قال البروفسور واسنيد: حاذري على نفسك.

- هذا ما أعزم فعله.

فُتح باب الزقاق وخرجت منه الثنائي، الآنسة كوك والآنسة بارو.

قال البروفسور واسنيد: مرحباً، كنت أتكلم باهتمام مع السائق.

قالت الآنسة كوك متهجمة: لقد غيّرنا رأينا في اللحظة الأخيرة. لقد اقتنعنا وجود أماكن غريبة نتنزه بها، وهناك تلة أريد رؤيتها، كنيسة غريبة تبعد أربعة أميال أو خمسة من هنا ويمكن الوصول إليها بالحافلة بسهولة. كما ترى فإنها لا تريد أن ترى بيوتاً وحدائق خلف، فأنا مهتمة جداً بالهندسة المعمارية للكاتدرائي.

قالت الآنسة مارتن: وكذلك أنا. وهناك أيضاً حديقة عامة في وسط راقية الجمال أمامنا تجتمع به من أزهار ونباتات ولا تبعد كثيراً عن هنا، لذا رأيت أن الأفضل أن أذهب إلى هناك يوماً أو يومين.

- وهل يستطيع أحد أن يقيم في هذا الفندق؟

- نعم، إنه يحتوي حالياً على واحدة غرفة مزدوجة جميلة، غرفة أفضل من تلك التي أشغلها في اليومين الأخيرين.

قالت الآنسة مارتل لابنة أخيها بتوسل شديد:

قال البروفيسور: أليس لي أنا؟

قالت الآنسة مارتل بالحاح: سأكون وحيدة.

ثم قالت أخيراً وهي تلهث: إنه رجل لطيف يهتم بي كثيراً، أنا أكل عنده الكثير.

قالت الآنسة كرول: كانت صدمة كبيرة، أليس كذلك؟ ربما نزداد الكتاب معاً عندما نذهب لزيارة كنيسة سيدة مارتيل.

قالت الآنسة مارتل: إنه لطف كبير منك لكني لا أظن أني قادرة اليوم على القيام بالمشي، ربما غداً إذ كان هناك أي شيء مثير يمكن رؤيته.

- إذن لا بد أن نتركك.

انسحبت لهما الآنسة مارتل ودخلت الفندق.

* * *

الفصل العشرون

للآنسة مارتل أفكارها

بعد أن تناولت الآنسة مارتل الغداء، في قاعة الطعام عرضت إلى المضيفة الشرب القهوة. كانت تزدحم من فتحاتها التي عندما رأت مرأة عريضة القامة تحيية الجسم تصعد الدرج بخطوات سريعة وتضرب بقبضتها وتتكلم لاهثة. وعرفت أن المرأة هي آنيا سكوت.

- آنيا، آنسة مارتل، لقد عرفتك فقط أنك لم تذهبي مع الجماعة، لقد نظرت حتى فيها ولم تكن تعلم أنك موجودة هنا. لقد أرسلني كلوريندا والأخوات لكي إذا لم تجدي طريق العودة إلى بيت الضيافة الجميل، سيدتي، فإنها ترجوك هذا الفصل من هذا الشهر كثيراً هنا بأكوام وأكوام، وخصوصاً في عطلات نهاية الأسبوع. لذلك فإنها ستكون مسرورة جداً لو عدت إليها.

قالت الآنسة مارتل: إنه هذا لكرم عظيم منكم، حقاً إنه كرم عظيم، لكني متأكدة، أقصد، أنك تعرفين أنها كانت زيارة اليومين فقط. كنت أتوزع الذهاب في الأصل مع الجماعة بعد انتهاء اليومين، ولولا هذا الحادث المؤسف بشأن الحقيبة التي اختفت بعدم قدرتي على مواصلة الرحلة ورأيت أن أقضي شهراً من الراحة الليلة واحدة على الأقل.

- لكني أقصد أنه سيكون أفضل لك كثيراً لو بدأت حياتك مستأنفاً بذل جهدك المعتاد بتمرين وإرادة.

- هذه مسألة لا شك فيها. لقد انحرت بارتياح عظيم عندما أصبت بمكتب. نعم، لقد استمتعت بذلك كثيراً. يبدو سهلاً كيف؟ لماذا أي كل شيء عندكم جميل، الضغط العصبي والزجاج والأثاث... جميل أن يقيم الإنسان في بيت وليس في فندق.

- إذاً يجب أن ذاتي هي الآن. نعم، يجب أن ذاتي، سأذهب وأعرف أخيراً.

- آه، حسناً، هذا لطف منك. السطح صار هذا بنفسي.

- هل أني المساعدتك؟

- سيكون لطفاً كبيراً منك.

عادتا إلى غرفة الآنسة ماريل حيث حزمت آنيا أمتعتها بشيء من الاستعجال. ولم يكن أمام الآنسة ماريل التي أنهى غرفتها الخاصة في ترتيب حاجياتها إلا أن تعصى على شغفها حتى لا تظهر فيظهر، نعي رأت أن حزم آنيا للأمتعة قد أفسد ترتيبها.

أحضرت آنيا حقائبها من الفندق فحمل الحقيبة وخرج بها إلى الشارع ثم إلى بيت العربة القديمة، ودخلت له الآنسة ماريل إقرائية مباشرة وهي تلوح بعلامات الشكر والتسديح ثم انعطفت إلى الأخوات.

فكرت الآنسة ماريل في نفسها قائلة: "الأخوات الثلاث؟ ها نحن هنا ثانية". لكن ذلك وهي جالسة في غرفة الاستقبال، وقد أطلقت عينيها لبعض الوقت وازدادت سرعة أنفاسها حتى بدا وكأنها تلهث.

وأحست أن ذلك كان طبيعياً لواحدة في عمرها، كما أن آنيا والمحتال أجبراها على أن تسير بخطوات سريعة، لكنها -في الحقيقة- كانت تحاول وهي مغمضة العينين معرفة الأحاسيس التي تنتابها عندما عادت إلى هذا البيت مرة أخرى. آلان في البيت شراً؟ لا، لا، لم يكن شراً بقدر ما كان حزناً، حزناً عميقاً، عميقاً إلى حد سحيق.

فتحت عينيها ثانية ونظرت إلى السيدتين الجالستين معها في الغرفة. كانت السيدة غاين قد جاءت من المطبخ وهي تحمل صينية الشاي، وكانت تبدو كما هي عليه من قبل، مرتاحة ولا تظهر أية عواطف أو أحاسيس معينة، حتى لتكاد تحلو من هذه العواطف والمشاعر. هل عوضت نفسها -خلال حياة الثوار والمصاعب- أن لا تظهر أي شيء، أين حزنها وتبقى متكتمة ولا تدع أحداً يعرف أحاسيسها الداخلية؟

ثم نظرت إلى كاثرينا. كان في مظهرها ما يشبه الإيمستر! الأمر سيئ للآنسة ماريل أن تأتيها، إنها لم تقبل زوجها بالتأكيد كما فعلت تلك الشخصية المسرحية لأنها لم تتزوج أبداً حتى فقدته، ويبدو من غير المحتمل أن تكون قد قتلت الفتاة التي قبل إنها كانت تحبها. كانت الآنسة ماريل واثقة من صحة ذلك، لقد رأت من قبل كيف ترتفع الدموع في عيني كاثرينا عندما تذكرت وفاة فريدي أمامها.

وماذا عن آنيا؟ لقد أعطى آنيا ذلك العلبة الكترونية إلى مكتب البريد، آنيا جاءت إلى الفندق لأجلها، آنيا... لقد تشكلت كثيراً في أمر آنيا. الكون حقاً مشؤوم الآن؟ إنها مشؤومة أكثر مما يسمح به عمرها، عيناك تتجولان ثم تستقران عليك، عيناك البنيتان وكأنهما تريدان أشياء قد لا يراها الآخرون، من خلف ظهر الشر، كانت حافلة،

رأت الآنسة ماربل أنها كانت خائفة من شيء ما. ترى ما هو ذلك الشيء؟ هل هي مصابة بنوبة عقلية معينة؟ أترانا عائدة من العودة إلى الصحبات العقلية أو مؤسسة ربما فقدت فيها جزءاً من عقلها؟ عائفة من هاتين الأخيرتين اللتين تتصوران أن من غير الحكمة ترقبها مرة ثانية؟ هل كانت هاتان الأختان غير عاديتين مما يمكن لأحدهما أن تتوقع أو تعمله؟

يوجد هنا هو معين. تساءلت وهي ترتشف آخر ما تبقى من فنجان الشاي عما تفعله الآنسة كوك والآنسة بارو. هل ذاهبة لزيارة الكنيسة أم أن ذلك مجرد حديث لا معنى له؟ كان أمراً غريباً، غريبة هي الطريقة التي جاءنا فيها وتطرقنا إليها في قريتها حيث نحن لا نعرفها. تالية في الحافلة، ومع ذلك لم تحولا اليها رأسها أو قابلتاها من قبل.

كان الكثير من الأمور الغامضة يجري. أحدث السيدة فلين جلبة الشاي وعرضت أنها إلى المطبخ، وبقيت الآنسة ماربل وحدها مع كارولين. قالت الآنسة ماربل: أظن أنك تعرفين رئيس مساعدة يدعى براندون، أليس كذلك؟

قالت كارولين: بلى، كان موجوداً بالأمس في الكنيسة في أثناء تداعي الحادث. هل تعرفينه؟

- لا، لكنه جاء إلى منزل غوتفري بير وتحدث معي هناك. أظن أنه ذهب إلى المستشفى وكان يسأل عن وفاة الآنسة ليمبل المسكينة. وقد تساءل إذ كانت الآنسة ليمبل قد بعثت له بأية رسالة. فهمت أنها كانت تنوي زيارته، لكني أعترف بالطبع أني رغم ذهابي إلى هناك حتى الفعل شيئاً إلا أنه لم يكن لدي إلا الجلوس بجانب سرير الآنسة ليمبل

المسكينة. كانت فاقدة وعيها ولم أستطع أن أفعل أي شيء لمساعدتها.

قالت كارولين: ألم تقل أي شيء... أي تفسير لما حدث؟

طرحت السؤال دون إيلاء الكثير من الاهتمام. وتساءلت الآنسة ماربل إن كانت تشعر في داخلها باهتمام أكثر مما ظهرت عنه، ولكنها لم تر ذلك. بل رأت أن كارولين كانت مشغولة بأفكار مختلفة تماماً.

سألتها الآنسة ماربل: هل تعتقدين أنه كان مجرد حادث أم تعتقدين وجود شيء من الصحة في رواية تلك الفتاة بشأن رؤيتها لشخص يدفع صخرة من أعلى؟

- أظن أنه لو قال مذان الاثنان ذلك فلا بد أنهما قد شاهدا...

- نعم، لكنهما قال ذلك رغم استخدامهما لعبارات محتفظة بعض الشيء. لكنه أمر غريب.

نظرت كارولين إليها بغموض وقالت: يبدو أن تلك الحادثة قد أثارت اهتمامك؟

- إنها تبدو قصة غير محتملة، غير محتملة إلا إذا...

- إلا إذا ماذا؟

- لقد تساءلت فقط.

وعادت السيدة فلين للغرفة مرة أخرى وقالت: تساءلت عن ماذا؟

قالت كارولين: إنها تحدثت عن الحادث.

- ولكن من...

قالت الآنسة ماربل ثانية: إنها تبدو رواية غريبة جداً تلك التي ذكرها الشاب والفتاة.

قالت كلوديا فجأة: بوجه خاص، بخصوص هذا المكان، أعني بخصوص هذا الجو المحيط. إذا لم نتغلب على هذا الجو أبداً، أبداً، أبداً... منذ... منذ وفاة فريتي. لقد مرت سنوات لكن هذا الجو لم يرحل، ثمة خيال هنا.

نظرت إلى الآنسة ماربل وقالت: ألا تظنين ذلك أيضاً؟ ألا تشعرين بوجود شيء هنا؟

قالت الآنسة ماربل: أنا غريبة، والأمر يختلف بالنسبة لك ولملايكيك لأنكن عشتن هنا وتعرفن الماضي. أظن أنها كانت فترة جذابة كما قال رئيس الشرطة براندون.

قالت كلوديا: كانت فترة جميلة، وطفولة محبوبة أيضاً.

قالت السيدة هابن: أعني لو كنت عرفتها أكثر، كنت أعيش مع زوجي خارج البلاد في ذلك الوقت، ثم عدت مع زوجي إلى الوطن مرة لكننا قضينا معظم تلك الإجازة في لندن ولم نكن نأتي إلى هنا كثيراً.

عادت آنيا من المطبخة وهي تحمل بيدها حزمة كبيرة من الزنبق. قالت: إنها أزهار الجنائز، هذا ما يجب أن يكون لدينا اليوم. أليس كذلك؟ سأضعها في مزهرية كبيرة... أزهار جنائز.

ثم ضحكت فجأة، وكانت ضحكة غريبة هستيرية. قالت كلوديا: آنيا، لا... لا تفعلي هذا، إنه ليس... ليس مناسباً.

قالت آنيا مبهوتة: سأذهب لأضعها في الماء.

ثم خرجت من الغرفة فقالت السيدة هابن: ما بال آنيا؟ أظن أنها...

قالت كلوديا: حالتها تزداد سوءاً.

تظاهرت الآنسة ماربل بأنها لا تصغي أو تسمع، ورفعت عليه صغيرة مزخرفة ونظرت إليها نظرات إعجاب.

قالت لآنيا: أظن أنها ستكسر مزهرية الآن.

ثم خرجت من الغرفة فقالت الآنسة ماربل: هل أنت فقدة على أعصابك أنيا؟

– نعم، لقد كانت مضطربة جداً. إنها أصغر منا سناً وقالت لي زميلة بعض الشيء في مدرستها، لكن حالتها ساءت في الفترة الأخيرة. أظن أنها لا تدرك خطورة بعض ما تقوم به، تتخيلها أحياناً تلك الروايات الهستيرية المسلية، فصلكات هستيرية على أذيال تلاقي الجدية. لم تعد ترغب في أن... في أن ترسلها إلى أي مكان. لو أظن أنها يمكن أن تتلقى علاجاً، لكن لا أظن أنها توافق على ترك البيت والإقامة بعيداً عنه، فهذا هو بيتها رغم أن الأمر يكون أحياناً... صعباً جداً.

قالت الآنسة ماربل: الحياة كلها صعبة أحياناً.

قالت كلوديا: إذ لاحظت تكلمت عن الرحيل، تتكلم عن احتمال رحيلها والعيش في الخارج ثانية حيث كانت تعيش سعيدة مع زوجها. إنها تقيم معنا في البيت منذ عدة سنوات ولكن يبدو أنها قد اشتاقت للرحيل والسفر. أعتقد أنها لا تحب البقاء في البيت نفسه مع آنيا.

- آه، يا عزيزتي، نعم. لقد سمعت عن حالات مماثلة جيئة لتطهير هذه المصاعب.

قالت الفريدة: إنها عائلة من أثينا، عائلة نبيلة جدا، ذلك. ولكني أقول لها دائماً إن غرورها لا مبرر له. أحياناً تكون أثينا سخيفة، إنها تفكر غريبة وتقول أشياء غريبة، لكني لا أعتقد بوجود أي معنى منها أقصد... من... آه، لا أدري. ماذا أقول، من فيلمها بأي عمل عظيم أو غريب أو شاذ.

سألتها الآنسة ماربل: ألم تحدث أية مشكلة من هذا النوع؟

- آه، لم يحدث شيء. أحياناً تصاب بنوبات عصبية وتبكي بكاء الناس. إنها غيورة جداً، غيورة جداً من... من أي إطراء للآخرين مختلفين. لا أدري، أشعر أحياناً أنها يجب أن تبيع هذا البيت وتغادره.

قالت الآنسة ماربل: إنه يحزنك، أليس كذلك؟ أظن أني أتفهم أن العيش هنا مع ذكريات الماضي هذه أمر محزن جداً.

- أعتقد أنكِ تتفهمين هذا؟ نعم، أرى ذلك. لا يعلك المرء إلا أن يحزن عندما أتذكر تلك الفتاة المسكينة. كانت بالنسبة لي مثل الابنة. وعلى أية حال فقد كانت ابنة واحدة من أفضل صديقاتي، كما أنها كانت ذكية أيضاً. كانت ذكية جداً، وكانت فتاة جيدة، كانت تهتم كثيراً في التدريب على الفن والتصميم وكانت تصمم أشياء كثيرة كانت فخورة جداً بها، ثم جاء... ذلك الشيء الرهيب، ذلك الوالد المجنون في عقله.

- تقصدين ابن رافائيل، مايكل رافائيل؟

- نعم، أيها لم يأت إلى هنا؟ كان يقيم في مكان قريب والفرح عليه والده زيارتنا فجاء وتناول الطعام معنا. إنه جذاب، جداً لكنه كان في مستوعراً ما سيحل بي. لقد دخل السجن مرتين وله تاريخ سيء جداً مع الفتيات، لكني لم أظن أبداً أن فريدي... قد تُشتت فيه. أظن أن ذلك يحدث عادة للفتيات في ذلك العمر. لقد قلت به وأصررت على أن كل شيء حدث له لم يكن بسببه. خطأ منه. أنت تعرفين الأشياء التي تقولها الفتيات: الكل ضدي... هذا ما يقوله دائماً. الكل ضدي، لا أحد يدافع عني... إنني أسأل من سماع مثل هذه الأشياء، ألا يستطيع أحد جعل الفتيات أكثر تعقلاً؟

قالت الآنسة ماربل: أرجائك على أنهن لا يستخدمن عقولهن كثيراً

- لم تكن لتصغي إلى أحد. لقد... لقد حاولت إبقاءه بعيداً عن البيت، طلبت منه أن لا يأتي إلى البيت مرة أخرى. وكان ذلك صعباً عليّ بالطبع، وقد أدركت فيما بعد، كان يعني أن تخرج الفتاة وتقابله خارج البيت... لا أعرف أين. كانت أيهما أماكن محتفظ بخصوصيتها، واعتاد أن يأتيها بسيارته في مكان متفق عليه ويجدها إلى البيت في ساعة متأخرة من الليل، وفي بعض المرات لم تكن تعود إلا في اليوم التالي! وحاولت أن أشرح هذا بضرورة وقف هذا التصرف. لكنهما لم يصغيا. لم تكن فريدي لتصغي، وبالطبع لم أتوقع منه أن يصغي إلي.

- هل كانت تعزم الزواج به؟

- لا أعتقد أن الأمور وصلت إلى ذلك الحد. لا أظن أنه كان يريد الزواج بها أو فكر في مثل هذا الأمر.

قالت الآنسة ماربل: لا بد أنك عانيت الكثير.

- نعم، وأسوأ شيء، كان الانتظار للتعرف على الجثة. كان ذلك بعد وقت طويل من وفاتها... أو بعد اختفائها من هنا. اعتقدنا أنها هربت معه وأنا سنحصل على بعض الأخبار منهما في وقت ما، وكنت أعرف أن الشرطة قد أخذوا الأمر على محمل الجد. لقد طلبوا من مايكل الذهاب إلى مخفر الشرطة ليساعدهم في التحقيقات الجارية، ولم تكن أقواله متوافقة مع ما قاله السكان المحليون. تم وجدوها في مكان بعيد من هنا، على بعد ثلاثين ميلاً تقريباً في منطقة نائية شجرية في إحدى المقاطعات، في مكان لا يتردد عليه الناس. تعمد، اضطرت للذهاب وبعناية الجثة في المشرحة، وكان منظراً مخيفاً. الوحشية والقسوة التي استخدمت معها. لماذا فعل ذلك بها؟ لم يكن حقها ذلك؟ لقد عشقها بوشامها نفسه. إني... إني لا أستطيع أن أتحدث عن ذلك أكثر مما تحدثت... لا أتحمل ذلك، لا أطيقه.

انهمرت الدموع من عينيها بغزارة، فقالت الآنسة ماربل: أنا آسفة من أجلك، آسفة جداً جداً.

- أصدقك.

ثم نظرت كاترينا إليها فجأة وقالت: حتى أنت لا تعرفين ما هو الأسوأ في هذا؟

- كيف؟

- لا أعرف... لا أعرف عن أنها.

- ماذا تقصدين بقولك عن أنها؟

كانت غريبة الأطوار في ذلك الوقت. كانت... كانت غيورة

جداً. تقلبت فجأة على فريدي وكانت تنظر إليها نظرات كراهية، وكنت أرى أحياناً... أحياناً كنت أرى... آه، لا، إنه اعتقاد سخيف، لا يمكنك أن تشاهدي ذلك في أحلك... ولكنها ما جعلت شخصاً قاتلاً مرة. كانت تأتيها نوبات الهياج هذه كثيراً، وساءت إن كانت هي... آه، يجب أن لا أقول أشياء كهذه. ليس هناك أي شك حول هذه المسألة، أريد أن تنسي ما قلته لك؛ ليس في الأمر شيء، لا شيء أبداً. ولكن، ولكن... إنها ليست طبيعية تماماً. يجب أن أواجه هذه الحقيقة، عندما كانت صغيرة حدثت بعض الأمور الغريبة... مع الحيوانات. كان عندنا بط، يأكلهم الثعلب سخيفة، فأدرت رقبته وقتلته. وبعد ذلك الوقت تغيرت مشاعري نحوها، فلم أعد أشعر أن وجداني أن أقترب بها. لم أشعر بالأمان أبداً. لم أشعر أبداً. آه، يا إلهي! سوف أصاب بالهستيريا حالتها.

- لا بأس عليك، لا بأس عليك! لا تفكري بمثل هذه الأمور.

- كان سيدا أن أعرف... أن أعرف أن فريدي مات... مات بتلك الطريقة الشرعية. على أية حال فقد نجت فيانا، فورها من شر ذلك العصبي وذاك حكماً بالسجن المؤبد. ما زال يقبع في السجن وإن يخرج منه. حتى لا يكرر فعلته مع غيرها، رغم أنهم لم يستطيعوا إثبات إصابته بالوقاء عقلياً وبالتالي عدم تحميله المسؤولية. كان يجب أن يذهب إلى المصح العقلي في برودمور، أنا واثقة من أنه لم يكن مسؤولاً عن أي شيء فعله.

نهضت وخرجت من الغرفة، وكانت السيدة هلين قد عادت وعزت من جانبه أختها عند مدخل الباب. قالت: لا تصغي إلى كلام

الفريد، إنها لم تتعاطَ أبداً من صدمة ذلك الحادث البشع الذي حدث منذ سنوات. لقد كانت تحب فريدي كثيراً.

- إنها تبدو فقط على أحداث الآونة.

- على أنها؟ إذ أنني على ما يرام إنها... إنها مشورة الدهن فقط، وهي عرفتنا لأن تقرر لأي شيء، ولأنها أرهام وتخيلات غريبة أحياناً، لكني لا أرى وجود سبب يدعو كاترينا لأن تقتل فريداً يا إلهي، من ذا يمر أمام باب المصطفى؟

فجأة ظهرت الثلاث عند الباب الزجاجي المطل على الحديقة. قالت الآنسة باربر: أرجو أن تعذرينا، لقد جئنا إلى بيت العزلة لنرى إن كانت الآنسة ماربل موجودة. لقد سمعنا أنها جاءت إلى هنا منذ وقت قصير... آه، ها أنت هنا يا آنسة ماربل؟ كنت أريد أن أعبر لك أولاً ثم أذهب إلى تلك الكنيسة بعد ظهر اليوم إن يبدو أنها محفلة لأعمال التطريب، ولذلك لن نقوم بأي رحلة أو جولة اليوم حيث سنؤجلها كلها إلى الغد. أرجو أن لا يفاجئك الدوران على هذا النحو، لقد ربتا جرس الباب ولكن يبدو أنه لا يعمل.

قالت السيدة فلين: إنه لا يرن أحياناً، يبدو أنه مزاجي، أحياناً يرنّ وأحياناً لا يرنّ. أرجو أن تجلسن للتحدث قليلاً، لم أعرف أنكما لم تذهبا في الحافلة.

- رأينا أن نقوم ببعض الجولات في هذه المنطقة، إنها أقل الذهاب في الحافلة مميزات جداً بعد الذي حدث قبل يومين.

قالت السيدة فلين: لا بد أن تشربا فنجاناً من الشاي.

خرجت من الغرفة، ثم عادت بعد قليل ومعها أكثر التي كانت تحمل صينية الشاي، وكانت عادة تعاد الآن. جلسن جميعاً. ثم قالت السيدة فلين: أريد أن أعرف ما الذي سيحدث حقيقة في هذا الأمر. أقصد الآنسة تيمبل المسكينة. يبدو من المستحيل معرفة ما يفكر الشرطة فيه، يبدو أنهم ما زالوا يجرون التحقيق في الحادث وقد تم تأجيل جلسة التحقيق، ولذلك يبدو واضحاً أنهم غير مقتنعين. لا أدري إن كان في طبيعة الإصابة أي شيء غريب.

قالت الآنسة باربر: لا أظن ذلك، أقصد أنها كانت ضربة على الرأس، ارتجاجاً شديداً... أقصد أنها بفعل الصخرة بالتأكيد. النقطة الوحيدة فقط - يا آنسة ماربل - هي إن كانت الصخرة قد تدحرجت من الأعلى بنفسها أو أن شخصاً قد حركها.

قالت الآنسة ماربل: آه، إنه تفكير ألم بالتأكيد. من يريد أن يلقي صخرة من أعلى أو أن يقوم بذلك الفعل؟ أيكون ذلك من فعل الشهيد أو بعض الشبان من الأجانب أو الطلاب؟ إنني أتساءل بطبيعة إن كان...

قالت الآنسة ماربل: تقصدين أنك تتساءلين إن كان القاتل واحداً من زملائنا في الرحلة؟

- آه... آه لم أقل هذا.

قالت الآنسة ماربل: ولكننا لا نملك إلاّ أن نفكر بمثل هذا الأمر بالتأكيد. أقصد أنه لا بد من وجود تفسير معين. إن كانت الشرطة مقتنعين من أنه لم يكن مجرد حادث فلا بد أن يكون من فعل شخص ما. والآنسة تيمبل امرأة غريبة من هذا المكان، فالأمر لا يبدو وكأن

شخصاً قد فعلها... القصد من أهل المنطقة. إذن فإن هذا الأمر يرجع إلينا جميعاً نحن الذين كنا في الحافلة. أليس كذلك؟

ضحكت ضحكة عصبية، كضحكات العجائز.

- آه، بالتأكيد.

- أظن أنه ما كان ينبغي أن أقول مثل هذه الأشياء، لكن الجرائم مثيرة للاهتمام كثيراً. أعني أنها تجعلك أشياء غريبة جداً.

قالت كاترينا: هل لديك أي إحساس محدد يا آنسة مارپل؟ أي فكرة يستطيع رأيك.

- الجريمة يفكر أحياناً بطريقة لا تخطر على بال.

قالت الآنسة تومبي: السيد الأمين... تعرفه، أليس كذلك؟ لقد بدا لي... بدا وكأن له علاقة بالقضية بطريقة ما. ربما هذا إلى هنا بحثاً عن أسرار عسكرية أو شيء كهذا.

قالت السيدة هابن: لا أظن أن هذا في هذه المنطقة أية أسرار عسكرية.

قالت كاترينا: أليس هذا مثيراً للاهتمام؟ ربما كان شخصاً يتبعها، شخصاً يخافها لأنها كانت مجرمة من نوع ما.

قالت كاترينا: هذا غريب. لقد كانت مشهورة بمقاطعة لمجرمة مشهورة جداً، فلماذا يتبعها أي كان؟

- آه، لا أدري، ربما أصبحت غريبة الأطوار.

قالت السيدة هابن: آه، والله أن للآنسة مارپل أفكاراً محددة

قالت الآنسة مارپل: لدي أفكار معينة، يبدو لي أن... أن الأشخاص الوحيدين الذين يمكن أن... آه، إنه أمر يصعب قوله. أعتقد أن هناك شخصين يظهران إلى ذهني كاحتمالين من الناحية المنطقية، ولا أظن أنهما قاتلان معاً. فأنا متأكدة من أنهما طيبان جداً، لكن ما أعنيه أنه لا يوجد غيرهما يمكن الاشتباه فيه من الناحية المنطقية فقط.

- من تقصدين؟ هذا مثير جداً.

- لا أظن أنه ينبغي أن أقول ذلك. إنه مجرد... مجرد حدس، ربما من غير داعٍ.

- لن تخفقين أنه يمكن أن يلقي بالصخرة من أعلى؟ من تخافين أنه الشخص الذي رأته جوانا وإيفلين براندس؟

- حسناً، إن ما أظنه أنهما ربما لم... لم يريا أي شخص!

قالت آنيا: لا أفهم كيف لم يريا أي شخص؟

- ربما لفقا كل هذه الرواية.

- ماذا... بخصوص بإيهما شخصاً آخر الهضبة؟

- هذا محتمل، أليس كذلك؟

- هل تقصدين نوع من المزاح أو نوع من المشاكسة؟ ماذا تقصدين؟

- حسناً، أظن... نحن نسمع أن الشبان الصغار يفعلون أشياء غريبة جداً هذه الأيام، يفعلون أشياء في عيون الخيل ويحضرون

يرافقه الشعراء ويهاجمون الناس ويلقون الحجارة عليهم. - الشبان هم الذين يفعلون ذلك في العادة، أليس كذلك؟ وعادة عندما الشبان الوحيدان في الرحلة.

- أتقصدين أن إيفلين براين وجوزفا ربما كان الذين ألقيا تلك الصخرة؟

قالت الآنسة ماربل: إنهما الشخصان الأكثر وضوحاً كما يبدو، أليس كذلك؟

قالت كارولين: غريب! ما كنت لأفكر بذلك أبداً. لكني أفهم... نعم، أفهم أنه قد يكون فيما تقولينه بعض الصحة. أنا لا أعرف هذين الشابين بالطبع فلا لم أستطع معرفتهما.

قالت الآنسة ماربل: إنهما شابان لطيفان جداً، وجوزفا بالذات يبدو لي فتاً قديراً.

سألتها آديا: قديراً على فعل أي شيء؟

قالت كارولين: اسكتي يا آديا.

قالت الآنسة ماربل: نعم، قديراً تماماً. إن كانت ستركبين دراجة مثل فيجب أن تكوني قادرة بحيث تحرصين على أن لا يراك أحد.

قالت الآنسة بارو: لكن لا بد أنهما مخطئان في الأمر جداً.

قالت الآنسة ماربل: آه، نعم، لقد شاركا في الأمر معاً، كما أنهما أديا بدور الرواية تقريباً. إنهما الوحيدان المشتبه فيهما بوضوح. هذا كل ما أستطيع قوله. كنا بعيدين عن أنظار الآخرين،

فسائر الركاب كانوا يمشون على السير الأسفل، وكان يوسعهما أن يصعدا فعلة الجهة وأن يلقيا بالصخرة. ربما لم يقصدا قتل الآنسة ليحول على وجه الخصوص، ربما كانا يقصدان إحداث فوضى أو إصابة أي شيء أو أي شخص فقط... وعندما الصخرة من أعلى لم تعدا يقصدان هذه الرواية عن رؤية شخص هناك وعن ذلك الباص القريب الذي بدا بعيد الاحتمال أيضاً... ما كان ينبغي أن أقول هذه الأشياء، لكني لست أفكر فيها.

قال السيد فليتشر: تبدو لي فكرة مثيرة جداً. ما رأيك يا كارولين؟

- هذا محتمل، ما كنت لأفكر في هذه الفكرة.

قالت الآنسة كوك وهي تنهض من مجلسها: يجب أن نعود إلى الفندق الآن. هل ستأتين معنا يا آنسة ماربل؟

قالت الآنسة ماربل: لا، أظن أنهما لا تمرضان. لقد تسببت أن أصركما. لقد دعتني الآنسة سكوت مشكورة لأبقى هنا ليلة أخرى أو ليلتين.

- آه، نعم. أنا واثقة أن هنا سيكون مناسباً لك وأكثر راحة. يبدو أن مجموعة مزعجة قد وصلت إلى الفندق هذا المساء.

قالت كارولين: ألا تأتيان لتشربا القهوة معنا بعد العشاء؟ إنها ليلة دافئة تماماً.

قالت الآنسة كوك: سيكون ذلك جميلاً. نعم، سوف نستغل الوقت هذا بالتأكيد.

* * *

الفصل الحادي والعشرون

دقات الساعة تشير إلى الثالثة

وصلت الآنسة كوك والآنسة مارتن في الساعة الثالثة إلا ربعاً تماماً، وكانت إحداهما تزداد قوة بينما تضعف الأخرى قوة أحياناً وتقوى أحياناً.

وكانت آنيا قد سألت الآنسة مارتن في أثناء الغداء عن معنى السيدتين. قالت: يبدو غريباً منهما أن تحتفظا في الرحلة.

وردت عليها الآنسة مارتن: آه، أظن ذلك. أظن أن لديهما خطة.

سألتها السيدة فلين: ماذا تقصدين بالخطة؟

أظنهما مستعدتين دائماً للاحتمالات المختلفة ولديهما خطة للتعامل معها.

قالت آنيا بنصف الاهتمام: هل تقصدين أن لديهما خطة للتعامل مع جريمة قتل؟

قالت السيدة فلين: أرجو أن لا تتكلمي عن وفاة الآنسة تيشل البشعة باعتبارها جريمة قتل.

قالت آنيا: إنها جريمة قتل بالطبع. ما يحيرني فقط هو: من عساه يريد قتلها؟ يُخيَّل إليّ أنها ربما قالت واحدة من شيطانها في المدرسة قالت تكرهها وتتمنى لها الشر.

سألتها الآنسة مارتن: وهل تعتقدين أن الكراهية يمكن أن تدوم كل هذه المدة؟

- أظن ذلك. أعتقد أن يوسع المرء أن يكره شخصاً ما لسنوات طويلة.

قالت الآنسة مارتن: لا، أعتقد أن الكراهية تتلاشى مع الوقت. يمكنك أن تحاولي المحافظة على الكراهية ظاهرياً لكن أعتقد أن مجاورتك ستبرد بالفعل. فيبي الكراهية قوة كقوة الحب.

- أنت تعتقدين أن الآنسة كوك أن الآنسة مارتن هما اللتان ارتكبتا جريمة القتل؟

قالت السيدة فلين: ولماذا يفعلان ذلك؟ ما بالك يا آنيا؟ أرى أنهما مرتاحتان للغاية.

قالت آنيا: أنا أيضاً أرى أن لديهما شيئاً غامضاً. ألا تعتقدين ذلك يا كارنيلا؟

قالت كارنيلا: ربما تكونين على حق، إنني أرى فيهما سمة من الغموض والتستر.

قالت آنيا: أنا أرى فيهما شيئاً شريراً تماماً.

قالت السيدة هايز: إن لديك حل هذه الحيلات دائماً على أية حال، فقد كانا تسيران على الطريق السفلي، أليس كذلك؟ ألم تشاهديهما هناك؟

فإن ذلك لخاطب الآنسة ماربل. فقالت الآنسة ماربل: لا أستطيع القول إني لاحظتهما تماماً، في الواقع لم تقع لي فرصة لذلك.

- تقصدين...؟

قال كلوتيلد: إنها لم تكن هناك، لقد كانت موجودة هنا في حديقتنا.

- آه، بالطبع، لقد نسيت.

قالت الآنسة ماربل: كان يوماً رائعاً فعلاً، ولقد استمتعت به كثيراً. أريد أن أخرج في صباح العد الآتي نظرة ثانية على الأزهار البيضاء التي تتفتح عند طرف الحديقة قرب تلك الكومة المرتفعة. كانت قد بدأت تتفتح منذ أيام قليلة، ولا بد أنها أصبحت الآن في غاية الروعة. سيأتي هذا دائماً كجزء من زياراتي لهذا المكان.

قالت أنا: إنني أكرهها وأريدها أن تزول. أريد بناء مستودع زجاجي هناك. لو كان لديّ مالٌ لفعلت ذلك يا كلوتيلد، أليس كذلك؟

قالت كلوتيلد: ستركه على حاله، لا أريد أن يبنيه أحد. فما فائدة بيت النبات الزجاجي لنا الآن؟ سنمضي سنوات قبل أن تحمل الشاتية عنباً مرة ثانية.

قالت السيدة هايز: لا نستطيع الاستمرار في هذا الجدال. لنذهب إلى غرفة الاستقبال، ستحمل فيكتوريا لنا الشاي القهوة هنا قريب.

* * *

في ذلك الوقت وصلت الفيكتوريا. أحضرت كلوتيلد صينية القهوة ووزعت الفناجين على الحاضرات، ووضعت فنجاناً أمام كل واحدة من الفيكتوريتين ثم أحضرت واحداً للآنسة ماربل. مالت الآنسة كرك إلى الأمام وقالت: آه، أرجو أن تعذريني يا آنسة ماربل، لو كنت مكانك لما شربت القهوة. أعتقد في هذا الوقت من الليل، فإن تناميّ جيداً.

قالت الآنسة ماربل: آه، هل تعتقدين ذلك؟ إنني معتادة على شرب القهوة في المساء.

- نعم، لكن هذه قهوة ثقيلة وأنصحك بأن لا تشربيها.

نظرت الآنسة ماربل إلى الآنسة كرك. كان وجه الآنسة كرك جاداً تماماً وشعرها الأشقر المصبوغ يتدلى ليغطي إحدى عينيها، وكانت العين الأخرى تطرف قليلاً.

قالت الآنسة ماربل: لقد فهمت ما تعنينه. ربما كانت على صواب، أظن أنك خبيرة في أمور الحمية بعض الشيء.

- آه، نعم، لقد درستها. لقد سمّن وعشرت قليلاً على التدريس وبعض الأمور الأخرى.

دفعت الآنسة ماربل فنجان القهوة قليلاً وقالت: نعم، أرى أن

عندكن صورة لهذه الفتاة؟ أعني فيريتي هنت؟ كان رئيس القساوسة يتحدث عنها ويبدو أنه كان يحبها كثيراً.

قالت كلوتيلد: نعم، كان يحب جميع الشبان الصغار.

نهضت كلوتيلد وذهبت إلى حيث يوجد المكتب، ففتحت أحد أدراجه وأخرجت منه صورة وأحضرتها إلى الآنسة ماربل لتراها قائلة: هذه صورة فيريتي.

قالت الآنسة ماربل: إنها ذات وجه جميل. نعم، وجه جميل جداً وغير عادي. مسكينة!

قالت آتيا: إن هذه الأشياء التي تحدث دائماً مخيفة جداً... الفتيات يخرجن مع كل شاب وما من أحد يكلّف نفسه عناء الاهتمام بهن.

قالت كلوتيلد: إنهن مضطرات للاهتمام بأنفسهن في هذه الأيام، وهنّ لا يعرفن كيف يفعلن ذلك، ليساعدهن الله.

مدّت يدها لتأخذ الصورة من الآنسة ماربل فأصاب طرف كمّها فنجان القهوة وأسقطه على الأرض. قالت الآنسة ماربل: يا إلهي! أأنا السبب؟ هل دفعتُ ذراعك؟

قالت كلوتيلد: لا، إنه كُمّي، إنه فضفاض بعض الشيء. هل لك في كأس من الحليب الساخن إن كنت تخشين شرب القهوة؟

قالت الآنسة ماربل: سيكون ذلك من لطفك. إن كأساً من الحليب الساخن قبل النوم سيكون مهدئاً وسيسمح بنوم عميق.

وبعد حديث عابر غادرت الآنسة كوك والآنسة بارو. كانت

مغادرة فيها جلبة وضجة حيث كانت كل واحدة منهما تعود لتأخذ شيئاً نسيته؛ وشاحاً وحقيبة ومنديل جيب...

قالت آتيا عندما غادرتا أخيراً: جلبة، جلبة، جلبة.

قالت السيدة غلين تخاطب الآنسة ماربل: أوافقُ كلوتيلد على أن هاتين المرأتين لا تتصرفان تصرفاً طبيعياً.

قالت الآنسة ماربل: نعم، وأنا أوافقك الرأي أيضاً؛ لا تبدوان طبيعيتين. لقد حيرني أمرهما كثيراً وتساءلت عن سبب مجيئهما في هذه الرحلة، وعمّا إذا كانتا تستمتعان بها فعلاً، وتساءلت عن سبب مجيئهما.

سألتها كلوتيلد: وهل اكتشفت إجابات على كل هذه الأسئلة؟

قالت الآنسة ماربل: أظن ذلك.

ثم تنهدت وقالت: لقد اكتشفت إجابات على كثير من الأشياء.

قالت كلوتيلد: أرجو أن تكوني قد متّعت نفسك حتى هذه اللحظة.

- أنا مسرورة لأنني تركت الرحلة؛ لا أظن أنني كنت سأستمتع بما تبقّى منها.

- نعم، أتفهّم هذا جيداً.

أحضرت كلوتيلد كأساً من الحليب الساخن من المطبخ ورافقت الآنسة ماربل إلى غرفتها، ثم سألتها: أيوجد أي شيء آخر تريدين مني إحضاره لك؟ أي شيء؟

www.liilas.com

- لا، شكراً لك؛ لديّ كل شيء أريده. لدي حقيبة ملابس النوم هذه ولذلك لا حاجة لأن أخرج أية أمتعة من الحقيبة الكبرى. شكراً لك، إنه كرم عظيم منك ومن شقيقتيك أن تستقبلنني هنا هذه الليلة أيضاً.

- لم يكن باستطاعتنا أن نفعل أقل من ذلك بعد أن تلقينا رسالة السيدة رافائيل. لقد كان رجلاً عميق التفكير.

- كان رجلاً قديراً يفكر في كل شيء، أظن أنه كان ذا عقل عظيم.

- أظن أنه كان ذا عقل مالي راجح.

- كان ذا عقل مالي وغير مالي أيضاً، وكان يفكر في أشياء كثيرة. آه، سيسعدني أن أنام، طابت ليلتك يا عزيزتي.

- هل أحضر لك طعام الإفطار إلى غرفتك في الصباح؟

- لا، لا أريد أن أزعجكن، سوف أنزل. ربما فنجان من الشاي سيكفي لكني أريد الخروج إلى الحديقة، أريد بشكل خاص رؤية تلك الكومة التي تغطيها الأزهار البيضاء، جميلة جداً...

قالت كلوتيلد: طابت ليلتك، نوماً سعيداً.

* * *

دقت الساعة الكبيرة الموجودة في صالة بيت العزبة القديمة عند أسفل الدرج معلنة الساعة الثانية. لم تكن جميع الساعات الموجودة في البيت تدقّ في وقت واحد، بل إن بعضها لم يكن يدق أبداً. لم

يكن من السهل جعل الساعات القديمة العديدة الموجودة في البيت تدق في انتظام. وعند الساعة الثالثة دقّت الساعة الموجودة عند استراحة الدرج في الطابق الأول ثلاث دقات ناعمة، ثم ظهر ضوء خافت من خلال مفاصل الباب.

جلست الآنسة ماربل على سريرها ووضعت أصابعها على مفتاح المصباح الكهربائي القريب من سريرها. ثم فُتح الباب بهدوء شديد. لم يَعُد في الخارج الآن أي ضوء لكن الخطوات الناعمة اقتربت من الباب، وأضاءت الآنسة ماربل المصباح وقالت: آه، هذا أنت يا آنسة سكوت؟

قالت الآنسة سكوت: لقد جئت لأرى إن كنت تريدين شيئاً.

نظرت إليها الآنسة ماربل. كانت كلوتيلد ترتدي روباً أرجوانياً طويلاً، ورأت الآنسة ماربل كم هي أنيقة هذه المرأة. كان شعرها يحد جبينها، امرأة أشبه بشخصية تراجيدية، شخصية مسرحية. ومرة أخرى فكرت الآنسة ماربل بالمسرحيات الإغريقية، ومرة أخرى رأت في كلوتيلد شخصية كليتمنسترا!

- هل أنت واثقة من عدم حاجتك لأي شيء؟

- نعم، أشكرك.

ثم أضافت معتذرة: أخشى أن لا أكون قد شربت الحليب.

- آه، لماذا لم تشربيه؟

- لم أعتقد أنه يفيدني.

www.lilas.com

وقفت كلوتيلد هناك عند طرف السرير تنظر إليها. قالت الآنسة ماربل: ليس صحياً.

- ما الذي تعنينه بذلك بالضبط؟

صار صوت كلوتيلد جافاً الآن، وقالت الآنسة ماربل: أعتقد أنك تعرفين ما أعنيه، أظنك كنت تعرفين طوال المساء وربما قبل ذلك.

- لا أعرف عن أي شيء تتكلمين.

- حقاً؟

كان في نبرة الآنسة ماربل إذ طرحت سؤالها القصير هذا لمسة سخرية خفيفة.

قالت كلوتيلد: أخشى أن يكون الحليب قد برد الآن، سآخذه وأحضر لك كوباً ساخناً غيره.

ثم مدّت يدها وأخذت كوب الحليب من جانب السرير، فقالت الآنسة ماربل: لا تتعبي نفسك، حتى لو أحضرت غيره فلن أشربه.

- لا أفهم مغزى ما تقولينه أبداً. يا لك من امرأة غريبة! أية امرأة أنت؟ لماذا تتحدثين بهذه اللهجة؟ من أنت؟

ألقت الآنسة ماربل بوشاح الصوف الوردي الذي كان يلف رأسها. كان نفس الوشاح الذي لبسته عندما كانت في جزر الهند الغربية، وقالت: إن أحد الصفات التي دعاني البعض بها هو «انتقام العدالة».

- انتقام العدالة! وماذا يعني هذا؟

- أظنك تعرفين، فأنت امرأة مثقفة جداً. أحياناً تتأخر العدالة طويلاً، لكنها تأتي في النهاية.

- ما الذي تتحدثين عنه؟

قالت الآنسة ماربل: أتحدث عن فتاة جميلة جداً قتلتها!

- فتاة قتلتُها؟ ماذا تقصدين؟

- أقصد فيريتي.

- ولماذا أقتلها؟

- لأنك أحببتِها.

- كنت أحبها بالطبع، وهي أحبتني.

- لقد قيل لي منذ أمد قصير إن الحب كلمة مخيفة جداً، وهي كلمة مخيفة جداً بالفعل. لقد أحببتِ فيريتي كثيراً؛ كانت تعني لك كل شيء في الوجود، وكانت مخلصة لك إلى أن طرأ طارئ في حياتها، حب مختلف دخل حياتها. لقد أحبت ولداً، شاباً لم يكن جديراً بها ولم يكن سجله نظيفاً، لكنها أحبته وهو أحبها، وأرادت أن تهرب... أرادت أن تهرب من عبء رباط الحب الذي كانت تعيشه معك. لقد أرادت الحياة الطبيعية التي تنشدها المرأة، أرادت أن تعيش مع رجل من اختيارها وأن تنجب منه أطفالاً، أرادت الزواج وسعادة الحياة الطبيعية.

تحركت كلوتيلد إلى أحد الكرسي فجلست عليه وهي تحدق إلى الآنسة ماربل، ثم قالت: إذن يبدو أنك تفهمين جيداً؟

- نعم، أفهم بالفعل.

www.liilas.com

- إن ما تقوليه صحيح تماماً. لن أنكره، لا يهم إن أنكرت أو لم أنكر.

قالت الآنسة ماربل: نعم، أنت على حق في هذا؛ لن يهم ذلك.

- هل تعرفين... هل تتخيلين كم عانيت؟

- نعم، يمكنني تخيل ذلك؛ فأنا أستطيع تخيل الأشياء دائماً.

- هل تخيلت المعاناة، معاناة التفكير، معاناة الإدراك بأنك ستخسرين الشيء الذي تحبينه أكثر من أي شيء في هذه الدنيا... وكنت سأفقده لمصلحة جانح بائس محروم، رجل لا يستحق فتاتي الجميلة الرائعة هذه. اضطررت لأن أوقف ذلك، اضطررت... اضطررت.

قالت الآنسة ماربل: نعم؛ قبل أن تتركي الفتاة تذهب قتلتِها. قتلتِها لأنك أحببتِها!

- كيف تظنين أن باستطاعتي فعل شيء كهذا؟ أتظنين أنني أستطيع خنق الفتاة التي أحببتها؟ أتظنين أنني كنت أستطيع تهشيم وجهها وسحق رأسها؟ لا يفعل مثل هذا الأمر إلاّ رجل محروم شرير.

قالت الآنسة ماربل: لا، ما كنت لتفعلي ذلك. لقد أحببتها ولم يكن بوسعك أن تفعلي ذلك بها.

- إذن فإن كلامك هذا هراء؟

- لم تفعلي ذلك بها. إن الفتاة التي حدث لها ذلك لم تكن

الفتاة التي أحببتها. فيريتي ما زالت موجودة هنا، أليس كذلك؟ إنها هنا في الحديقة! لا أظن أنك خنقتها، بل أظن أنك أعطيتِها فنجاناً من القهوة أو الحليب ووضعتِ لها فيه جرعة زائدة من مادة منومة، وعندما ماتت أخذتِها إلى الحديقة فأزحتِ اللَّبِنات المتساقطة من جدار المستنبت الزجاجي وحفرت لها قبراً هناك تحت الأرض ثم غطيتِه، وبعد ذلك زرعتِ النباتات هناك، فأزهرت منذ ذلك الوقت وأصبحت تنمو وتقوى كل عام. لقد بقيَت فيريتي هنا معك؛ لم تتركيها تذهب أبداً.

- أيتها الحمقاء، أيتها العجوز المجنونة! هل تعتقدين أنك ستنجين وتفلتين مني لتحكي هذه القصة؟

قالت الآنسة ماربل: أظن ذلك، ولكني لست واثقة تماماً. أنت امرأة قوية، أقوى مني بكثير.

- يسعدني أنك تقدّرين ذلك.

- كما أنك تفتقرين لأي وازع. إن القاتل لا يتوقف عند جريمة واحدة؛ لقد لاحظت ذلك وخبرته في حياتي ومراقبتي لعالم الجريمة. لقد قتلتِ فتاتين، أليس كذلك؟ لقد قتلت الفتاة التي أحببتها وقتلت فتاة أخرى.

- نعم، قتلت موسماً سخيفة، فتاة مراهقة سيئة اسمها نورا برود. كيف عرفت بأمرها؟

- لقد تساءلت في نفسي كثيراً. لم أصدّق أبداً أن بوسعك أن تختقي فتاة تحبينها ثم تشوهي وجهها. ولكن فتاة أخرى اختفت في

www.liilas.com

ذلك الوقت أيضاً، فتاة لم يعثر على جثتها أحدٌ. ولكني رأيت أن الجثة قد اكتُشفت فعلاً إلاّ أنهم لم يعرفوا أنها جثة نورا برود. لقد أُلبست ثياب فيريتي وتم التعرف عليها على أنها جثة فيريتي من قِبل أول شخص يمكن للشرطة أن تلجأ إليه، أي من قِبل المرأة التي عرفتها أفضل من أية واحدة أخرى. كان عليك أن تذهبي وتقولي إن كانت الجثة التي عُثر عليها هي جثة فيريتي أو لا، وتعرفتِ عليها. قلتِ إن تلك الفتاة الميتة هي فيريتي.

- ولماذا أفعل هذا؟

- لأنك أردت تقديم الفتى الذي أخذ منك فيريتي، الفتى الذي أحبته فيريتي وأحبها، إلى المحاكمة بتهمة القتل. وهكذا أخفيتِ الجثة الثانية في مكان ليس من السهل كشفه، وعندما اكتُشفت الجثة هذه اعتقدوا أنها الفتاة الأخرى. لقد عملت على تمويه الجثة لتبدو كما أردت؛ ألبستها ثياب فيريتي ووضعت حقيبتها بجانبها ورسالة أو رسالتين وأسورتها وسلسلة ذهبية... وشوّهت وجهها. لكن قبل أسبوع ارتكبت الجريمة الثالثة؛ قتلتِ إليزابيث تيمبل، قتلتها لأنها كانت قادمة إلى هذه المنطقة وكنت تخشين مما يمكن أن تعرفه، مما يمكن أن تكون فيريتي قد كتبته لها أو أخبرتها به. واعتقدتِ أنه لو التقت إليزابيث تيمبل برئيس القساوسة برايازون فإنهما قد يتوصلان إلى الحقيقة بما عندهما من معلومات، ولذلك لا ينبغي السماح لإليزابيث تيمبل بلقاء ذلك الرجل. أنت امرأة قوية جداً، وقد كان بوسعك دحرجة تلك الصخرة من أعلى الهضبة. لا بد أنها تطلبت جهداً كبيراً لكنك امرأة قوية جداً كما قلت.

قالت كلوتيلد: نعم، أنا قوية بما يكفي للتعامل معك.

قالت الآنسة ماربل: لا أعتقد أنني سأسمح لك بفعل ذلك.

- ماذا تقصدين أيتها العجوز البائسة الخَرِفة؟

- نعم، أنا عجوز وجسدي ضعيف، ضعيفة في كل جسمي، ولكنني مبعوثة العدالة.

ضحكت كلوتيلد وقالت: ومَن الذي سيمنعني من قتلك؟

- أعتقد أنه الملاك الذي يحرسني!

- أنت تثقين بملاكك الحارس إذن، أليس كذلك؟

ثم ضحكت مرة أخرى واقتربت من السرير، فقالت الآنسة ماربل: ربما كانا ملَكين اثنين، فالسيد رافائيل كان سخياً في كل ما يفعله.

مدّت يدها تحت الوسادة وأخرجتها ثانية وفيها صافرة وضعتها في فمها وصفرت، وكان صوت الصافرة مثيراً وقوياً بما يكفي لتنبيه شرطي حتى لو كان في آخر الشارع. ثم حدث أمران في وقت واحد تقريباً؛ فقد فُتح باب الغرفة، والتفتت كلوتيلد فرأت الآنسة بارو تقف عند مدخله، وفي الوقت نفسه فُتح باب خزانة الحائط الكبيرة وخرجت منه الآنسة كوك! كانت حركاتهما القوية تدل على أنهما سيدتان محترفتان بشكل ملفت للنظر بعكس مظهرهما الاجتماعي البسيط الذي كانتا عليه قبل ساعات.

قالت الآنسة ماربل سعيدة: ملاكان حارسان... لقد أكرمني السيد رافائيل كثيراً!

* * *

www.liilas.com

الفصل الثاني والعشرون

الآنسة ماربل تروي قصتها

سألها البروفسور وانستيد: متى اكتشفت أن هاتين المرأتين عميلتان خاصتان ترافقانك من أجل حمايتك؟

مال بجسده إلى الأمام وهو ينظر متأملاً إلى العجوز ذات الشعر الأبيض التي جلست منتصبة الظهر على الكرسي أمامه. كانا يجلسان في مبنى حكومي في لندن وكان أربعة أشخاص آخرون حاضرين؛ مسؤول من مكتب الادعاء العام، ومساعد مفوض شرطة سكوتلانديارد السير جيمس لويد، وحاكم سجن مانستون السير آندور ماكنيل، أما الرابع فكان وزير الداخلية.

قالت الآنسة ماربل: لم أعرف ذلك إلاّ في آخر ليلة، فلم أكن واثقة منهما حتى ذلك الوقت. لقد جاءت الآنسة كوك إلى سينت ميري ميد واكتشفتُ بسرعة أنها لم تكن كما كانت تتظاهر، حيث تظاهرت بأنها خبيرة في شؤون البستنة والحدائق وجاءت إلى هناك لتساعد صديقة في عمل حديقتها. لذلك كان عليّ أن أقرر هدفها الحقيقي من قدومها ذاك، وهو تعرفها على شكلي. كان واضحاً أن ذلك كان

الهدف الوحيد لمجيئها، وعندما ميزتها مرة أخرى في الحافلة كان عليّ أن أقرر إن كانت قد جاءت في هذه الرحلة من أجل الحراسة أم أن هاتين المرأتين عدوتان جاءتا بطلب من الطرف الآخر.

لقد تأكدت من حقيقتهما في تلك الأمسية الأخيرة فقط عندما منعتني الآنسة كوك بكلمات تحذير واضحة من شرب فنجان القهوة الذي وضعته كلوتيلد أمامي. قالت عبارتها بطريقة ذكية جداً لكن التحذير كان واضحاً فيها، وبعد ذلك عندما كنت أودع هاتين المرأتين أمسكت إحداهما يدي بكلتا يديها وهي تصافحني مصافحة حارة، وفي أثناء ذلك وضعت في يدي شيئاً عرفت فيما بعد أنه صافرة قوية جداً. أخذتها معي إلى الغرفة وقلبت كوب الحليب الذي ألحّت مضيفتي عليّ بشربه وودعتها وأنا حريصة على عدم تغيير طريقتي اللطيفة والبسيطة في التعامل معها.

- ألم تشربي الحليب؟

- بالطبع لم أشربه. ماذا تحسبني؟

قال البروفسور وانستيد: أرجو المعذرة، إن ما يدهشني أنك لم تقفلي باب غرفتك.

- أردت أن تدخل كلوتيلد؛ أردت أن أرى ما ستقوله أو تفعله، وكنت شبه متأكدة من أنها ستأتي بعد مرور بعض الوقت حين تتأكد من أنني شربت الحليب وغبت عن الوعي ونمت نومة يفترض أن لا أستيقظ بعدها أبداً.

- هل ساعدت الآنسة كوك في الاختباء داخل الخزانة؟

www.liilas.com

- لا، بل لقد فوجئت تماماً عندما رأيتها تخرج من هناك فجأة. أظن... أظن أنها تسللت إلى هناك عندما نزلت إلى الحمّام.

- هل كنت تعرفين أن المرأتين كانتا في البيت؟

- رأيت أنهما ستكونان في مكان قريب بعد أن أعطياني الصافرة. لا أعتقد أنه بيت يصعب الدخول إليه؛ فليس للنوافذ واقيات خشبية ولم تكن فيه أجهزة إنذار ضد السرقة أو أي شيء كهذا... لقد عادت واحدة منهما بحجة أنها تركت حقيبتها ووشاحها، وربما عملتا فيما بينهما على ترك إحدى النوافذ مفتوحة، وأظن أنهما عادتا إلى البيت حالما غادرتاه بينما كانت صاحبات المنزل ذاهبات إلى النوم.

- لقد جازفتِ مجازفة كبيرة يا آنسة ماربل.

قالت الآنسة ماربل: لا يمكن أن تسير حياة الإنسان دون مجازفات إن لزم الأمر.

- بالمناسبة، إن فكرتك عن الطرد الذي أرسل إلى المؤسسة الخيرية كانت ناجحة تماماً. كان الطرد يحتوي على سترة رجّالية زاهية الألوان ذات مربعات سوداء وحمراء. كانت ملفتة للنظر جداً. ما الذي جعلك تفكرين بهذا؟

قالت الآنسة ماربل: كان ذلك عملاً بسيطاً جداً. الوصف الذي أعطاه إيملين وجوانا للشخص الذي شاهداه جعلني أتأكد من أن هذه الملابس ذات الألوان الملفتة للنظر كان يقصَد بها أن تُلاحَظ، ولذا فمن المهم جداً عدم إخفائها في البيت أو ضمن أغراض هذا الشخص الخاصة. كان يجب التخلص منها بأسرع وقت ممكن، والحق أن هناك طريقة واحدة فقط ناجحة للتخلص من شيء ما، وهي بواسطة

البريد العام. أي شيء في شكل ملابس يمكن إرساله إلى الجمعيات الخيرية بسهولة، وكم سيكون الناس الذين يجمعون ملابس الشتاء للجمعيات الخيرية سعداء عندما يجدون سترة صوف جديدة! كل ما كان عليّ عمله هو معرفة العنوان الذي أُرسلت إليه.

بدا وزير الداخلية مصدوماً بعض الشيء وهو يقول: وهل طلبت منهم العنوان في مكتب البريد؟

- ليس صراحة بالطبع، أقصد أنه كان ينبغي عليّ أن أظهر بعض الارتباك وأشرح لهم كيف وضعت عنواناً خاطئاً على طرد ملابس أرسلته إلى جمعية خيرية، وسألتهم إن كان هذا الطرد الذي أرسلته إحدى مُضيفاتي قد أُرسل أم لا... وكانت هناك امرأة لطيفة بذلت جهدها لخدمتي وتذكّرت أنه لم يكن العنوان الذي كنت أرجو أن يكون الطرد قد أرسل إليه، وأعطتني العنوان الذي سجلّته. أظن أن أية شكوك لم تساورها بوجود رغبة لديّ للحصول على المعلومات سوى أنني عجوز مشوشة الذهن ومتضايقة من عدم معرفة الوجهة التي سلكها طرد الملابس المستعمَلة الذي أرسلته.

قال البروفسور وانستيد: آه، أرى أنك ممثلة يا آنسة ماربل! ومتى بدأت تكتشفين ما حدث قبل عشر سنوات؟

قالت الآنسة ماربل: في البداية وجدت الأمور صعبة للغاية، بل تكاد تكون مستحيلة. كنت في داخلي ألوم السيد رافائيل لأنه لم يوضّح لي الأمور، ولكني عرفت الآن أنه كان حكيماً لأنه لم يفعل ذلك. لقد كان رجلاً ذكياً ذكاء غير عادي، لقد عرفت الآن سر نجاحه في عمله وهذه الثروة الواسعة التي جمعها بسهولة، لقد وضع خططه بطريقة جيدة. لقد أعطاني معلومات كافية في شكل جرعات صغيرة كل مرة،

www.liilas.com

كان يوجّهني. في البداية طُلب من ملّكيّ الحارسين معرفة شكلي، ثم طُلب مني الذهاب في هذه الرحلة والتعرف على من فيها.

- هل اشتبهت بأي واحد في الحافلة في البداية؟

- كانت مجرد احتمالات.

- ألم تكن لديك أحاسيس بوجود الشر.

- آه، ها أنت قد تذكرت هذا. لا أظن أنه كانت توجد أجواء محددة من الشر، لم يقل لي أحدٌ مع مَن ستكون صلتي هناك، ولكنها هي التي عرّفتني بنفسها.

- إليزابيث تيمبل؟

- نعم، كان كالضوء الكشّاف ينير الأشياء في ليلة معتمة، وكنت حتى ذلك الوقت أجهل كل شيء. كانت هناك أشياء معينة يجب أن تكون، أقصد يجب أن تكون من الناحية المنطقية بسبب ما أشار إليه السيد رافائيل. لا بد من وجود ضحية ومجرم في مكان ما، نعم، لقد أشار إلى وجود قاتل لأن هذا هو الرابط الوحيد الذي وُجد بيني وبين السيد رافائيل. لقد وقعت جريمة قتل في جزر الهند الغربية، وقد شاركت معه في حلها، وكل ما كان يعرفه عني هو صلتي بذلك الأمر. لذلك لا يمكن أن يكون الأمر نوعاً آخر من الجرائم، كما لا يمكن أن تكون جريمة عرَضية. يجب أن تكون وتُظهر نفسها على أنها من تصميم شخص اتخذ الشرّ طريقاً، الشر بدلاً من الخير. وقد بدا أن هناك ضحيتين؛ أي لا بد من وجود شخص قُتِل وشخص آخر عوقب ظلماً كما هو واضح، ضحية تم اتهامه بارتكاب جريمة قتل لم يرتكبها.

سكتت الآنسة ماربل قليلاً لالتقاط أنفاسها ثم مضت تقول: وعندما كنت أقلب تلك الأمور في داخلي لم أكن أعرف عنها شيئاً إلى أن تحدثت مع الآنسة تيمبل. كانت ذات عاطفة جياشة ومسيطرة جداً، ومن هناك جاءت أول رابطة كانت لي مع السيد رافائيل. تكلمت عن فتاة عرفتها، فتاة كانت مخطوبة ذات مرة لابن السيد رافائيل. هذا هو أول بصيص من ضوء بالنسبة لي إذن، وسرعان ما أخبرتني بأن الفتاة لم تتزوجه. وسألتها عن السبب فقالت «لأنها ماتت». سألتها كيف ماتت أو ما هو سبب موتها فقالت بقوة وحدّة... وما زلت أستطيع سماع صوتها كصوت الجرس العميق... قالت: «الحب»! وبعد ذلك قالت: «إن كلمة الحب هي أكثر الكلمات المخيفة رهبة»! ولم أدرك وقتها ما كانت تعنيه بالضبط، والواقع أن أول فكرة راودتني هي أن الفتاة انتحرت نتيجة لعلاقة غرامية غير موفّقة. مثل هذا يحدث كثيراً وتكون مأساة محزنة عندما تقع. كان ذلك كل ما عرفته وقتها، كما عرفت حقيقة أنها لم تكن تشارك في الرحلة لمجرد المتعة. لقد أخبرتني بأنها ذاهبة في «رحلة حج»، كانت ذاهبة إلى مكان معين أو إلى شخص معين. ولم أعرف وقتها من هو ذلك الشخص بل عرفته فيما بعد.

- رئيس القساوسة برابازون؟

- نعم. ومنذ ذلك الوقت أحسست أن الشخصيات الرئيسية... الممثلين الرئيسيين في المسرحية لم يكونوا بين المسافرين في الرحلة. وترددت لوقت قصير، ترددت بخصوص أشخاص معينين، ترددت وأنا أفكر في جوانا كراوفورد وإيملين برايس.

- ولماذا ركّزتِ عليهما؟

www.liilas.com

- بسبب صغر سنهما؛ لأن الشباب يرتبط دائماً بالانتحار وبالعنف والغيرة الشديدة وبالحب المأساوي. رجل يقتل فتاته... هذا يحدث. نعم، لقد انشغل ذهني بهما ولكن لم يظهر لي وجود أي صلة لهما بالأمر. لم يظهر أي ظل من شر أو يأس أو بؤس... وقد استخدمت فكرتهما فيما بعد كمؤشر وهمي عندما كنّا معاً في بيت العزبة القديمة في تلك الأمسية الأخيرة، فشرحت كيف يمكن أن يكونا أقوى المشتبه فيهم في وفاة إليزابيث تيمبل. وعندما أراهما ثانية سأعتذر لهما عن استخدامي إياهما كشخصيتين مفيدتين لإبعاد الانتباه عن أفكاري الحقيقية.

- وكان الأمر التالي هو وفاة إليزابيث تيمبل؟

- لا؛ الواقع أن الشيء التالي كان وصولي إلى بيت العزبة القديمة وحسن استقبالي وكرم ضيافتي. ذلك أيضاً رتّبه السيد رافائيل، لذلك عرفت أنني يجب أن أذهب إلى هناك من أجله. قد يكون مجرد مكان أحصل فيه على مزيد من المعلومات التي تقودني في عملي إلى الأمام. أنا آسفة...

عادت الآنسة ماربل إلى طبيعتها الاعتذارية وهي تقول: آسفة لأنني أطيل الكلام، لا أريد أن أشغلكم بما كنت أفكر فيه و...

قال البروفسور وانستيد: أرجو أن تستمري. قد لا تعرفين أن ما تقولينه الآن يثير اهتمامي؛ إنه أمر يتصل بكثير من الحالات التي عرفتها ورأيتها في أثناء عملي. استمري في توضيح ما شعرت به.

قال السير آندرو ماكنيل: نعم، استمري من فضلك.

قالت الآنسة ماربل: كان ذلك شعوراً ولم يكن استنتاجاً منطقياً

في الحقيقة. كان يرتكز على رد فعل يتعلق بالحدس أو... لا يمكنني إلاّ أن أعزوه إلى الجو العام في البيت.

قال وانستيد: نعم، ثمة جو عام؛ جو في البيوت، في الأماكن، في الحديقة، في الغابة...

- الأخوات الثلاث! هذا ما فكرت به وشعرت به وقلته في نفسي عندما دخلت بيت العزبة القديمة. إن في عبارة الأخوات الثلاث شيئاً ما... إنها عبارة تجعل الشر يقفز إلى ذهنك، فهي ترتبط بالأخوات الثلاث المذكورات في الأدب الروسي والساحرات الثلاث في مسرحية ماكبث... لقد بدا لي وجود جو من الأسى ومن الإحساس العميق بالحزن، وأيضاً جو من الخوف، مع شيء من الصراع مع جو آخر مختلف أستطيع أن أصفه بأنه الجو الطبيعي.

قال وانستيد: إن كلمتك الأخيرة هذه تثير اهتمامي.

- أظن أن ذلك بسبب السيدة غلين، فهي التي جاءت لاستقبالي عندما وصلت الحافلة وشرحت لي طبيعة الدعوة. لقد استقبلتني لافينيا غلين بلطف وكرم وكانت طبيعية للغاية ومريحة. أرملة لم تكن سعيدة جداً، لكني عندما أقول إنها لم تكن سعيدة جداً فليس لذلك علاقة بالأسف أو بالحزن العميق، إنما كانت تعيش في جو لا يلائم شخصيتها. أخذتني معها إلى البيت فقابلت شقيقتيها، وفي صباح اليوم التالي سمعت من خادمة مسنّة أحضرت لي الشاي في الصباح الباكر قصة عن مأساة مضت لفتاة قتلها صديقها وعن عدة فتيات غيرها في المنطقة وقعن ضحايا للعنف.

سكتت قليلاً ثم قالت: وكان عليّ القيام بتقييمي الثاني عندئذ؛

www.lilas.com

فأبعدت من ذهني ركاب الحافلة كونهم لا صلة لهم ببحثي. ما زال هناك قاتل في مكان ما، وسألت نفسي إن كان أحد القتلة موجوداً هنا، هنا في هذا البيت الذي أُرسلت إليه: كلوتيلد، لافينيا، آنثيا؟ ثلاثة أسماء لثلاث أخوات غريبات، ثلاث أخوات سعيدات... حزينات.... ثلاث يعانين... ثلاث خائفات... ماذا كنّ؟ وتركّزَ انتباهي في البداية على كلوتيلد. امرأة طويلة القامة مليحة الشكل ذات شخصية قوية، تماماً مثل إليزابيث تيمبل ذات الشخصية القوية. وشعرت أن المجال هنا كان محدوداً، فيجب أن آخذ فكرة ملخّصة عن الأخوات الثلاث، مَن يمكن أن تكون قاتلة منهن؟ أية قاتلة؟ أي قتل؟ وشعرت وقتها بوجود جو معين بدأ يظهر ببطء. لا أعتقد بوجود أية كلمة يمكنها أن تعبّر عن ذلك الجو سوى كلمة «الشر». ليس بالضرورة أن تكون واحدة من هؤلاء النسوة الثلاث شريرة، لكنهن كن يعشن بالتأكيد في جو وقع فيه شر وترك ظلاله هناك أو ما زال يتهددهن. كانت كلوتيلد الأكبر سناً أول واحدة فكرت فيها؛ كانت حسنة الشكل قوية، وكانت ذات أحاسيس وعواطف جيّاشة. يجب أن أعترف بأنني رأيت فيها شخصية كليتمنسترا... شعرت أنني يمكن أن أرى في كلوتيلد امرأة قادرة على التخطيط لقتل زوجها وتنفيذ لك!

حاول البروفسور وانستيد كتم ضحكة كادت تغلبه، وكان ذلك بسبب جدية الآنسة ماربل في كلامها. طرفت عيناها قليلاً وهي تنظر إليه ثم أضافت: نعم، يبدو سخيفاً أن أقول مثل هذا الكلام! لكني رأيتها هكذا وهي تقوم بذلك الدور، ولسوء الحظ لم تكن متزوجة. لم تتزوج أبداً ولذلك لم تقتل زوجها! ثم بعد ذلك فكرت في أختها التي قادتني إلى البيت، لافينيا غلين. بدت امرأة لطيفة جداً وحكيمة ومرحة، ولكن للأسف فإن بعض المجرمين والقتلة كانوا يحملون

هذه الصفات نفسها وكانوا يسحرون مَن حولهم! كثير من القتلة مرحون لدرجة أذهلت الناس الذين كانوا يعرفونهم. إنهم ما أسميهم بالقتلة المحترمين، المجرمين الذين يرتكبون جريمة قتل لدوافع منفعية تماماً، دون عاطفة ولكن لتحقيق مكسب معين. لا أظن أن ذلك كان محتملاً جداً في حالتنا هذه، ولو كان كذلك لفوجئت كثيراً، لكني لم أستطع استبعاد السيدة غلين إلى خارج دائرة الشك. كانت متزوجة وكانت أرملة منذ سنوات، ويمكن أن تكون هي. تركت التفكير بها عند ذلك الحد، ثم جئت إلى الأخت الثالثة: آنثيا. كان امرأة مزعجة، وبدت لي مشوّشة الذهن مضطربة التفكير وتعيش حالة من الخوف. كانت خائفة من شيء ما، خائفة جداً من شيء ما. يمكن أن تكون هذه هي المطلوبة. فإذا كانت قد ارتكبت جريمة قتل، جريمة اعتقدت أنها انتهت ومضت، فقد تكون هناك عودة للشكوك أو إحياء لمشكلات قديمة، شيء ربما كان متصلاً بالتحقيق الذي كانت تقوم به إليزابيث تيمبل. ربما أحست بالخوف من إمكانية إحياء جريمة قديمة أو اكتشافها. كانت تنظر إلى من حولها بطريقة غريبة ثم تنظر نظرات حادة من جانب إلى آخر ثم إلى الوراء وكأنها ترى شيئاً يقف خلفها، شيئاً كان يخيفها. لذلك كانت هي الأخرى جواباً محتملاً؛ قاتلة مضطربة عقلياً يمكن أن تقتل لأنها تعتبر نفسها مضطهدة، لأنها كانت خائفة.

حسناً، كانت تلك مجرد أفكار، كانت مجرد احتمالات فكرت بها وأنا هناك. لكن جو البيت كان يسيطر عليّ أكثر من قبل، وفي صباح اليوم التالي كنت أمشي في الحديقة مع آنثيا، وعند نهاية الطريق العشبي الرئيسي كانت هناك كومة مرتفعة، كومة نتجت عن تهدّم مستنبَت زجاجي كان قائماً هناك، وقد تهدم نتيجة نقص الترميم

www.liilas.com

وبسبب نقص في المزارعين بعد انتهاء الحرب، وهكذا تهدّم وانهار وتكوّمت الأحجار والرمال مشكّلة كومة صغيرة زُرعت فوقها نبتة زاحفة معينة، نبتة معروفة يستعملها المرء عندما يريد إخفاء أو تغطية بعض الأجزاء البشعة من المبنى في حديقة. اسمها «عصا الراعي»، وهي واحدة من أسرع النباتات نمواً وإزهاراً وتبتلع وتقتل وتجفف كل شيء تنمو فوقه. إنها تنمو فوق أي شيء، إنها نباتات مخيفة بعض الشيء، ومع ذلك فإن لها أزهاراً بيضاء يمكن أن تبدو جميلة للغاية. لم تكن الأزهار متفتحة بعد لكنها كانت في طريقها لذلك، وقد وقفت هناك مع آنثيا التي بدت حزينة جداً بسبب فقدان بيت النبات الزجاجي. وقالت إن أفضل أنواع العنب كان يزرع فيه، ويبدو أن هذا هو أكثر ما تتذكره عن الحديقة عندما كانت طفلة هناك. وكانت تريد، كانت تريد يائسة الحصول على مال كاف لكي تزيل تلك الكومة وتسوّي الأرض ثم تعيد بناء البيت الزجاجي لتزرعه من جديد بأشجار العنب والخوخ. كنت تشعر بحنين وشوق عارم إلى الماضي، بل كان الأمر أكثر من ذلك. ومرة أخرى أحسست بوجود جو من الخوف كان واضحاً جداً، شيء في الكومة جعلها تخاف. لم أستطع أن أفكّر في حقيقة خوفها في ذلك الوقت.

وتعرفون الذي حدث بعد ذلك؛ كانت وفاة إليزابيث تيمبل ولم يكن هناك شك -من خلال الرواية التي رواها إيملين برايس وجوانا كراوفورد- بأن ثمة استنتاجاً واحداً فقط: لم تكن وفاتها حادثاً، بل كانت جريمة قتل متعمدة. وأظن أنني عرفت الحقيقة منذ تلك اللحظة؛ توصلت إلى نتيجة مفادها أنه توجد ثلاث جرائم قتل. سمعت الرواية كاملة عن ابن السيد رافائيل، ذلك الولد الجانح والسجين السابق، وقد اعتقدت أنه فعل كل هذه الأشياء، لكن واحداً

منها لم يُظهر أنه قاتل أو يحتمل أن يكون قاتلاً. كل الشواهد كانت ضده ولم يساور أحداً الشكّ في أنه قتل الفتاة التي علمتُ أن اسمها فيريتي هنت، ولكن أتى رئيس القساوسة برابازون ليؤكد بشكل نهائي كل توقعاتي؛ فقد كان يعرف هذين الشابين. لقد جاءا إليه وأخبراه بأنهما يريدان الزواج، وقد وافق على تزويجهما على مسؤوليته. كان يشكّ في الحكمة من تزويجهما، لكنه زواج يمكن تبريره بأنهما كانا متحابين. كانت الفتاة تحب الفتى حباً صادقاً، كما اعتقدَ أن الفتى أحب الفتاة حباً صادقاً (على الرغم من سوء سمعته الأخلاقية) وكان يعتزم الإخلاص لها ومحاولة إصلاح نزعاته الشريرة. لم يكن رجل الدين متفائلاً، وأظن أنه لم يصدّق بأنه سيكون زواجاً سعيداً لكنه رأى أنه زواج ضروري، ضروري لأنك إن أحببت حقاً فسوف تدفع الثمن حتى لو كان الثمن خيبة الأمل ومقداراً من الحزن. لكني كنت واثقة من شيء واحد؛ ذلك الوجه المشوّه وذلك الرأس المهشم لا يمكن أن يكون من فعل فتى أحب الفتاة حباً صادقاً، فهذه ليست قصة اعتداء. كنت مستعدة لتبنّي رأي رجل الدين حول تلك المسألة، لكني كنت أعرف أيضاً أنني حصلت على المفتاح الصحيح لحل اللغز، المفتاح الذي أعطتني إياه إليزابيث تيمبل. لقد قالت إن سبب وفاة فيريتي هو الحب... وهي كلمة مخيفة جداً.

كانت واضحة إذن. أعتقد أنني عرفت ذلك منذ وقت طويل، كانت أمور صغيرة فقط غير منسجمة مع الحقيقة العامة، لكنها باتت منسجمة الآن. إنها تنسجم مع ما قالته إليزابيث تيمبل، سبب وفاة فيريتي. قالت أولاً كلمة واحدة: «الحب»، ثم قالت بعد ذلك إن الحب قد يكون كلمة مخيفة جداً. كل شيء كان مرسوماً بالتفصيل وبوضوح. الحب الغامر الذي كانت كلوتيلد تكنّه للفتاة، حب الفتاة

www.liilas.com

لها الذي يشبه تعلق المراهقين بالأبطال والمشاهير، ثم عندما كبرت الفتاة قليلاً ظهرت غرائزها الطبيعية. أرادت الحب، أرادت أن تنال الحرية لكي تحب وتتزوج وتنجب أطفالاً. وعلى الفور جاءها الفتى الذي يمكنها أن تحبه. عرفت أنه شاب غير موثوق، لكن هذا لا يصرف أية فتاة عن فتاها، بل إن الشابات يُعجبن بالشبّان السيئين ويكنّ واثقات تماماً من أنهن يستطعن تغييرهم!

وقعت فيريتي في حب مايكل رافائيل، وكان مايكل رافائيل مستعداً لبدء صفحة جديدة في حياته بزواجه بهذه الفتاة، وكان واثقاً أنه لن ينظر إلى أية فتاة غيرها بعد ذلك. لا أقول إن هذا يكون دائماً زواجاً سعيداً لكن رجل الدين كان واثقاً من أن ما يجمعهما هو حب حقيقي. وهكذا خططا للزواج، وأعتقد أن فيريتي كتبت لإليزابيث وأخبرتها أنها ستتزوج مايكل رافائيل. لقد رُتّب الزواج سراً لأن فيريتي كانت تدرك أن ما كانت تفعله هو عملية هروب أصلاً؛ كانت تهرب من حياة لم تعد تريدها، من واحدة أحبتها كثيراً ولكن ليس بالطريقة التي أحبت بها مايكل. وما كانت لتسمح لها بأن تفعل ذلك؛ لن تعطيها الإذن طائعة وستضع أمام زواجها كل العراقيل. ومثل الشباب الآخرين، لا بد أن يهربا.

ولم تكن بهما حاجة للهروب إلى بلاد أخرى للزواج، فهما راشدان ومؤهلان للزواج. ولذلك لجأت إلى رجل الدين برابازون، وهو صديق قديم وحقيقي للفتاة. وتم ترتيب أمر الزفاف وتحديد اليوم والساعة، وربما اشترت سراً بعض الثياب اللازمة للزواج. ولا شك أنه كان عليهما الالتقاء في مكان ما، كان عليهما أن يذهبا إلى الموعد كل واحد على حدة. وأعتقد أنه ذهب إلى هناك لكنها لم تأت، وربما انتظرها، انتظرها ثم حاول أن يعرف لماذا لم تأت، وأعتقد أنه ربما

www.liilas.com

استلم بعد ذلك رسالة بخطها المزيَّف تقول فيها إنها قد غيرت رأيها وإن كل شيء قد انتهى وإنها ستذهب بعيداً حتى تنسى... لا أدري، ولكن لا أظن أن السبب الحقيقي لتخلفها عن الموعد وعدم إرسالها أي خبر قد خطر في باله أبداً. لم يعتقد أبداً أنها قُتلت بوحشية وقسوة وجنون قتلاً متعمداً، وكيف سيفكر بأمر غريب كهذا؟ لم تكن كلوتيلد لتسمح بفقدان الفتاة التي أحبت، لن تدعها تفلت وتذهب إلى الشاب الذي كانت تكرهه، بل كانت ستحتفظ بفيريتي بطريقتها الخاصة. لكن ما لم أستطع تصديقه أبداً هو أنها خنقت الفتاة ثم شوهت وجهها. لم أعتقد أنها كانت ستتحمل هذا الفعل، لذلك أظن أنها أعادت ترتيب لَبِنات الجدار المتداعي في طرف المستنبت الزجاجي وألقت عليها أكواماً من الرمال. وكانت الفتاة قد أُعطيت شراباً قاتلاً أو جرعة زائدة من دواء منوم، ثم دُفنت هناك في الحديقة وكُوّمت اللبنات فوق جثتها ثم غُطّيت بالتراب والأعشاب.

- هل شكّت إحدى أختيها بهذا الأمر؟

- لم تكن السيدة غلين هناك في ذلك الوقت، لم يكن زوجها قد مات وكانت تعيش في الخارج. لكن آنثيا كانت هناك، وأظن أن آنثيا قد علمت ببعض ما جرى. لا أعرف إن كانت قد شكّت بحدوث جريمة قتل في البداية، لكنها عرفت أن كلوتيلد كانت تشغل نفسها في عمل رابية صغيرة عند طرف الحديقة لكي تغطيها بالأعشاب والأزهار لتكون منظراً جميلاً، وأعتقد أنها أدركت الحقيقة شيئاً فشيئاً.

وبعد أن قبلت كلوتيلد بالشر وفعلت الشر واستسلمت له لم يعد يتنابها وخز من ضمير فيما ستفعله بعد ذلك. أظن أنها استمتعت بالتخطيط له، كان لها نفوذ ما على فتاة قروية سيئة الأخلاق كانت

www.liilas.com

تأتيها متسولة من وقت لآخر، وأعتقد أنه كان يسهل عليها أن ترتب موعداً تأخذ فيه الفتاة في رحلة بعيدة تبعد ثلاثين ميلاً أو أربعين. وأظن أنها اختارت المكان مسبقاً، وهناك خنقت الفتاة وشوّهت وجهها وأخفتها تحت التراب والأغصان وأوراق الشجر. ولماذا يشكّ أحد في أنها فعلت هذا الفعل؟ وضعت حقيبة فيريتي بجانبها بالإضافة إلى سلسلة ذهبية صغيرة كانت فيريتي معتادة على لبسها حول رقبتها، وربما ألبستها ثوباً من ثياب فيريتي... كانت تأمل أن لا تُكتشَف الجريمة إلا بعد وقت طويل، لكنها نشرت في غضون ذلك الإشاعات عن مشاهدة نورا برود في سيارة مايكل في منطقة قريبة وروّجت أن الفتاة كانت تخرج مع مايكل، وربما كانت هي التي نشرت قصة فسخ فيريتي خطوبتها بسبب علاقته الآثمة بهذه الفتاة... وأعتقد أن كل شيء قالته استمتعت به. مسكينة هذه المرأة!

- لماذا تقولين إنها مسكينة يا آنسة ماربل؟

- لأنني لا أظن أن هناك ألماً أكبر مما عانته كلوتيلد طوال هذا الوقت. لقد مضت عشر سنوات الآن وهي تعيش في حزن أبدي، تعيش مع الشيء الذي كان يتوجب عليها أن تعيش معه. لقد احتفظت بفيريتي، احتفظت بها هناك في بيت العزبة القديمة، في الحديقة، وضعتها هناك إلى الأبد! لم تدرك في البداية ما كان يعنيه ذلك، اشتياقها الغريزي لأن تعود الفتاة إلى الحياة ثانية. لا أظن أنها عانت من الندم... لم تشعر حتى بذلك العزاء. لقد عانت فقط، واستمرت معاناتها سنة بعد أخرى. الآن عرفتُ ما قصدته إليزابيث تيمبل، ربما أفضل مما كانت تعرفه هي: إن الحب رهيب جداً، إن بوسعه أن يفضي إلى الشر، بل يمكن أن يكون من أكثر الأشياء شراً. كان عليها أن تتعايش مع تلك المعاناة يوماً بعد يوم وسنة بعد أخرى. وأظن أن

آنثيا كانت خائفة من هذا، أظن أنها كانت تعرف أكثر فأكثر ما فعلته كلوتيلد، وقد ظنت أن كلوتيلد عرفت أنها تعرف، وكانت خائفة ممّا قد تفعله كلوتيلد. أعطت كلوتيلد ذلك الطرد لآنثيا لتضعه في البريد، الطرد الذي فيه السترة، وقالت لي أشياء عن آنثيا، أنها كانت مضطربة عقلياً وأنها إذا عانت من الغيرة والاضطهاد فإنها ستفعل أي شيء. أعتقد، نعم... أعتقد أن شيئاً كان سيحدث لآنثيا في المستقبل القريب... انتحار بسبب الشعور بالذنب مثلاً.

سألها السير آندرو: ومع ذلك فأنت تشعرين بالأسف على تلك المرأة؟ إن الشر الخبيث مثل السرطان والورم الخبيث، إنه يجلب المعاناة.

قالت الآنسة ماربل: بالطبع.

قال البروفسور وانستيد: أعتقد أنهم أخبروك بما حدث تلك الليلة بعد أن أخرجتك الآنسة كوك من الغرفة؟

- أتقصد ما حدث مع كلوتيلد؟ أذكر أنها أمسكت بكأس الحليب الذي كان بجانب سريري، كانت تحمله عندما أخرجتني الآنسة كوك من الغرفة وأعتقد أنها... شربته. أليس كذلك؟

- بلى، هل كنت تعرفين أن هذا قد يحدث؟

- لم أفكر فيه، لا، ليس في تلك اللحظة. أظن أنني كنت سأعرف لو فكرت فيه.

- لا أحد كان سيمنعها. كانت سريعة في عملها ذاك، كما أن أحداً لم يدرك تماماً وجود شيء غير عادي في الحليب.

www.liilas.com

- وهكذا شربته.

- هل يدهشك هذا؟

- لا، كان من شان ذلك أن يبدو لها أمراً طبيعياً. لقد وصلت في تلك اللحظة إلى مرحلة أرادت فيها الهروب... مع جميع الأشياء التي كان عليها أن تعيش معها. تماماً كما أرادت فيريتي أن تهرب من الحياة التي كانت تعيشها. أليس غريباً أن يكون الجزاء من جنس العمل؟

- كأنك تشعرين بالأسف عليها أكثر من أسفك على الفتاة التي ماتت؟

- لا، إنه نوع مختلف من الأسف. أنا آسفة على ما حدث لفيريتي لأنها فقدت كل شيء وآسفة على ما كانت على وشك أن تحصل عليه، حياة الحب والإخلاص وخدمة الرجل الذي اختارته والذي أحبته بصدق. لقد فقدت كل هذا ولا شيء كان سيعيده إليها. إنني آسفة عليها بسبب ما لم تحصل عليه، لكنها هربت من المعاناة التي أصابت كلوتيلد، الأسف والبؤس والخوف والشر المتنامي... كان على كلوتيلد أن تعيش مع كل هذه الأشياء، الأسف والحب المحبط الذي لن تستعيده أبداً، وكان عليها أن تعيش مع شقيقتيها اللتين كانتا تشكّان فيها وتخافان منها، وكان عليها أن تعيش مع الفتاة التي وضعتها هناك.

- أتقصدين فيريتي؟

- نعم، فيريتي التي دُفنت في الحديقة في قبر أعدته كلوتيلد. كانت هناك في بيت العزبة القديمة، وأظن أن كلوتيلد ربما خُيّل إليها

أنها رأتها في بعض المرات وهي تخرج إلى الحديقة لتجمع حزمة من أزهار عصا الراعي. لا بد أنها أحست أنها قريبة جداً من فيريتي وقتها، فهل يمكن أن يحدث لها ما هو أسوأ من ذلك؟ لا شيء أسوأ منه!

* * *

www.liilas.com

الفصل الثالث والعشرون
الأجزاء الأخيرة

قال السير آندرو ماكينكل بعد أن ودّع الآنسة ماربل وشكرها:
هذه السيدة أطارت صوابي.

قال مساعد المفوض: إنها رقيقة جداً... وقاسية جداً.

أخذ البروفسور وانستيد الآنسة ماربل إلى سيارته التي كانت في
نتظاره ثم عاد ليتبادل بضع كلمات أخيرة.

- ما رأيك بها يا إدموند؟

قال وزير الداخلية: لم أر امرأة مخيفة مثلها أبداً.

قال البروفسور وانستيد متأملاً: انتقام العدالة!

قال المدعي العام: هاتان المرأتان، العميلتان السريتان اللتان
انتا تحرسانها، لقد قدمتا وصفاً غريباً جداً لها الليلة الماضية. لقد
خلنا إلى البيت بسهولة تامة واختبأنا في غرفة صغيرة أسفل الدرج
ى أن صعد الجميع للنوم، ثم دخلت إحداهما إلى غرفة النوم ثم إلى
اخل الخزانة بينما بقيت الأخرى خارج الغرفة للمراقبة. وقد قالت

تلك التي كانت في غرفة النوم إنها عندما دفعت باب الخزانة وخرجت منه رأت السيدة العجوز جالسة في سريرها وهي تلفّ حول رقبتها وشاحاً وردياً رقيقاً وكانت قسمات وجهها هادئة تماماً وتتحدث كأنها معلمة عجوز... لقد أثارت دهشتهما.

قال البروفسور وانستيد: وشاح وردي رقيق؟ نعم، نعم، أتذكّر...

- ماذا تتذكر؟

- العجوز رافائيل. لقد حدثني عنها، ثم ضحك. قال إن هناك شيئاً لن ينساه في حياته أبداً، وقال إن ذلك حدث عندما جاءت امرأة عجوز مشوَّشةُ الذهن غريبةُ الأطوار تركض إلى غرفته في جزر الهند الغربية وتلف حول رقبتها وشاحاً وردياً رقيقاً، وتخبره بأن عليه أن ينهض وأن يفعل شيئاً ليمنع وقوع جريمة. وقال لها: ماذا تظنين بربك أنك فاعلة؟ فردت عليه قائلة إنها ستلعب دور «انتقام العدالة». انتقام العدالة! وقال إنه لم يستطع تصوّر شيء أبعد شبهاً بذلك من هذه العجوز.

ثم قال البروفسور وانستيد متأملاً: أحب لمسة وشاح الصوف الوردي، أحب ذلك كثيراً.

* * *

قال البروفسور وانستيد: مايكل، أريد أن أعرّفك بالآنسة جين ماربل التي عملت لصالحك بنشاط كبير.

نظر الشاب ابن الثانية والثلاثين إلى المرأة العجوز ذات الشعر

www.liilas.com

الأبيض نظرات ارتياب، ثم قال: آه، إن... أظن أنني سمعت عنها. أشكرك كثيراً.

ثم نظر إلى وانستيد وقال: أليس صحيحاً أنهم سيصدرون عفواً عنّي أو شيئاً كهذا؟

- بلى، سيصدر قرار في الحال؛ ستكون حراً خلال مدة قصيرة جداً.

- آه.

بدا مايكل مرتاباً بعض الشيء. قالت الآنسة ماربل بلطف: أظن أنك سوف تستغرق بعض الوقت حتى تعتاد الحياة الجديدة.

نظرت إليه نظرات متأملة. كانت تنظر إليه وهي تتخيل كيف عساه كان قبل عشر سنوات. ما زال وسيماً جداً رغم الإجهاد الكبير الذي بدا عليه، ورأت أنه كان جذاباً جداً ذات مرة. كان وقتها شاباً مرحاً دون شك وفيه سحر، وقد فقد ذلك الآن لكن ربما سيعود إليه. له فم صغير وعينان جذابتان تنظران إلى المرء مباشرة، وربما كانتا مفيدتين جداً في الكذب حتى تجعلانك تصدقه. إنه يشبه كثيراً... من؟ غاصت في الذكريات الماضية. يشبه جوناثان بيركين بالطبع؛ كان يغنّي مع جوقة المرتلين وله صوت صادح ممتع، وكانت الفتيات مولعات به! كان يعمل في وظيفة جيدة موظفاً في شركة غابريل، وللأسف فقد وقعت هناك تلك المشكلة الصغيرة المتعلقة بالشيكات.

قال مايكل مرتبكاً: آه، إنه لطف منك لأنك قاسيت كل هذه المتاعب.

قالت الآنسة ماربل: لقد استمتعت بها، وأنا سعيدة بلقائك. وداعاً، أرجو لك حياة سعيدة في الأيام القادمة. إن بلادنا تعاني من مشكلات كبيرة الآن لكنك ستجد وظيفة قد تستمتع بها.

- آه، نعم. أشكرك، أشكرك كثيراً، أنا ممتنّ لك كثيراً.

قالها وهو ما زال غير واثق من الأمر، فقالت الآنسة ماربل: كان يجب أن تشكر شخصاً غيري؛ كان يجب أن تشكر والدك.

- أبي؟ إن أبي لم يفكر بي كثيراً.

- فيما كان والدك يحتضر صمّم على ضرورة حصولك على العدالة.

- العدالة؟

فكر مايكل رافائيل بتلك الكلمة طويلاً.

- نعم، لقد رأى والدك أن العدالة مسألة مهمة. أظن أنه كان رجلاً عادلاً جداً، وفي الرسالة التي كتبها لي طالباً مني فيها تولي هذا العمل قال لي: فلتتدفق العدالة قوية كالشلال، وليتدفق الحق كنهر دائم.

ثم فتحت الآنسة ماربل طرداً كانت تحمله وقالت: لقد أعطوني هذه. اعتقدوا أنني ربما كنت أريدها لأنني ساعدتهم في اكتشاف حقيقة ما حدث، لكني أعتقد أنك أول من يحق له المطالبة بها... هذا إن كنت تريدها فعلاً. ولكن ربما كنت لا تريدها.

أعطته صورة فيريتي هنت التي عرضتها كلوتيلد عليها وهي في غرفة الاستقبال في بيت العزوبة القديمة. أخذها ووقف يحدق إليها،

www.liilas.com

وتغيرت قسمات وجهه وهدأت ثم تصلبت. وراقبته الآنسة ماربل دون أن تتكلم. استمر الصمت بعضاً من الوقت، وراقبه البروفسور وانستيد أيضاً... راقبهما معاً، السيدة العجوز والفتى.

عرف -بطريقة ما- أن تلك كانت أزمة، لحظة قد تؤثر على أسلوب جديد في الحياة. ثم تنهّد مايكل رافائيل ومدّ يده وأعاد الصورة إلى الآنسة ماربل قائلاً: لا، أنت على حق، لا أريدها. لقد مضت تلك الحياة كلها... لقد رحلت. لا أستطيع أن أبقيها معي، وأي شيء أفعله الآن يجب أن يكون جديداً... إلى الأمام.

تردد وهو ينظر إليها ثم قال: أتفهمين؟

- نعم، أفهم، وأظن أنك على حق. أتمنى لك حظاً سعيداً في حياتك الجديدة.

ودّعها ثم خرج، وقال البروفسور وانستيد: إنه شاب يفتقر إلى الحماسة، كان عليه أن يشكرك بحماسة أكثر لما فعلته من أجله.

قالت الآنسة ماربل: آه، لا بأس بهذا. لم أتوقع منه أن يفعل ذلك، ولو فعل لأربكه ذلك كثيراً. عندما يضطر شخص لأن يشكر الناس ويبدأ حياة جديدة ويرى كل شيء من زاوية مختلفة فإنه يشعر بحرج شديد. أعتقد أنه سينجح في حياته، إنه لا يشعر بمرارة تفسد حياته وهذا هو أهم شيء. لقد عرفت جيداً لماذا أحبته تلك الفتاة.

- حسناً، ربما سيعيش حياة مستقيمة هذه المرة.

- أشك في ذلك! لا أعرف إن كان سيستطيع تمالك نفسه إلاّ إذا... بالطبع، إن أكثر ما نتمناه له هو أن يلتقي بفتاة لطيفة.

- إن ما يعجبني فيك هو تفكيرك العملي الذي يبعث على السرور.

* * *

قال السيد برودريب مخاطباً السيد شوستر: ستكون هنا في الحال.

- نعم. إن ما حدث غريب جداً، أليس كذلك؟

- لم أصدقه في البداية. عندما كان المسكين رافائيل يحتضر اعتقدت أن هذا الأمر كله كان مجرد تخريف منه، رغم أن سنّه لم يكن قد بلغ به مرحلة الخرف.

رنّ جرس الهاتف الداخلي، فرفع السيد شاستر السماعة وقال: آه، هل وصلت؟ لتتفضل إلى هنا.

ثم قال: لقد وصلت. أنا متحير الآن، فهذا أغرب ما سمعته في حياتي؛ إرسال عجوز لتدور في الريف بحثاً عن شيء لا تعرف هي ما هو! إن الشرطة يعتقدون أن تلك المرأة لم ترتكب جريمة واحدة فقط بل ثلاث جرائم! كانت جثة فيريتي هنت تحت الركام في الحديقة، تماماً كما قالت السيدة العجوز، وهي لم تُخنَق ولم يكن وجهها مشوّهاً.

قال السيد برودريب: يدهشني كيف أن السيدة العجوز نفسها لم تقتل! إنها كبيرة بالسن ولا تستطيع الاهتمام بنفسها.

- كان معها اثنتان تحرسانها.

www.liilas.com

- ماذا، اثنتان؟

- نعم، لم أعرف هذا من قبل.

أشير للآنسة ماربل بالدخول إلى غرفتهما. وقال السيد برودريب وهو ينهض لتحيتها: تهانينا يا آنسة ماربل.

قال السيد شاستر وهو يصافحها: لكِ منّا أطيب التهاني، لقد كان عملاً رائعاً.

جلست الآنسة ماربل على الجانب الآخر من المكتب رابطة الجأش، وقالت: كما أخبرتكما في رسالتي، أظن أنني أنجزت شروط العرض والمهمة التي أوكلت إليّ. لقد نجحت فيما طُلب مني عمله.

- آه، أعرف، نعم، لقد سمعنا بهذا، سمعنا من البروفسور وانستيد ومن الدائرة القانونية ومن الشرطة... نعم، كان عملاً رائعاً يا آنسة ماربل، ونحن نهنئك عليه.

قالت الآنسة ماربل: كنت أخشى أن لا أتمكن من فعل ما طلب مني، فقد بدا في البداية عملاً صعباً جداً، بل مستحيلاً إلى حد ما.

- نعم، لقد بدا مستحيلاً بالنسبة لي، ولا أعرف كيف قمت بهذا العمل يا آنسة ماربل.

- آه، إن المثابرة هي التي تؤدي إلى النتائج.

- والآن بخصوص المبلغ المحفوظ عندنا، إنه ملك لك الآن تأخذينه متى شئت. لا أدري إن كنت تريدين منّا أن نودعه في حسابك المصرفي أو ربما تريدين استشارتنا بخصوص استثماره؟ إنه مبلغ كبير جداً.

قالت الآنسة ماربل: عشرون ألف جنيه. نعم، إنه مبلغ كبير جداً حسب تفكيري، مبلغ غير عادي.

- إن كنت تريدين أن نعرّفك بسماسرتنا فيمكن أن يعطوك أفكاراً حول الاستثمار.

- آه، لا أريد استثمار أي جزء منه.

- لكنه سيكون بالتأكيد...

- لا معنى لأن أدّخر هذا المبلغ في مثل هذا العمر. أقصد أن الغرض من هذا المال (وأنا واثقة أن هذا ما كان يريده السيد رافائيل) هو الاستمتاع ببعض الأشياء التي ما كنت أملك المال للاستمتاع بها.

قال السيد برودريب: حسناً، أفهم ما ترمين إليه. إذن تريدين منّا أن نودع المبلغ في حسابك البنكي؟

- بنك ميدلتون، ١٣٢ هاي ستريت، سينت ميري ميد.

- أظن أن لديك حساب توفير هناك، فهل تودعه فيه؟

- بالتأكيد لا؛ بل ضعه في حسابي الجاري.

- ألا تعتقدين...

- بل أعتقد؛ أريده في حسابي الجاري.

نهضت وصافحتهما.

- يمكنك طلب نصيحة مدير مصرفك يا آنسة ماربل. المرء لا يدري متى يأتي اليوم الأسود الذي يحتاج فيه النقود.

www.liilas.com

قالت الآنسة ماربل: لن أحتاج إلى نقود إذا جاء اليوم الأسود.

صافحتهما مرة أخرى وقالت: أشكرك كثيراً يا سيد برودريب، وأنت أيضاً يا سيد شوستر. لقد كنتما لطيفَين معي كثيراً وأعطيتماني كل المعلومات التي كنت أحتاجها.

- هل حقاً تريدين منّا أن نودع نقودك في حسابك الجاري؟

- نعم. سأنفقها، سوف ألهو بها وأستمتع.

نظرت وراءها وهي عند الباب ثم ضحكت، وللحظة واحدة انتاب السيد شوستر (الذي كان يمتلك خيالاً أوسع من خيال السيد برودريب) انتابه شعور غامض بفتاة شابة جميلة تصافح الكاهن في إحدى الحفلات التي أقيمت في الريف. وأدرك بعد لحظات أن ذلك كان استذكاراً لشبابه، لكن الآنسة ماربل ذكّرته بتلك الفتاة، فتاة شابة وسعيدة وتريد أن تمتع نفسها.

قالت الآنسة ماربل وهي تخرج من الباب: لقد أرادني السيد رافائيل أن أستمتع.

قال السيد برودريب: انتقام العدالة! هكذا وصفها السيد رافائيل. انتقام العدالة، هل رأيت أشبه منها بهذا المفهوم؟

هز السيد شوستر رأسه نافياً، فقال السيد برودريب: لا بد أنها واحدة أخرى من مزحات السيد رافائيل الصغيرة.

* * *

The End

www.liilas.com